النظم الإسلامية

التشريعية والسياسية والإقتصادية والإجتماعية والدفاعية

تأليف

د. شحادة الناطور — د. أحمد عودات

د. جميل بيضون — الأستاذ علي عكاشة

الطبعة الثانية

١٩٩٢ م

دار الأمل للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الاجازة المتسلسل (٧١٣/ ١٢/ ٨٨)
رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية
٧١٣/ ١٢/ ١٩٨٨

٢١٨,٣
نظم
النظم الاسلامية التشريعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية/
شحادة الناطور. اربد دار الأمل للنشر ، ١٩٨٨
(٢٦٠) ص
ر.أ (٧١٣/ ١٢/ ١٩٨٨)
١- نظم الاسلامية أ- العنوان
ب- شحادة الناطور " مؤلف مشارك "

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعد

نقدم لأخواننا المدرسين وأبنائنا الطلاب كتاب النظم الإسلامية وهو يشمل النظم العقائدية والتشريعية، والسياسية والإدارية، والتنظيمات الإدارية والسياسية، وكذلك النظم المالية والاجتماعية،هذا إلى جانب النظم الدفاعية والحربية في حالة السلم والحرب.

إن ما دفعنا إلى وضع هذا الكتاب لم يكن الشعور بقلة المؤلفات، ولكن إحساسنا بما يلاقيه بعض الزملاء من قلة ما بأيديهم من المصادر والمراجع لتذليل ما يواجهون من صعوبات حول تحضير محتوى المنهاج الجديد.

والكتاب إذ يبحث في النظم الإسلامية ، نقدمه لكل أخ وزميل ليطلع على مادة مبسطة من الفكر الإسلامي في جانبه الحضاري والتنظيمي وبالأسلوب الذي يفهمه أبناؤنا الطلاب متى خطوا في التأمل والنظر المجرد بعض الخطوات المستطاعة لأكثر المستويات البشرية.

لقد أعد الكتاب لطلاب المعرفة ومحبي الثقافة ووفق منهاج محدد، وقد ألقي معظمه على طلاب الجامعة خلال سنوات سابقة من قبل المؤلفين. وأعيدت صياغة المادة وفق المستوى الفكري للطلاب مقترنة بالأدلة المنطقية والبراهين السديدة وفق المنهج العلمي السليم،وذلك لإيجاد الطالب المثقف المتميز بالفكر الرصين ، والبحث العميق ، لتتقد فيه جذوة الكفاح ومواجهة التحدي وقيادة الركب الحضاري لرفع راية العلم والمعرفة في بلدنا الحبيب.

وأخيرا ... فهذا الكتاب مساهمة متواضعة في تعميم نشر ثقافتنا الإسلامية . ومهما بذلنا فسيبقى العمل ناقصا لأن الكمال لله وحده، وأملنا أن لا يبخل علينا إخواننا الأساتذة بتوجيهاتهم وإرشاداتهم لنأخذ بها في الطبعات القادمة.

وكلنا أمل في الله أن يسد هذا العمل بعض الفراغ،والله نسأل أن يأخذ بأيدينا إلى ما فيه الخير والصواب إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلفون

بسم الله الرحمن الرحيم

أهداف الكتاب

- تعريف الدارسين بالإسلام من خلال نظمه التشريعية والاقتصادية والفكرية ...
- أن يدرك الطلاب تكامل النظم الإسلامية وشمولها .
- أن يتعرف الدارسون على المصطلحات والقواعد المستخدمة في حل المشكلات الحياتية الناجمة عن صور التعامل بين أفراد المجتمع الاسلامي.
- أن يتدرب الطلاب على استخدام القواعد والأفكار العامة والمبادئ المتعلقة بالمعاملات في مواقف الحياة الملموسة.
- إيجاد الرغبة بين المتعلمين لتقبل النظم الإسلامية .
- الاستجابة السلوكية لدى الدارسين بالطاعة والأخذ بأحكام النظم الإسلامية.
- تكوين اتجاه فلسفي إسلامي للدارسين يتناسب مع مفردات محتويات المناهج.

الوحدة الأولى

١- التعريف بالإسلام

٢- العقيدة

٣- النبوة

٤- العبادة

أ-التعريف بالإسلام

معنى الإسلام :

أنزل الله الإسلام على أنبيائه حيث أكد هذا المعنى على لسان الأنبياء في القرآن الكريم فقد جاء على لسان نوح قوله : * وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * (١) وعلى لسان ابراهيم واسماعيل : * رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ * (٢) وفي قول يعقوب لأبنائه * إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ * (٣) وعلى لسان موسى قوله : * فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُسْلِمِينَ * (٤) وفي معرض قوله عن التوراة : * يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا * (٥) وعن يوسف قوله : * تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّلِحِينَ*(٦) وقال الله للمسلمين*(٧) شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ*(٨)

وهناك عدد كبير من الآيات القرآنية التي توضح بأن الإسلام دين البشرية ، والإسلام في الأصل معناه الاستسلام لله في أمره ونهيه على لسان الوحي وأن القرآن الكريم قد عرض رسالة الإسلام عرضا مجملا شاملا كقوله تعالى :

* يَـأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ ارْكَعُواْ وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ*(٩) وقوله تعالى * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

(١) سورة يونس : آية ٧٢

(٢) سورة البقرة : آية ١٢٨

(٣) سورة البقرة : آية ١٣٢

(٤) سورة يونس : آية ٨٤

(٥) سورة المائدة : آية ٤٤

(٦) سورة يوسف : آية ١٠٠

(٧) سورة آل عمران : آية ٥٢

(٨) سورة الشورى : آية ١٣.

(٩) سورة الحج : آية ٧٧.

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * (١) وقوله تعالى * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ *(٢) وإن فهم الناس للإسلام ومعناه الشامل قد دخله بعض الشوائب والتشويه المقصود من الاعداء، لذلك فإن الحاجة ملحة لإعطاء صورة شاملة لجميع جوانبه وأجزائه مع ترابطها وحفظ نصها ومواقعها . (٣)

فهم الإسلام كما فهمه المسلمون الأوائل من الصحابة وإن كثيرا من الأمثلة تبين لنا صحة هذا القول فلنستمع إلى ربعي بن عامر يقول لرستم قائد الفرس عندما سأله هذا عن سبب مجيء المسلمين الى بلاده وهو يجيب : " ما لهذا جئنا ، إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله،ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام،ومن ضيق الدنيا إلى سعتها" يدخل ضمن هذه العبارات التحرر السياسي والاجتماعي وأن العبودية لله وحده ، كما تتضمن القضاء على الأنظمة الاجتماعية الجائرة ،وإقامة نظام اجتماعي يتصف بالعدل كما تجعل للإنسان أهدافا سامية بعيدة عن الأطر الضيقة التي كانت تعيشها البشرية.

إننا لو استقرأنا ما كتبه الخلفاء الأوائل إلى الولاة لوجدنا الفهم العميق لمعاني الإسلام وتطبيق احكامه العملية في كل المجالات،في العبادة،والمعاملات،والمسئولية أمام الله،في تنفيذ الأحكام. لذلك فإن الهدف الإسلامي الأصيل هو تجميع عناصره العقلية والعملية والنفسية وجوانبه الإيمانية والعبادية والأخلاقية والتشريعية في وحدة مركبة كاملة لتكوّن المسلم ولتقدمه بصورته الواضحة من حيث عقيدته التي يرتكز عليها، وتتضمن النظرة العامة إلى الوجود التي يدعو إليها، وعبادته التي هي رياضة العقيدة والمحرك المستمر لاستشعارها. ومن قواعد السلوك في الحياة أو نظامه الأخلاقي، ومن قواعد تنظيم المجتمع والتشريع المنظم للأسرة وللحياة الاقتصادية السياسية أو الدولة.

بهذه الصور الشاملة نعرف بالإسلام تعريفا صحيحا بعيدا عن التجزئة مميزا عن غيره من المذاهب المختلفة وإن التقت معه في جزئيات قليلة فالجزء لا يعني الكل.

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٤

(٢) سورة الحديد : آية ٢

(٣) محمد المبارك : نظام الإسلام : العقيدة والعبادة ، ص ٢٠.

ويمكن أن نعرض الإِسلام بنظامه الشامل من مصادره الأساسية القرآن والسنة من خلال أربعة أقسام رئيسة .

١-العقيدة الإِسلامية[1]

وهي نظرة الإسلام العامة إلى الوجود، وهي ما دعا الإسلام إلى الإيمان بها من خلال الآيات القرآنية المتكررة وكذلك بما جهد الرسول (ص) نفسه من أجل تثبيتها في نفس المؤمنين منذ بداية الدعوة . والعقيدة هي الأساس الذي يبني المسلم فكره على أساسه ، والأساس النفسي لسلوكه ومنها تنبثق نظرته إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية، وإن نظم الحياة مشتقة من فلسفته في بنائه، كما أنها تتضمن الحقائق الكبرى التي دعا القرآن إلى الإيمان بها، وهي تصور الوجود، وجود الخالق ووجود الكون والإنسان والصلة بين الله والكون وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى أو المصير والجزاء والنبوة.

٢- العبادة :

وهي الترجمة العملية للإيمان ، وإذكاء العقيدة ونقلها إلى حيّز الأعمال الحسية والمشاعر القلبية.

٣-الأخلاق :

وهي ركائز السلوك في الحياة فيما بين الفرد ونفسه. وبين الناس. مهما اختلفت علاقتهم به. وإن الأخلاق التي يهدف إليها الإسلام بنظامه،هي المثالية في التهذيب النفسي التي يلتزم بها المسلم.

(١) محمد المبارك : نظام الإسلام : ص ٢٧ وما بعده.

٤- التشريع أو النظام الاجتماعي :

بنى الإسلام للمسلمين بناءً اجتماعيا متكاملا فوضع تشريعا للأسرة، ونظاما اقتصاديا ماليا محددا من حيث الكسب والإنفاق والتكامل والتضامن وحدد مفهوم الملكية، كما يشتمل الإسلام على نظام سياسي أي نظام الدولة، ووضع مبادئ عامة للحكم، محددا العلاقة بين الحاكم والشعب وحقوق المواطن وواجباته، والعلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول وقواعد السلم والحرب، كما يشتمل الإسلام على نظام للعقوبات وبذلك يضمن التشريع الإسلامي نظاما متكاملا يتميز به عن غيره من الأنظمة الأخرى قديمها وحديثها لذلك سنبحث كلا منها بالتفصيل كي تكتمل الصورة.

ب- العقيدة

قامت الحضارات الإنسانية على أساس العقيدة التي دانت بها تلك الأمم،يدل على هذا الواقع العالمي الحالي .

فلو نظرنا إلى النظام الاجتماعي في النظام الرأسمالي لوجدناه متصلا بفلسفة هذا النظام وتصوره ومفاهيمه، كذلك ينطبق هذا القول على النظام الاجتماعي المنبثق عن الفلسفة الشيوعية وهي مشتقة من نظرتها للإنسان والحياة.

أما العقيدة الإسلامية فإن أسسها ومعالمها موجودة في القرآن الكريم واضحة بسوره وآياته ، فهي تعطينا نظرة شاملة للوجود، وتصوره لنا وما يتفرع عن ذلك من مفاهيم ونظرات، وان شمولية العقيدة الاسلامية تقودنا إلى البحث فيما يلي :

الكون: (1)

من خلال دراستنا للقرآن الكريم ولآياته المبينة فيما يتعلق بالكون أُمكن أن نستنتج ما يلي :

١- الشمول :إن عرض القرآن الكريم للكون لا يقتصر على بيئة جغرافية أو بلاد معينة،بل يشمل الأرض بكاملها ومن ثم يتجاوزها إلى الفضاء الخارجي بنجومه وكواكبه والشمس والقمر، فهو يجول بالإنسان بما يراه وما لا يراه وبما خلق وما سيخلق، يبتدئ بنا بالأرض التي نعيش عليها * والأَرْضَ مَدَدْنَاها وَأَلْقَيْنا فِيها رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * (2)

وكذلك شمل البحرويرينا ما به من منافع * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * (3)

---

(1) محمد مبارك : نظام الإسلام ، ص ٣٨ وما بعدها.

(2) سورة الحجر، آية ١٩، ٢٠.

(3) سورة النحل، آية ١٤.

ومن ثم يصعد بالانسان إلى الكون الأعلى فيصف مكوناته، وما يجري بينها من صلات * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلون * (١)

ويعطينا القرآن مشهدا جامعا ما بين الماء واليابسة والفلك * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوات والأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * (٢)

وفي سورة النحل ٢-١٧ يجتمع في آياتها مشهد الكون وما فيه من أحياء وجمادات وأفلاك بصورة واضحة (٣) .

٢- الحركة : يعرض القرآن الكون بما يجري فيه من حوادث وتغير من طور إلى آخر بصورة مثيرة * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * (٤) * وسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى * (٥)

وآيات القرآن التي توضح حركة الكون وخلق الإنسان زاخرة بالمعاني التي وصل إليها علم الإنسان والتي لم يصل إليها بعد .

٣- الانتظام : ترتبط حوادث الكون ببعضها كما تشير الآيات الكريمة بانتظام ، متبعة قواعد مطردة في حدوثها وحركتها وإن كثيرا من الآيات لتوحي بذلك.

* وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذا هُم مُظْلِمُونَ والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالعُرْجُونِ القَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحونَ * (٦)

* أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي

(١) سورة النحل ، آية ١٢

(٢) سورة ابراهيم، آية ٣٢، ٣٣.

(٣) راجع سورة النحل.

(٤) سورة الحج ، آية ٦٣

(٥) سورة الرعد ولقمان وفاطر والزمر.

(٦) سورة يس ، آية ٣٧-٤٠ .

الألباب﴾(١)

وإن القرآن ينبهنا إلى الاختلاف في الخلق من حيث الألوان والأشكال وإلى التشابه وعدم التشابه. كما ينبهنا إلى ما في السنن الكونية من صفة الكمية وقابلية العد والإحصاء(٢) .

كما ينبه القرآن إلى اختلاف الأصناف والأنواع .

﴿ واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (٣) .

والكون كما تقدم من سعة أفقه وتعدد أنواعه واستمرار حركته وتبدله وجريانه على قواعد معينة،لا شك أنه موضوع تفكير وتأمل، وقد دعا القرآن الإنسان إلى استعمال الفكر والحواس لادراكه على حقيقته كما أن الكون متعة وجمال وانتفاع للإنسان.

ثانيا : الله الخالق

إن هذا الكون بمجموعه المنسق المتكامل، لا بد له من قوة مصممة هادفة مدركة، متميزة عن جميع أنواع الموجودات بسعة الإطار الذي تعمل فيه وتحيط به وعمق ما تعمله فيه وانتظام ذلك العمل وتناسقه (٤) .

هذه القوة التي دفعنا القرآن إلى التفكير بها وهي الخلق من العدم، لا بد لها من خالق

وهناك عدد كبير من الآيات القرآنية التي تطرح مسائل الخلق والوجود : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ

(١) سورة الزمر ، آية ٢١.

(٢) سورة الأنعام : آية ١٠٠ وسورة الحجر والرعد .

(٣) سورة النور : آية ٤٥.

(٤) سعيد حوى الله : ص ١٤٩ - محمد المبارك نظام الاسلام ص ٤٥.

وَتَصْرِيفِ الرِيَاحِ والسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلونَ*(١)* هو الَّذي خَلَقَ لَكُم مَّا في الأرْضِ جَميعاً ثُمَّ استَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ *(٢)

وان تطور التفكير الإنساني يمكن أن يقود الإنسان إلى معرفة الخالق كما جاء في تطور تفكير ابراهيم عليه السلام عندما حاول اتخاذ آلهة من الطبيعة الزائلة، فيأس من ذلك لأن الزائل لا يمكن أن يكون خالقا(٣) فوصل ابراهيم أخيراً إلى أن هناك فاطراً للسموات والأرض فيعلن : * إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّمَواتِ والأرْضَ حَنيفاً وَمَا أنَاْ مِنَ المُشْرِكِينَ* (٤) .

ثم يطرح القرآن مسألة النشأة الأولى بقوله تعالى * خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ * وان الخلق مقدر ووفقا لخطة وأهداف متكاملة .

إن العقيدة الإسلامية وضحت ألا تعارض بين وجود ارتباط سببي بين أجزاء الطبيعة وحوادثها ووجود الخالق، وان هذا الارتباط يحتاج إلى قوة خارقة قدرته على هذه الصورة.

وبذلك يكون مفهوم الإله في الإسلام أنه هو القوة الخالقة المبدعة، وأنه القوة الخالقة للأشياء والأسباب وأن الأشياء والأسباب غير عاقلة بل مخلوقة منفعلة متأثرة خاضعة موجهة تحتاج إلى من يوجدها ويقدرها ويوجهها. (٥)

وان الله في العقيدة الاسلامية وجود كامل مطلق يتصف بالحياة والعلم والقدرة والارادة ذلك أن في الكون نفسه مخلوقات تتصف بهذه الصفات ضمن حدود محدودة، كالحيوانات والانسان، فلا بد أن يكون الموجد الذي أوجدها متصفا بصفات أعلى منها وأشمل وأكمل في تحديد محدود، ومن هنا كان الاختلاف الواضح بين حياة محدودة تبدأ بالولادة ويعتريها التوقف والتحديد والنقصان بالتخدير والنوم وتنتهي بالموت أو الفناء، وحياة دائمة كاملة لا يعتريها شيء من ذلك، بين علم محدود ناقص يقبل الزيادة ، وعلم

(١) سورة البقرة : آية ١٦٤.

(٢) سورة البقرة : آية ٢٩.

(٣) سورة الأنعام:

(٤) سورة الأنعام: آية ٧٩ .

(٥) عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الاسلامية ، ص ٣١.

كامل دائم لا يعتريه نسيان ولا غفلة ولا نقص ولا يتحدد بحدود مكانية أو زمانية ولا يتصف بولادة ولا قرابة ولا نسب [1] .

وان الله واحد لأنه لا يمكن الاستغناء عنه بشريك لان الاستغناء يعني النقصان والله كامل. ليس كمثله شيء .

الله في العقيدة الاسلامية " احاط بكل شيء علما " ولا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، هو " عالم الغيب والشهادة " فهو بصير يبصر كل الاشياء، يملك كل شيء ، يسجد له من في السموات والارض.

وان صلة الكون بالله صلة وثيقة لانه موجد كل شيء ، وهو المتصرف بالكون لانه مهندسه ومصممه وموجد قوانينه بمسمياته الانسانية " الجاذبية " ، ان الله قادر ان يغير هذا الكون، لأن هذا النظام منوط بمشيئة الله "

* لَهُ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ * * بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * [2]

صلة الانسان بالكون :-

الانسان بنظر الاسلام هو أحد مخلوقات الله الكونية، يشاركها ببعض صفاتها. إلا أنه ينفرد بصفات خاصة :

١- فالانسان كجسم بشري يشارك التراب بتركيباته الكيماوية قال تعالى * واللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ * [3]

٢- الانسان يشارك النبات، حيث إن بعض غذائه من النبات وهذا هو صلة الانسان المستترة مع التراب قال تعالى * واللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * [4]

٣- كما أن الانسان يشارك الحيوان في بعض صفاته وغرائزه من حيث النمو والطعام

---

(١) محمد المبارك، نظام الاسلام ، ص٤٩.

(٢) سورة البقرة : آية ١١٦.

(٣) سورة فاطر : آية ١١

(٤) سورة نوح: آية ١٧.

والشراب والتناسل والتوالد، قال تعالى * وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ * (١)

٤- يتميز الانسان بصفات منفردة عن بقية الأحياء، استقامة الجسم قال تعالى * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * (٢)

وميزة للإنسان أكثر أهمية وهي العقل والتفكير قال تعالى* وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * (٣) كما يتميز الانسان بالعلم قال تعالى * اقرأْ باسمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَق اقرأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ*

وان ميزة هامة تميز بها الانسان عن بقية الأحياء وهو سمو في الروح والاحساس بالانسانية قال تعالى * إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *(٤)

وان صفتي العقل والروح التي خلقت في الانسان جعلته مكلفا وحياته اختبارا لروحه وعقله قال تعالى * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً *(٥)

لكل هذا فالانسان الطبيعي هو الذي تمتزج فيه أنواع الانماء والنمو من عناصر تكوين الجسد إلى غرائز ، ثم إلى حواس مختلفة ثم إلى عقل يدرك ، وروح تسمو (٦) ، فلا يجعل عنصرا من هذه العناصر يطغى على الأخرى بل يحدث تجانس وترتيب من الترابية البسيطة (الجسد) إلى حيوانية الشهوات، إلى عقلية من فهم وإدراك إلى روحيه سامية ، وإن هذا التجانس متوازن بحيث لا تطغى واحدة على أخرى بل تعطي كلاً منها حقها بطريقة

(١) سورة الأنعام : آية ٣٨.

(٢) سورة التين : آية ٤.

(٣) سورة النمل : آية ٧٨.

(٤) سورة ص : آية ٧١-٧٢.

(٥) سورة الانسان : آية ٢.

(٦) عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الاسلامية : ص ٢٨.

سليمة ، انها تجعل من الفرد ذلك الانسان المتكامل السوي.

ان باستطاعة الانسان أن يبني كل تلك الجوانب البناء الصحيح فيغذي جسمه ليكون له القدرة السليمة على العمل، ويبني حواسه وينمي ادراكه وتفكيره فيستزيد من العلم ما وسعته الزيادة [1] (وقل ربي زدني علما). ثم يبني بنفسه دوافع الخير بعد أن ينبذ دواعي الشر فيكون بذلك ايجابيا ، فيبذل ويحب ويرحم ويتعاون فيتوسع بهذا الأمر حتى يبلغ الانسانية كلها بل الخلق جمعا .

كما باستطاعة الانسان أن يبلغ بموهبته الروحية آفاقا واسعة، فيتقوى شعوره بخالقه، ويجعل صلته دائمة به فيرتفع بذلك إلى أعلى المستويات الروحية والمثالية .

ان للانسان موقعاً خاصاً من بين أجزاء الكون وأن صلته به يعرضها القرآن بصورتين[2].

١- صلة الاستثمار والانتفاع والتسخير لمنافعه الخاصة.

٢- صلة الاعتبار والتأمل والتفكير في الكون وما فيه .

وأما مواصلة الانتفاع فقد وضحتها آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى *وَالأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ* [3] وان الله وصف تسخيره البحر للانسان، قال تعالى : * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*[4]

كما سخر الماء للانسان، قال تعالى * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ* [5] وان الله سخر الأرض للانسان قال تعالى * وَسَخَّرَ

(١) عمر عوده : لمحات الثقافة الاسلامية : ص ٣٤٩.

(٢) نظام الاسلام : محمد المبارك : ص ٥٩.

(٣) سورة النحل : آية ٥.

(٤) سورة النحل : آية ١٤.

(٥) سورة النحل : آية ١٠، ١١ .

لَكُمُ الَّيْلَ والنَّهارَ والشَّمْسَ والقَمَرَ * (١) بل سخر الكون للانسان قال تعالى* أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ * (٢) وبذلك استطاع الانسان أن ينتفع بالأرض وبكل ما في الكون ليبني حضارته .

٢- صلة التأمل والتفكير :

ان كثيرا من الظواهر الطبيعية مدعاة لتفكير الانسان محاولا تحليلها وفهمها ، وان آيات عديدة في القرآن تدعو الانسان الى ذلك التأمل بالرؤية والنظر والبصر والسمع والتدبر والتفقه ... الخ. قال تعالى * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ * (٣) والتفكر بدعوة من القرآن قال تعالى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * (٤) والتعقل ، قال تعالى * وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * (٥) .

وان في هذه الآيات كثيرا من الاعتبار والانتقال إلى الاهتداء إلى خالق الكون بعد التفكر بمشاهد الكون وجريان حوادثه وهناك آيات كثيرة تدعو الانسان إلى التفكر بالخلق (ويتفكرون في خلق السموات والأرض).

ولا شك ان اتجاه الانسان للتفكير في الأرض والماء والطبيعة ومعالجة صناعتها وزراعتها هو اتجاه عظيم جعل له نتائج ممتازة في بناء الحضارة الاسلامية خاصة والحضارة الانسانية عامة.

وبذلك كان الانسان عامة هو خليفة الله في أرضه ليتأمل ويفكر ويكشف أسرارها ليعطي من خلال اتصافه بصفات مميزة من جسمه وعقله فيمارس هذه الخلافة بإرادة حرة مختارة ليكون الانسان مكلفا مسؤولا عن عمله أمام الله (٦) .

(١) سورة النحل : آية ١٢.

(٥) سورة لقمان : آية ٢٠.

(٣) سورة الأعراف : آية ١٨٥.

(٤) سورة النحل : آية ٦٩.

(٥) سورة الروم : آية ٢٤.

(٦) سعيد حوى : الله، ص ٢١.

صلة الانسان بالله :

من الواضح ان صلة الانسان بالكون لم تقف عند حدوده لان في ذلك ضيقاً وجموداً ، ولكن امتداد التفكير إلى ما وراءهو الاتساع و الارتفاع كما أن صلة الانسان بالانسان فحسب صلة ضيقة بل لا بد الانطلاق إلى خالق هذه الانسانية وما يحيط بها (الا وهو الله الخالق بيده المصير،لا بد من الاحساس بهذه الصلة والتي تحوي معاني متعددة أهمها :- [1]

١- الاعتراف بالله الخالق :-

هو خالق الكون ومبدعه مع سننه التي يخضع لها الانسان، وينطوي على هذا الاعتراف بأن الانسان في قبضة الخالق وإليه المصير، فينشأ عن ذلك أنه مملوك ، عليه أن يتوكل عليه عند ممارسة أعماله بالاستفادة من سنن الكون واستثمارها. فيستعين بالله معتمدا بقلبه عليه.

٢- الاعتراف بقدرة الله العظيمة وسلطانه :-

ينطوي ذلك على تعظيم الله وتقديسه.والشعور بالخشوع له والخشية منه، والطاعة لأوامره والاجتناب لنواهيه وتفويض الأمر إليه، بعد استنفاذ طاقته الجسمية والفكرية بكل عمل يقوم به. [2]

٣- الاعتراف بنعم الله على الانسان :-

بحمده تعالى وشكره على نعمه التي يسبغها علينا بلا انقطاع، وشكره أيضا على ما منح الانسان من خلافة للأرض وتسخير الكون له.

٤- الشعور والترقب لرحمة الله المبسوطة لجميع خلقه :-

والأمل بشمولها لكل انسان وان هذا يمكن الوصول اليه بالتقرب لله بالعمل الصالح والعبادة له.

٥- الشعور بمسؤوليته أمام الله الخالق ومالك أمر الانسان وأنه مالك مصيره .

٦- التوجه إلى الله بالسؤال والدعاء (ادعوني استجب لكم) وهو القريب الذي

---

(١) محمد المبارك : نظام الاسلام : ص ٦٨.

(٢) عمر عوده : لمحات في الثقافة الاسلامية : ص ٣٤٨.

يجيب دعوة الداعي اذا دعاه، ولا سؤال إلا له ولا دعاء إلا لله سبحانه وتعالى .

٧- حب الله لأنه مصدر الوجود والنعم والرحمة العامة في الكون. وان حب الانسان المؤمن لله لا يَعْدِله حب ، فالذين آمنوا أشد حبا لله.

٨- التفكر في آيات الله وتذكره في النفس واستحضار صفاته وان تصور صفات الله وقدرته ورحمته هو تصور واستحضار لموقع الانسان في هذا الكون.

ان ذكر الله تعالى أمر لازم، لأن الانسان يذكر من يحبه أو يرجوه أو يخافه ، وأن هذه المعاني متحققة فيه سبحانه وتعالى .

وان الذكر باللسان والقلب والاخلاص له، وان الاخلاص لله هي العبودية له والتحرر من العبودية لسواه على الاطلاق، من هنا جاءت فكرة تحرير الانسان من الطغيان والاستعلاء والفساد . من هنا جاء مبدآن :-

الانسان حر ومسؤول :-

ان الانسان يختلف كما ذكرنا سابقا عن بقية المخلوقات، سواء منها الأحياء أو الجمادات، ذلك لأن الجمادات تسير حسب السنن أو القوانين الطبيعية التي أوجدها الله بها ، وأما الأحياء الأخرى فهي تخضع لسنن الله بغريزتها كقوله تعالى * والنجوم مسخرات بأمره * .

أما الانسان فان الله خصه بطبيعة خاصة ، منها ما يشترك فيها مع الجمادات فتنطبق عليه سنن وقوانين الطبيعة، مثل الضغط الجوي، والضوء والحرارة وغيرها من السنن الكونية ولكن الله من جهة أخرى جعل للانسان قدرة وإرادة خاصة حرة مختارة تختار ما تريد من أفعال دون إكراه أو إجبار وهذا واضح بقوله تعالى * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ* وقوله تعالى * إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُوراً * وقد فصل هذه الأمور بقوله تعالى * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَالنُّجُومُ والجِبالُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ وكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذَابُ*[1]

(١) سورة الحج : آية ١٨.

من هنا جاء أن جميع ما في الكون يسجد لله ويطيعه جبرا وأما الناس فقد قال عنهم " وكثير " ، أي يسجدون ويطيعون " وكثير " ، أي : آخرون أيضا يعصون ولا يسجدون وهذا شيء ناشئ عن الارادة الحرة التي شاء الله أن يمنحها للانسان.

وأما هذه الحرية التي يتصف بها فهي ليست مطلقة وليست خارجة عن مشيئة الله لأنها هي التي قضت بخلق هذه الحرية، لذلك فهي ليست خارجة عن الإرادة الالهية العليا.

وان حرية الانسان مقيدة ومحدودة، فهو لا يستطيع أن يغير من سنن الكون بل يستطيع الاستفادة منها، وان الانسان محاط بنظام كوني أو بقدر لقوله تعالى * وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * وان حياة الانسان بل حريته نفسها جزء من هذا النظام الكوني العام أو (القدر) .

وان الله عالم بكل ما يحدث قبل حدوثه لأنه هو المقدر للسنن التي تجري بها الحوادث وذلك هو التنفيذ (القضاء).

وان قيام الانسان بفعل ما ليس خالقا له بل له حلقة صغيرة من حلقات كثيرة هي وحدها من كسبه واختياره ، وباقيها وما يحيط بها ليست من صنفه أو خلقه وحتى إرادة الانسان الحرة مخلوقة لله تعالى وأن الانسان لا يوجد شيئا من عدم.

لكن الانسان قد أعطاه الله ارادة حرة ضمن نطاق السنن والقوانين يستطيع بها أن يختار طريقا أو شيئا وهو بذلك صاحب إرادة أو مشيئة محدودة وهو بذلك يشاء ويريد ويفعل ويعمل ويكسب ويصنع (وما يفعلوا من خير يعلمه الله).

وان الله قد منح الانسان الحرية وسهل له الطريق إلى ما يختار لقوله تعالى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * .

يلاحظ في هذه الآية ان الانسان هو الذي يبدأ بالاختيار وان الله ييسر له الطريق التي يختارها . (١)

ومقابل هذه الحرية التي منحها الله للانسان جعله مكلفا ومسؤولا وأن الله جعل هذه

---

(١) عبد الرحمن الميداني : العقيدة الاسلامية، ص ٧٩٩.

الإرادة الحرة تختار لاعلى سبيل الاجبار أو الإكراه (ولو شاء لهداكم جميعا)و (ولو شاء ما أشركوه).

ان التكليف لا يكون إلا بما وسع الانسان من قدرة وعمل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) و (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها).

وان مسؤولية الانسان عن عمله أمام الله مسؤولية فردية مباشرة لقوله تعالى : (وَلاَ تَزِرُ وازِرَةٌ وَزْرَ أُخْرى) وفي قوله (وَكُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) .

ان الانسان لا يجوز أن يقبل الواقع المطلق على قدر موافق عليه لأن من تلك التقديرات الالهية إرادة الانسان ومن الأوامر الإلهية الموجهة الى الانسان أن يتولى تغيير أحوال وأوضاع واقعه أي مقدرة، ومعنى ذلك أن بعض ما يجري في الكون من الأقدار نفسها ينبغي مكافحته، وهذه المحاربة نفسها من القدر، كما قال عمر بن الخطاب عندما لم يدخل منطقة الطاعون من الشام.

(وأفر من قدر الله إلى قدر الله). لذلك لا يجوز أن يأخذ الانسان حجة القدر ليقعد عن الانتاج والعمل بل العكس صحيح، وان الأمور التي يستطيع الانسان دفعها قبل وقوعها فعليه أن يفعل مثل مكافحة الكوارث والأمراض والفقر وغيرها .(١) وان في حياة الرسول (ص) وأصحابه لدليل واضح لنظرة الاسلام الى القدر لأن حياتهم كانت فترة مكافحة وجهاد ضد الظلم والشرك وسعى لتغيير واقع المجتمع لاقامة مجتمع قوي منتج سليم.

(١) سميح عاطف الزين : الاسلام وثقافة الانسان : ص ٨٤.

٣-النبوة

لم تقتصر النبوات على منطقة دون الأخرى، ولا على شعب بل هي في كل أمم الأرض ، وفي كل الأرض، وقد وضح ذلك في كثير من الآيات الكريمة فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى* وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ * (١)وقوله تعالى*وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهاَ نَذِيرٌ*

إن الأنبياء الذين ذكروا في القرآن ليسوا جميعا الأنبياء أو الرسل كما تصرح بذلك الآية الكريمة.

وعلى هذا فقد يكون الأنبياء بأعداد كبيرة لا تحصى - وقد جاء في بعض الأثر أنهم مائة وعشرون ألفا (٢).

ما هي النبوة :-

النبوة فضل الهي وهبة ربانية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده، ويخص بها من يريد من خلقه، وهي لا تدرك بالجد والتعب، ولا تنال بكثرة الطاعة والعبادة ، وإنما هي بمحض الفضل الإلهي (٣).

وهناك فرق بين النبي والرسول . فالنبي هو : انسان من البشر أوحى الله تعالى اليه بشرع، ولكنه لم يكلف بالتبليغ .

وأما الرسول فهو : انسان من البشر أوحى الله إليه بشرع وأمر بتبليغه. لذلك فإن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا .

وظائف الرسل :

الرسل أفراد من البشر هداهم الله إلى الصراط المستقيم واصطفاهم واجتباهم وأرسلهم لهداية الناس، وليكونوا لهم قدوة (٤).

---

(١) سورة يونس : آية ٤٧.

(٢) الامام أحمد، في رواية أبي أمامه قال أبو ذر الغفاري قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء قال: مائة وعشرون ألفا. الرسل من ذلك ثلاثمئة وخمسة عشر غفيرا .

(٣) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ص ٨ وما بعده.

(٤) محمد المبارك : نظام الاسلام والعقيدة والعبادة ، ص ٩١.

لذلك كانت وظائف الرسل كما يلي :-

١- دعوة الخلق الى عبادة الله الواحد القهار وهي الوظيفة الأساسية والمهمة الكبرى التي بعث من أجلها الرسل الكرام، وهي تعريف الخلق بالخالق والايمان بوحدانيته وتخصيص العبادة له دون سواه، وتحرير البشر من عبادة الطبيعة والوثنية أو عبادة البشر.

٢- تبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر، لأن الأوامر الالهية لا بد لها من بشر مبلغ، فلم يتأخر واحد من الأنبياء عن تبليغ رسالته دون خوف من الطغاة ، لقوله تعالى * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً* .

٣- تبليغ الحقائق التي لا يدركها العقل بنفسه كمسؤولية الانسان أمام الله في الحياة الآخرة، قال تعالى * إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوكِيلٍ * (١).

٤- ومن أهداف الرسالات هداية الناس الى طريق الخير وتحديد قواعد السلوك المؤدية الى الحق، وان الرسل بحياتهم قدوة حسنة، وأسوة صالحة للبشر فهم أفضل الناس، ونموذج للكمال البشري عقلا وسلوكا وأشرفهم مرتبة.

٥- التذكير بنشأة الانسان وموته وما بعد ذلك، وذلك بتحويل الناس من الحياة الفانية الى الحياة الباقية .

مراتب الرسل :-

إن الأنبياء والرسل ليسوا على مرتبة واحدة من الفضل والمكانة،بل ان بعضهم أفضل من بعض إذ يقول الله تعالى (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) ومن الرسل من سماهم القرآن الكريم (أولي العزم وهم قادة الأنبياء)وخاطب الله محمدا بقوله (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ...).

وكان عدد الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولا ذكر منهم ثمانية عشر في آية واحدة والسبعة الباقين في آيات متفرقة من القرآن الكريم وهم (آدم ،

(١) سورة الزمر : آية ٤١.

نوح، اسماعيل ، اسحق ، يعقوب، داوود ، سليمان، يونس، يوسف ، موسى ، هارون ، زكريا ، يحيي ، ادريس، ذو الكفل ، هود ، شعيب ، صالح ، لوط ، الياس، اليسع، عيسى ، محمد) صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد سمي هؤلاء بأولي العزم لأن عزائمهم قوية، وابتلاءهم كان شديدا ، وجهادهم شاقا ومريرا. فمنهم من عذب وحرق في النار، واضطهدوا وشردوا من ديارهم. إلا أنهم صبروا على البلاء والشدة (فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين " لذلك استحقوا أن يكونوا قادة الأنبياء وسادة الرسل وأن يحملوا اللواء في سبيل عزة الانسانية وانتشالها من براثن الشرك والضلال، الى نور التوحيد والايمان، وقد ذكر من هؤلاء في القرآن الكريم نوح ، ابراهيم ، موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

طبيعة النبوة :

نعني بطبيعة النبوة بيان ماهيتها وتقريبها من الأذهان وبيان ميزاتها عن غيرها من أنواع النبوغ والذكاء والعبقرية والبطولات لأنها تختلف عن جميع هذه المظاهر والصفات في نوعيتها الأساسية . وأن في الكون حوادث روحية وآفاقاً غيبية تدل عليها وقائع حدثت في جميع العصور وعند جميع الأمم وتؤكدها وتقربها إلى الأذهان حوادث انتقال الأفكار، فإذا كان اكتشاف العالم المادي أمرا لا يستطيعه كل انسان بل لا بد له من مواهب خاصة ونبوغ عقلي يؤهل صاحبه ليكون من رواد هذا العالم المادي، فذلك في أفق العالم الروحي أولى لكونه أكثر خفاء ودقة ، وما يقتضيه من المواهب والنبوغ أكثر ندرة في البشر، لذلك كان لا بد للبشر من موجهين ومرشدين في الآفاق الروحية والعالم الغيبي فكانوا الرسل.

ولا ننسى أن الاسلام قد قسم الوجود الى قسمين هما :

١- عالم الشهادة ، وهو المحسوس ، وأداة معرفته جملة وتفصيلا هو العقل البشري.

٢- عالم الغيب ، وطريق معرفته الكشف الروحي، والوحي أكمل أشكاله وأرفعها.

وإن هذا العالم الثاني لا يدرك بالعقل وحده لأنه من طبيعة مختلفة عن طبيعته ، لذلك فإن الله تعالى لم يترك الإنسان جاهلا بعالم الغيب، وكي يقيم عليه الحجة ، فكان الكشف عن هذا العالم وحقائقه لا سيما الحقيقة الكبرى وهي الحقيقة الالهية، فكانت طريق الوحي الى الأنبياء ، أو طريق اتصال صفوة مختارة من البشر، خصهم الله بمواهب روحية فائقة وبطاقة روحية عظيمة، بالحقيقة الالهية وبحقائق العالم الغيبي غير المحسوس، فكانت وظيفتهم الى هذا العالم كوظيفة العقل بالنسبة إلى العالم المحسوس وهي كشف حقائقه لبني البشر وارشادهم اليها، وصلتهم بها، وتنمية ما فيهم من فعالية واستعدادات روحية (١) .

لذلك كانت حاجة البشر الى الأنبياء لكشف العالم الروحي كحاجتهم للعقل من أجل كشف العالم المادي.

صفات الأنبياء الأساسية : -

وصف الله تعالى رسله وأنبياءه في القرآن الكريم بأوصاف عديدة وصورهم بصور متعددة يمكن أن نستخلص منها ما يلي :

١- إنهم بشر :

الأنبياء عبيد الله، يأكلون ويشربون ويصحون ويمرضون ، يصيبهم من العوارض ما يصيب بقية البشر ، قال تعالى * وَقَالُوا مَالِ هَذا الرَّسُولِ يَأكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ معَهُ نَذيراً أَوْ يُلْقىٰ إِلَيْهِ كنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جنَّةٌ يَأكُلُ منْها وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحورا * (٢) وقال تعالى * إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ * (٣) وقوله تعالى * مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الكِتَابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ للنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ * (٤) .

(١) محمد المبارك : نظام الاسلام العقيدة والعبادة : ص ٩٦.

(٢) سورة الفرقان : آية ٧ ، ٨.

(٣) سورة الزمر : آية ٣٠

(٤) سورة آل عمران : آية ٧٩ .

٢- عصمة الأنبياء :

العصمة معناها في اللغة : المنع. يقال عصمته عن الطعام أي منعته عنه وأما المعنى الشرعي فهي : حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصي وارتكاب المنكرات[١] والمحرمات، فالعصمة ثابتة للأنبياء وهي من صفاتهم التي أكرمهم الله بها : لأن الأنبياء هم نماذج للانسان الكامل للبشرية جمعاء وهم القادة والقدوة الحسنة والأسوة الصالحة للخلق، فلو جاز وقوعهمفي المعصية أو ارتكابهم للموبقات والآثام لأصبحت المعصية مشروعة ، وهذا أمر غير سليم وغير مقبول.

وقد اختلف العلماء هل العصمة قبل النبوة أم بعدها فمنهم من قال انها قبل النبوة لأن من صفات الأنبياء إنهم من ذوي السيرة العطرة قبل النبوة وبعدها ، وحتى لا يكون بهم ما يطعن في رسالتهم

ومن العلماء من قال إن العصمة إنما تكون بعد النبوة لأن البشر ليسوا مأمورين باتباع الأنبياء قبل النبوة بل بعد نزول الوحي وتشريفهم بحمل الرسالة، وأما قبلها فهم كبقية البشر. ومع ذلك فإن سيرتهم وحتى قبل النبوة ثابتة يقينا بأنها بعيدة عن الفواحش، فهم متصفون بسمو الروح،وصحة العقل،وهم نماذج في الأخلاق والمعاملات والأمانة والطباع المستقيمة.

٣- الصدق :

وهي صفة لازمة للنبوة، وهي من الصفات الفطرية، لأنه ما كان لنبي أن يصدر عنه ما يخل بالمروءة كالكذب والخيانة، لأنه لو جاز لنبي أن يقوم بأحد هذه الأعمال، لما جاز له أن يؤدي الرسالة ، لأن حمل الرسالة أمانة وصدق وقد شهد بصدق الرسول (ص) أعدى أعدائه أبو جهل، وأبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم عن محمد (ص).

٤- الأمانة :

وهي أن يكون أمينا بالتبليغ وهي صفة ملازمة للصدق، حيث يوصل أمر ربه دون نقص أو زيادة، ودون تحريف أو تبديل امتثالا لقوله تعالى (الذين يبلغون رسالات الله

(١) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء : ص ٥٠.

ولا يخشون أحدا إلا الله، وكفى بالله حسيبا).

وأن أنبياء الله جميعا مؤتمنون على الوحي، فقد بلغوا أوامر ربهم بالدقة كما أنزلت عليهم، فكل نبي كان يقول لقومه (إني لكم ناصح أمين).

تبليغ ما يتلقون من الوحي السماوي، لأنهم مرسلون من الله ليبلغوا رسالتهم إلى البشر وليهدوهم طريق الرشاد، والنبوة ليست نبوغا ولا عبقرية شخصية، ولكنها مرتبة روحية، واصطفاء من الله لبعض أفراد البشر، والوحي اتصال بين الخالق القادر العليم والمختارين من خلقه وعباده للنبوة والرسالة لا يشبه اتصال الحواس بالمحسوسات ولا العقل بالمدركات العقلية، بل هو نوع من الادراك له طبيعته الخاصة التي لا تدخل تحت التجربة البشرية، والوحي في أصل اللغة يضمّ معنى السرعة والإشارة معا، وهي تفيد معنى التلقين الخفي عن طريق سريع جدا أشبه بومضات البرق وانتشار الموجات الضوئية .

ما هية الوحي : (١)

من الصعوبات بمكان معرفة الماهية التي كان يتصل بها الأنبياء بالملأ الأعلى وبعالم الغيب ، الا معرفة اجمالية عامة.

وان لفظة الوحي كما ذكرنا سابقا معناها الاعلام الخفي السريع وهو أعلى ما يمكن أن تصل إليه قدرة اللغة في التعبير عن حادثة مجهولة بعيدة عن المألوف بالنسبة للناس.

وأن الموهبة الروحية لتبلغ أعلى درجاتها وأكمل أشكالها في الأنبياء وهم فريق متميز، اختارهم الله واصطفاهم من ذوي القدرات الروحية لتبليغ رسالته الى البشر.

والوحي هو حادثة روحية من نوع خاص لا نستطيع إدراك كنهها ولكننا نعرفها من أثارها ونتائجها.

وجوهرها وأهم عناصرها تلقي النبي معاني وكلاما بطريقة خفية من قبل القدرة الإلهية تلقى وعي وإدراك.

وقد ورد في القرآن الكريم معاني الوحي : قال تعالى * وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة : ص ١٠٢.

اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُوَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * (١)

وقال تعالى * وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَلَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * (٢) .

دلائل صدق النبوة :-

إن هناك طرقا عرضها الناس منذ القدم للتحقق من صدق المعلومات التي لا يستطيعون تجربتها عمليا ، عن طريق الرواية بالنقل وهناك شروط أساسية يجب أن تكون في الراوي :

١- أن يكون الناقل معروفا بصحة العقل وسلامة التفكير بعيدا عن التوهم والتخيل والتحريف.

٢- أن يكون معروفاً بالصدق والأمانة في نقل الأخبار والاستقامة وحسن السيرة ولو عارض ذلك مصالحه ومنافعه.

هذان الشرطان بفرعيهما إذا تحققا في الناقل أمكن تصديقه.

والواقع أن هذه الشروط متحققة في جميع الأنبياء الذين عرفوا في التاريخ وأن في حياة الرسول(ص) من صدق وأمانة واستقامة سيرة، ما يكفي لاثبات نبوته .

ولكن هناك شرطاً أهم من هذين الشرطين وهو المعجزة عند الأنبياء.

والمعجزة تصلح لأن تكون دليلا على صدق اتصال بعض البشر بالقدرة الخالقة المهيمنة وحجة على الناس لتصديق ما يقولون وينقلون من رسالات السماء إلى بني جنسهم من البشر أي دليلا على النبوة والرسالة. لأن المعجزة خارقة لنظم الكون الظاهرة وحوادثه المألوفة المتجاورة لمبلغ علم البشر في عصر أو عصور ممكنة عقلا. وإن الله الخالق قد منح المعجزة لبعض عباده المختارين فأطلعهم على أسرار خافية على غيرهم والاستفادة من هذه

---

(١) سورة الشوى : آية ٥١، ٥٢.

(٢) سورة الشعراء : آية ١٩٢

الأسرار فيعلمون ما لم يعمله غيرهم، من الناس.

وأن القرآن قد نقل عددا من المعجزات منسوبة إلى أصحابها من الأنبياء وهي حجة على الناس وآية على صلة صاحبها بالله.

وأما موقف الإسلام من المعجزات فهي أن القرآن الكريم كان صريحا في صرف الناس عن طلب المعجزة وردهم إلى التفكير والتأمل في موضوع الرسالة وما تضمنته من الهدي. رغم ثبوت بعض المعجزات على يد الرسول (ص) كالإسراء وغيره.

ولكن القرآن صرف الناس عن المعجزات في مواطن كثيرة كقوله تعالى * قُلْ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلاَ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعْمى والبَصيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ * (١) .

وان الآيات القرآنية قد قضت باتجاه آخر باثبات النبوة وهو الانصراف عن الخوارق المعجزة الى النظر في هداية القرآن والتأمل في آيات الكون، لتكون الرسالة الاسلامية هي خاتمة الرسالات ولأنها عالمية خالدة، قضت أن تفسح مجالا للعقل البشري بالتفكير والانصراف عن الخوارق والغيبيات الى التأمل لتبقى الرسالة أبدية.

النبوات السابقة:

عاشت المجتمعات البشرية لفترات طويلة من الزمن منعزلة في بيئاتها الخاصة، بدائية بأفكارها، ومع نمو العقل البشري نمت عقائد دينية خاطئة كتأليه الظواهر الطبيعية كالشمس والقمر أو غيرها أو تأليه أفراد من البشر، أو عبادة الآباء والأجداد، أو الحيوانات، فقضت الحكمة الإلهية أن يرسل في كل جماعة رسولا يدعوهم الى عبادة الله، ويمنع الشرور، وقد كان الوحي الإلهي إلى جانب العقل الحقيقة الأساسية الكبرى، هي عبادة الله المحرر للانسان من الخضوع لأي شيء آخر مهما كبرت أو تجبرت * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ * (٢) وان هذه الرسالات قد تحدثت مع الأمم مراعية ما بلغه العقل من النضج في حينه، لذلك كانت النبوات السابقة

(١) سورة الأنعام: آية ٥٠ .

(٢) سورة النحل: آية ٣٦.

واحدة من حيث طبيعتها ومختلفة من حيث سعة أفقها ومداها، ومن حيث خصائصها ومستواها المناسب لمرحلة التطور البشري الأخيرة وهي نبوة محمد (ص) التي بها ختمت النبوات، وبتعاليمها وشريعتها ختمت الشرائع التي جاءت بها النبوات السابقة لنبوة محمد (ص) تتصف بالصفات الآتية : (١)

١- ان عدد النبوات السابقة لا يحصى ، حيث نص القرآن على أن جميع الأمم قد جاءهم رسل، وان القرآن قد ذكر فقط ٢٥ منهم، وعلى هذا يجوز أن تكون الديانات المنتشرة قد كانت ديانات سماوية، إلا أنها حرفت عن الأصل وتطورت إلى ديانات وثنية .

٢- إن بين النبوات جميعا أمورا مشتركة، وهي التي ترجع إلى أصل العقيدة ويطلق عليها لفظ مشترك (الاسلام) والاتصال بطريق غيبي روحي بالحقيقة الالهية.

لذلك كان بين الديانات عقائد مشتركة ومبادئ تلتقي وتتعاون ضمن حدودها. وإن تعاليم الاسلام تنص صراحة على الفرق بين الملحدين المشركين من جهة وأصحاب الكتب السماوية من جهة أخرى.

٣- إن جميع النبوات السابقة لمحمد (ص) كانت رسالتها خاصة بجماعة أو لقوم ، مناسبة لحالهم وموافقة لبيئتهم وقد وضح ذلك القرآن على لسان الأنبياء السابقين. قال تعالى * لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعبُدوا اللّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلهٍ غَيْرُهُ *(٢) وقال تعالى* وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ *(٣) .

ولم يسبق لرسول قبل محمد (ص) أن ادعى أنه رسول لعموم أهل الأرض.

٤- إن الاعتبارات الخاصة، الزمنية، والمحلية، كانت غالبة لهذه النبوات على الاعتبارات العامة والانسانية، لذلك فإن أحكامها خاصة بزمن معين وبجماعة معينة. وقد جاءت لمدة محدودة وبيئة معينة.

---

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة، ص ١١٠ وما بعدها.

(٢) سورة الأعراف : آية ٥٩.

(٣) سورة الصف : آية ٥.

خاتمة الرسالات :-

قضت الحكمة الالهية أن تكون رسالة محمد (ص) هي خاتمة الرسالات، حيث تطورت البشرية، ونهض العقل نحو آفاق واسعة من التقدم ، فاحتاجت إلى إقامة أسس إنسانية لعلاقاتها ، واحتاج الانسان إلى مبادئ وتوجيهات عامة ومثل عليا ، وهذا ما تحقق في خاتمة الرسالات لذلك كان من خصائص نبوة محمد (ص) ما يلي:

١- إنها تقوم على أسس عامة واعتبارات انسانية، حيث احتاجت الانسانية الى قواعد سلوك وأحكام تشريعية مشتركة بين البشر على اختلاف عناصرهم وعصورهم. فكانت هذه الصفات متوفرة في رسالة محمد (ص) فهي خالدة مناسبة لحلول المعضلات البشرية وقد ورد في القرآن الكريم، قال تعالى * يَأْمُرُهُم بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُم عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم* (١) .

لذلك كانت هذه الرسالة خالدة ليست لزمن معين لأنها اشتملت على مبادئ جوهرية ثابتة في العقيدة والأخلاق.

٢- إن رسالة محمد (ص) ليست خاصة بقوم أو جماعة دون الناس وإن آيات كثيرة في القرآن تخاطب الناس والانسان، قال تعالى * قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الذَّي لَهُ مُلْكُ السَّموات والأَرْضِ * (٢) قال تعالى * ومَا أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشيراً وَنَذيراً * (٣) .وهذا لا يمنع أن يكون المخاطبون في البداية قوم محمد (ص) فأمر أن يبدأ بهم قال تعالى* وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * لذلك كانت لغة القرآن لغتهم التي نزل بها.

٣- إن الرسالة الاسلامية قد أحلت العقل محلا لائقا له، وذلك بعد أن وصل إلى حد عال من مراحل النضج والارتقاء ، لذلك دعى القرآن في آيات كثيرة إلى استخدام العقل والفكر والعلم.

---

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٧. (٢) سورة الأعراف : آية ١٥٨.

(٣) سورة سبأ : آية ٢٨.

٤- كانت رسالة الاسلام ناسخة للرسالات السابقة لأنها جاءت متكاملة وللناس جميعا .

المسؤولية العظمى والحياة الأخرى:

الانسان مسؤول ومكلف ، وان المسؤولية في نظر الاسلام مزدوجة :

١- مسؤول في هذه الحياة أمام أهله ومجتمعه ، وقد نظم الاسلام هذه المسؤولية الدنيوية تنظيما مفصلا أمام نفسه وأسرته ومجتمعه الذي يعايشه أو يتعامل معه سواء كان راعيا (حاكما) أو رعية (مواطنا)، ووضع الاسلام قوانين دقيقة لمراعاة هذه المسؤولية.

٢- الانسان مسؤول أمام خالقه في حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيوية ، وهي متممة للمسؤولية الأولى وهي المسؤولية الآخروية العظمى .

لقد جمع الاسلام في نظامه بين مسؤوليتين ، حيث وضع عقوبات مناسبة لمنع وقوع الأخطار وإيقاف المجرمين عند حدهم في الدنيا ، وارجاع الحقوق لأصحابها .

ولكن الاسلام لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزها الى مسؤولية أخرى، نهائية، تتعلق بمصير الانسان النهائي ، ان الذي يحكم بها هو خالق الكون والحياة بكاملها.

لقد تميز الاسلام عن غيره من الأنظمة بإقرار المسؤوليتين وان ذلك كان له دور وأثر بليغ في النفس الانسانية، لما بالمسؤوليتين من تعاون وتكامل وسيطرة على النفس الانسانية لاصلاحها وترقيتها.

عرض القرآن للمسؤولية في الدنيا والآخرة :-

١- مسؤولية الانسان عن أعماله في الحياة الآخرة، وفي الدنيا، ويبدو أن مقصود الحياة الآخرة وما بها من حساب، والآيات كثيرة التي تجمع ما بين عمل الدنيا والمصير في الآخرة، قال تعالى * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ * (١)

وقال تعالى * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* (٢)

(١) سورة الزلزلة : آية ٦-٨.

(٢) سورة المدثر : آية ٣٨.

٢- إن أعمال الانسان في الدنيا مسجلة عليه كبيرها وصغيرها حسناتها وسيئاتها كما ذكرت ذلك آيات كثيرة منها، قال تعالى * يَوْمَ يَبْعَثُهُم اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِما عَمِلُواْ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * (١)

وقال تعالى * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٢)

وقال تعالى * وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ * (٣)

٣- إن المسؤولية في الآخرة أمام الله وحده، هو الذي يسأل الناس ويحاسبهم وإليه المرجع والمصير، فإليه العبادة وفي سبيل مرضاته تكون الأعمال، قال تعالى * وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٤) .

وقال تعالى * إِنَّ إِلَيْنا إِيَابَهُمْ ثُمَّ عَلَيْنا حسابَهُم * (٥) .

٤- إن المسؤولية الآخروية، هي مسؤولية فردية وشخصية بين الانسان وربه فلا يسأل انسان عن خطأ غيره مهما بلغت القرابة.

وقال تعالى * أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى * (٦)

وقال تعالى * كُلُّ امرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ * (٧)

والحياة الآخرة بالنسبة للإنسان تمتد إلى ما بعد موته، منذ انفصال الروح حتى حدود يوم القيامة أو يوم الخلود ويوم الدين ويوم الجمع كما وصفه القرآن وهي عدة مراحل كما جاءت في القرآن الكريم :

---

(١) سورة المجادلة : آية ٦.

(٢) سورة الزخرف : آية ٨٠.

(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٤.

(٤) سورة القصص: آية ٧٠.

(٥) سورة الغاشية : آية ٢٥-٢٦.

(٦) سورة النجم : آية ٣٨.

(٧) سورة النور : آية ٢١.

١- المرحلة الأولى [1] وهي مرحلة ما بعد الموت وقبل يوم القيامة، ولم يفصل القرآن هذه المرحلة الا ببعض الاشارات ولكن أحاديث الرسول (ص) كثيرة في وصف قبض الأرواح وبداية العذاب للعصاة واستشعار النعيم للصالحين.

٢- المرحلة الثانية : وهي المرحلة التي يحدث فيها الاضطراب الكوني، تنفطر السماء، وتتناثر الكواكب، ويخسف القمر وترتج الأرض ، ويستبدل الله نظام الكون بنظام آخر.

٣- المرحلة الثالثة : وهي مرحلة بعث الناس من مراقدهم واحيائهم، وهي ما دعاها القرآن (النشأة الآخرة) و (الخلق الجديد).

٤- المرحلة الرابعة : بعد بعث الناس وحشرهم وجمعهم وعرضهم على ربهم وإظهار أعمالهم ونصب الموازين وبيان خير أو شر كل انسان.

٥- المرحلة الخامسة : وهي مرحلة الجزاء وتتضمن النعيم أو السعادة ، العذاب أو الشقاء ، وفيها نعيم خالد للمؤمنين كما بشرت جميع الأديان أو عذاب دائم للكافرين قال تعالى * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ * [2] .

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة : ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) سورة البقرة : آية ٨٠، ٨١.

٤- العبادة

لقد أسبغ الإسلام صفة العبادة على جميع أعمال الانسان إذا قصد بها وجه الله ومرضاته وعملت على وجهها المشروع وكانت في سبيل تحقيق أهدافها المقصودة والمشروعة[١] هذا بالاضافة الى العبادة المخصوصة.

لذلك يمكن أن نقسم العبادة الى نوعين:

١- جميع أعمال الانسان المشروعة إذا ابتغى فاعلها وجه الله .

٢- العبادة المخصوصة التي شرعت بقصد العبادة المحضة أي إظهار الخضوع لله والصدع بأمره، وهذا النوع هو المعروف الشائع بين الناس وهو المعروف بين الأديان الأخرى.

وان للعبادة المحضة في الاسلام أنواعا متعددة منها :-

١- ذكر الله والتفكر في آياته وآلائه :-

وهي التفكر في معالم الكون وخالقه ومبدعه ودقة صنعه والخضوع لعظمته وقد رددها القرآن وتعظيم الله في القلب وعلى اللسان بكلمات منها ذكر ألوهية الله في كلمة (لا إله إلا الله).

وعن صفاته وتنزهه (سبحان الله) وعن الشكر على نعمه (الحمد لله) وبذلك تكون هذه العبادة غير محصورة بمكان أو زمان ، بل هذه انعكاس عما في القلب، ويمكن أن تمارس في كل حالات وضع الانسان.

ومن أهم أنواع ذكر الله تلاوة القرآن،لما يتضمن من تذكير دائم وفهم دقيق لآلاء الله وقدرته وحكمته وإحسانه وعذابه ونعيمه . على أن تكون تلاوة القرآن بفهم وتدبر وتفكر. كذلك الدعاء الى الله ومخاطبته في السراء والضراء وقد ورد في القرآن كثير من الأدعية بليغة بلغتها عظيمة في معناها ، قال تعالى * رَبَّنا ءَآتِنا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حسَنَةً وَقِنَا عَذابَ النَّارِ * . وهناك أدعية كثيرة كما ورد في آخر سورة البقرة وآل عمران وغيرها، والقرآن يحض الانسان على دعاء الله كقوله تعالى * وَإِذا سَألَكَ عِبَادِي عَنِّي

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة : ص ١٦٩.

فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ * .

الصلاة:

الصلاة خلوةٌ قصيرة لمناجاة الله تشمل على تفكر وتأمل وعلى ذكر ودعاء وعلى تلاوة للقرآن ، وهي وسيلة دائمة لتذكير الانسان بربه، أو شعوره بالعجز أمام مغريات الحياة ، فتصله الصلاة بربه مصدر القوة والحق والخير والعدل .

والصلاة مسبوقة بطهارة الجسم واللباس، وهي حركات طبيعية تعطي أحوال الانسان الأساسية من وقوف وركوع وقعود وسجود وليس في الصلاة بالاسلام أي طقوس غريبة وتمتاز عن الصلاة في الأديان الأخرى بـ (١) :

١- تجوز الصلاة في أي مكان نظيف طاهر، وما المسجد إلا مكان ليس فيه تعقيد وهو من أجل اجتماع المسلمين في صلاة الجمعة والجماعة .

٢- لا تحتاج الصلاة إلى رجل دين ليقودها كما هو الحال في الأديان الأخرى، بل يجوز أن يقودها (يؤمها) كل مسلم يحسن معرفة أحكامها. وليس من وسيط بين الانسان وربه.

٣- تخلو صلاة المسلمين من غرائب الشعائر والطقوس والشكليات وتتكون من تلاوات واضحة فيها التأمل وتذكرة للانسان بالله ومن حركات طبيعية.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تحث المسلمين على الصلاة، وهي أوامر مشددة لا يجوز لمسلم أن يتركها وأن الصلاة فرض لا يجوز تركه مهما كانت الأسباب، وهي تتخلل ساعات النهار لنبقى على صلة دائمة بالله نترك أعمالنا من أجل القيام بها ، وان انصراف الناس مجموعات عن اعمالهم لقيام الصلاة هي مثل على استعلاء المثل العليا على المال والجاه والقوة، وهو موحدة للمؤمنين باتجاه واحد.

الصوم :

هو فرض يلزم التخلي عن شهوات الجسد من أكل وشرب وغيرها من قبيل الفجر

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة : ص ١٧٩.

إلى غروب الشمس لمدة شهر كامل خلال رمضان، وهو خروج عن العادات المألوفة والتزام مؤقت فيها ، جوع وعطش وتقشف من أجل تربية النفس وتهذيبها .

إن شهر رمضان الذي بدأ فيه نزول القرآن، وتوقف الطعام والشراب خلال النهار ثورة ضد شهوات الجسد.

وهذه العبادة مفروضة على المسلم القادر ولها أحكام تفصيلية في الفقه.

الحج :

الحج عبادة مفروضة على من يقدر عليها ، وفيها معان من العبادة وليست موجودة في أنواع العبادات الأخرى فهي تخل مؤقت عن الأهل والمال والولد لزيارة أول بيت بني لعبادة الله. وفي الحج تقديس وتعظيم لله وحده، وفي الحج تخل عن الزينة واللباس والهيئة لتسقط الفروق بين الغني والفقير ، ليبدو الناس أيام الحج بلباسهم وكأنهم خرجوا يوم الحشر بأكفانهم متساوين.

والحج أيام معدودات في شهر ذي الحجة والأشهر القمرية يقوم خلالها الانسان بما يلي:-

١- اعلان التقشف بلباس الاحرام والامتناع عن التطيب والحلاقة وغيرها .

٢- الطواف حول البيت حين القدوم وحين الافاضة ونهاية الحج.

٣- السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط.

٤- الوقوف في اليوم التاسع من ذي الحج في عرفة.

٥- ثم الافاضة بعد غروب الشمس الى مزدلفة للمبيت ليلا، وقضاء ليلتين على الأقل في منى ورمي الجمرات (حصيات) في أمكنة معروفة في منى. ومن ثم طواف الافاضة وتوديع الحرم راجعين إلى بلادهم.

وان الحج بالاضافة الى معانيه التعبدية فهو اجتماع عام للمسلمين ، فهو مؤتمر لهم، وفيه منافع للناس.

خصائص ومزايا العبادة الاسلامية :-

١- العبادة في الاسلام خالصة لله وحده ولا شريك له في ذلك. قال تعالى *وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ * وقال تعالى * واعْبُدُوا اللَّهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً* وان في القرآن الكريم ألفاظا خاصة لم يشترك فيها أحد مع الله كقوله تعالى :

* وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ *

وأجابة دعاء المضطر لقوله تعالى * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قليلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * (١) .

وقوله تعالى في الخلق والرزق * أَمَّنْ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَدِقِينَ * (٢) .

٢- في الاسلام لا تحتاج الصلة بين العبد وربه الى وساطة أو وسطاء ، فليس بالاسلام رجل دين كما هو الحال في بقية الأديان، ولكن في الاسلام علماء تفقهوا في دينهم وواجبهم توضيح علومهم الدينية إلى بقية الناس.

وليس من صفة خاصة للإمام في الصلاة، بل يجوز أن يؤم بهم من رضوا به للإمامة.

وظيفة الأنبياء هي توصيل وتبليغ الناس بما أوصل إليهم من الوحي وتعليم الناس وواجب العلماء تعليم وإرشاد الناس ما تعلموه فهم ليسوا وسطاء لمغفرة الذنوب لأن هذا شرك في نظر الاسلام.

٣- من مزايا العبادة في الاسلام أنها مظهر للخضوع التام لأوامر الله ومظهر لطاعته طاعة مطلقة لذلك فالعبادة تقف عند حد أوامر الله لا يجوز الزيادة أو النقصان فيها، فهي كما حددها الله وبلغها الرسول (ص) ، فالصلاة مفروضة وطريقتها كما أوضحها سيدنا محمد (ص) ، وكذلك الحج ، وكذلك الصوم.

وأما الاجتهاد فهو جائز في المعاملات، والابتداع جائز في الأمور الدنيوية كالاختراعات، أما في العبادة فهو ممنوع قطعا.

---

(١) سورة النمل : آية ٦٢.

(٢) سورة النمل : آية ٦٤.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن العبادة توقيفية كما أمر الله بها ، وهي لا تعلل بعلة كقولنا أن الصلاة رياضة وأن الوضوء للنظافة وأن الصوم ذو فوائد صحية، فهذه ان صحت، فهي ليست سببا للعبادة ، إنما قيامنا بالعبادة إئتمار بأمر الله وخضوع له وتنفيذ لأمره إشعارا بعبودتنا له. (١)

٤- ومن مزايا العبادة في الاسلام أنها مبنية على التيسير لا على الضيق ولا الحرج، فقد يسر الاسلام على المسلمين بتأجيل الصوم للمسافر وقصر الصلاة والجمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء في بعض المواطن مع اختلاف المذاهب في ذلك.

٥- القصد والنية هي العبرة الاساسية في العبادة الاسلامية وان ذكر الله ليس بتحريك اللسان فقط بل لا بد من استحضار المعاني، والخشوع في الصلاة، لذلك لا بد من الجمع بين ظاهر العبادة وباطنها .

٦- ومن مزايا العبادة أنها متعددة الأنواع لمقابلة فعاليات الانسان العملية والفكرية، فهي متدرجة يبدأ الانسان في مدارج الرقي الروحي ابتداء من تأدية العبادات المفروضة على كل انسان الى مالا نهاية له من النوافل بذكر الله وعبادته.

وبذلك تكون العبادة للجميع على السواء يأخذ منها كل بقدر ما يستطيع مبتدئا بالمفروض ويتدرج مرتقيا الى مراتب عليا من الرقي الروحي.

وهكذا فالعبادة في الاسلام هي تخليص الانسان من عبودية الانسان أو الجماعة الى عبودية الله رابطة اياه بالقيم العليا، محررة اياه الحرية الكاملة من كل ظلم أو زيف أو غرور.

فالعبادة في الاسلام تطهر القلب وتزكي النية وتصفيها لتجعل أعمال الانسان خالصة لله، وبهذا تكون منزلة العبادة أعلى وأسمى ما يفعله الانسان وهي العامل الأساسي في اصلاح جميع أعماله.

---

(١) محمد المبارك : العقيدة والعبادة :ص ١٨٧.

الوحدة الثانية
النظم السياسية والادارية

١- النظم السياسية ومدلولها في عصر الوحي.

٢- لمحة عن نشأة الخلافة وتطورها.

٣- النظم السياسية في الاسلام :

الوزارة والكتابة، والحجابة

٤- التنظيم الإداري : نشأته وتطوره ، فلسفته وأهدافه.

أ- النظم السياسية ومدلولها في عصر الوحي

ان النظام الذي أقامه الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون معه بالمدينة اذا نظر اليه من جانب مظهره العملي - وليس بمقاييس السياسة في العصر الحديث يمكن أن يوصف بأنه سياسي. وهذا لا يمنع من وصفه في نفس الوقت بأنه ديني. اذا كانت الوجهة هي النظر الى أهدافه ودوافعه، والاساس المعنوي الذي يرتكز عليه فالنظام اذن يمكن أن يوصف في وقت واحد بالوصفين.

وذلك لأن حقيقة الاسلام شاملة تجمع بين الناحيتين المادية والروحية وتتناول أعمال الانسان في حياته الدنيوية والاخروية. وهما متلازمان لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر. وهذه الحقيقة عن طبيعة الاسلام قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج الى كبير عناء لاقامة البرهان، وهي مؤيدة من حقائق التاريخ، وكانت عقيدة المسلمين في كل العصور السالفة (١).

وقد بدأ جمهور من المستشرقين يدركون هذه الحقيقة عن طبيعة الاسلام فيقول فتزجرالد : ليس الاسلام دينا فحسب ولكنه نظام سياسي أيضا (٢).

ويقول جب : (عندئذ صار واضحا ان الاسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية وانما استوجب اقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وأنظمته الخاصة به)(٣).

ويقول أرنولد : " أن الاسلام دين ودولة وعقيدة ونظام " (٤)

لقد اشتمل القرآن الكريم على أسمى المبادئ السياسية . وهو في مجموعه قانون

---

(١) أنظر : عبد الفتاح شحاته : نظم الحكم في الاسلام : ص ٢.

(٢) شحاته : نظم الحكم في الاسلام : ص ٣

(٣) نظم الحكم في الاسلام: د. محمد يوسف موسى : ص ١٨-١٩، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٣.

- محمد ضياء الدين الريس : النظريات السياسية ص ١٤، القاهرة ، طبعة أولى ، ١٩٥٢.

- صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٦ (طبعة بيروت ١٩٦٥).

(٤) Arnold The Calipahate. P 198.

تناول شؤون الحياة الاجتماعية من كل نواحيها. واحتوى أيضا على قوانين الحرب والسلام. وهذا من أخص أمور السياسة. وخوطبت به أمة متحدة تؤمن به ذات كيان خاص قال الله في شأنها : * كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرونَ بِالمَعْروفِ وتَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ *(١) فعينها بالخطاب أمة متميزة دون سائر الناس ووصفها فقال * وَكَذلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهِيداً (٢) . والأمة بهذا التعيين ما هي الا مجتمع سياسي . ووردت التشريعات الاجتماعية أيضا في الأحاديث وفي السنة العملية بوجه خاص. ومن بين السنة العملية تكوين المجتمع الاسلامي الذي كانت له كل الخصائص التي توجد بها الدولة السياسية بكل معانيها ويؤدي كل وظائف الدولة.

وعلى أثر ظهور الدعوة الاسلامية تكون مجتمع جديد له ذاتية مستقلة تميزه عن غيره. يعترف بقانون واحد وتسير حياته وفقا لنظام واحد يهدف الى غايات مشتركة وبين أفراده وشائج قوية من الجنس واللغة والدين والشعور العام بالتضامن. أو هو الذي يقال عنه أنه دولة (٣).

ومن الأمور الثابتة ان هذا المجتمع السياسي أو الدولة قد بدأ حياته الفعلية وأخذ يؤدي وظائفه، ويحول المبادئ النظرية إلى أعمال بعد أن استكمل حريته وسيادته وضم إليه عناصر جديدة ووجد له موطنا على أثر بيعتي العقبة بين الرسول الكريم وأهل يثرب وما تلاهما من الهجرة الا احدى النتائج التي ترتبت عليهما . والنظرة الصحيحة إليهما على أنهما حجر الزاوية في بناء الدولة الاسلامية، ومن ثم تتضح أهميتهما.

لقد ولدت الدولة الاسلامية في وضح النهار وتم تكوينها في ضوء التاريخ. وحيث بدأت عملها لم تكن هناك وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها أنها سياسية مثل إعداد الأدلة لتنفيذ العدالة أو تنظيم للدفاع أو نشر للتعليم أو جباية للمال أو عقد معاهدات أو إرسال وفود الا وكانت هذه الدولة تؤديها. وهذا يدلل على الطبيعة السياسية

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران : آية ١٢٠.

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة : آية ١٤٣.

(٣) أنظر : شحاته : النظم الحكم في الاسلام : ص ٤.

للنظام الاسلامي، وان الاسلام دين ودولة أو عقيدة ونظام.

ففي عصر الرسالة النبوية – وبخاصة بعد بيعتي العقبة، وبصورة أخص بعد الهجرة إلى المدينة – بدأ النبي صلى الله عليه وسلم، يبذر للدولة الاسلامية بذورها ويرسم لها منهاجا. ويهيء لها مجتمعا يصون بقاءها . وكان المجتمع المسلم يومئذ لا يحتاج من نظم الحكم إلاّ أبسطها. فاكتفى الرسول بتمهيد الجو الصالح لإنشاء دولة الإسلام جاعلا في تقديره احتياج الحياة الانسانية إلى التطور والنماء [1].

وفي عصر الوحي نزل من آي القرآن الكريم ما كان توطئة طبيعية لإقامة الدولة الاسلامية الراشدة التي تضبط أمور المجتمع ، ورسمت على وجه الاجمال أسس العدل لجميع الناس في كل الأحوال [2].

وحين قامت الدولة الاسلامية بالمدينة وتم تكوينها بالمعاهدة التي عقدها الرسول صلى الله عليه وسلم، بين المسلمين، ومجتمع المدينة ، وكان من شروطها المساواة بين جميع الأطراف وتعهد الجميع بالدفاع عن المدينة إذا ما هاجمها عدو وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى الرسول محمد أصبح النبي إلى جانب كونه رسولا يبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه من أمور الدين – الرئيس الأعلى للمدينة . إليه المرجع في كل شيء . ووضع الإسلام للحكم قواعد العدل والشورى . وان النبي في مجتمع الصحابة كاد يؤلف حكومة كاملة تدبر للدولة منهاجها وتضع لها تخطيطها ونظامها حسب المقتضيات والمصالح والحاجات. فالقرآن يأمر الحكام بالعدل أمرا صريحا: * وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ * [3]

* وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى * [4] .

* وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى * [5]

(١) صبحي صالح : النظم الاسلامية : ص٢٥١.

(٢) ابن القيم الجوزية: الطرق الحكيمة ص ١٤.

(٣) سورة النساء : آية ٥٨.

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٢.

ويتحدث الرسول عن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم إليه مجلساً "أمام عادل" وأن أبغض الناس إلى الله وأشدهم عذابا أمام جائر [1]، وكما فرض القرآن والسنة العدل على الحكام فقد فَرَضَا على الرعية الطاعة والتقيد بالنظام فالله يقول: *يَأَيُّها الَّذِينَ ءَامنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُم* [2] ويقول الرسول (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) [3] ...

ولم يكن الرسول (ص) يستبد برأيه. ولكنه كان يستشير أصحابه في كل ما يعرض من أمور ليس فيها حكم من الله تعالى ويعمل بمشورته. فنراه في غزوة بدر الكبرى يعدل خطته الحربية بمشورة الحباب بن المنذر ويغير موقع جنده،كما نراه بعد أن انتصر على قريش في هذه الغزوة،يستقر رأيه بعد استشارة أصحابه على قبول الفداء من قريش في أسرها. وشاور أصحابه يوم أحد في المقام أو الخروج،وأخذ برأي سلمان الفارسي في حفر الخندق ، واستشار أهل بيته وخواصه في حديث الإفك، وهكذا كان الرسول يستشير أصحابه ويعمل بمشورتهم فيما لم يكن فيه وحي من السماء. وظل كذلك حتى لحق بالرفيق الأعلى. وكان ذلك تطبيقا عمليا لما أمر به في القرآن الكريم قال تعالى * وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ * [4] وقال تعالى * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ * [5] وجاءت الأحاديث النبوية مؤيدة لما ورد في القرآن الكريم من الإشادة بشأن الشورى والحث على اتباعها والتنويه بفضائلها فمن ذلك ما روى من أقوال الرسول . (استعينوا على أموركم بالمشاورة. وما استغنى مستبد برأيه.

وروى عن أبي هريرة أنه قال : (لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله وما رأيت أحداً أكثر مشاورة من أصحاب الرسول (ص) . وكثيرا ما قال الرسول(صلى الله عليه وسلم)لأصحابه : أشيروا علي – فكانت الشورى هي طابع حكم الرسول ومن ثم فلا

(١) رواه البخاي والترمذي.
(٢) سورة النساء : آية ٩.
(٣) رواه البخاري في صحيحه.
(٤) سورة آل عمران : آية ١٥٩.
(٥) سورة الشورى : آية ٣٢.

استبداد ولا جبر به .

فلم يكن هذا الحكم ملكيا ولا جمهوريا ولا ديمقراطيا ولا استبداديا،ولم يعين الرسول أسلوب إقامة تلك الحكومة،ولم يصف الاجهزة التي تعول عليها من قضاة محاكمها،وقادة جيشها،وحماة أمنها،وجباة مالها.

وقد ترك الاسلام للمسلمين حريتهم،ولم يلغ إرادتهم،ولم يملك عليهم أمرهم كله،وإنما ترك لهم حريتهم في الحدود التي رسمها لهم،وترك لهم عقولاً تستبصر،وقلوبا تستذكر، وأذن لهم أن لهم أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا [١] .

وخلاصة القول : إن الرسول الكريم لم يلحق بالرفيق الأعلى إلاّ وقد خطا بالسياسة الرشيدة خطوات كبيرة ساعدت الخلفاء الراشدين على إكمال ما بدأ . وأن يضمنوا للناس العدل والحرية ويدفعوا عنهم الظلم،ويرسخوا في نفوسهم القواعد العامة التي نادى بها الرسول والتي يمكن ايجازها فيما يلي :

أ- أن الولاء للأمة يحل محل الولاء للقبيلة.

ب- ان الأخوة الدينية هي أساس النظام الاجتماعي.

حـ- إن الحاكم المسلم يجمع في وقت واحد سلطتي الدنيا والدين.

د- إن الشورى بين الحكام والمحكومين هي الأسلوب المفضل لضمان التوازن الاجتماعي.

ويمكن القول أن الإنسانية عجزت منذ القدم إلى الآن على ما أجرت من تجارب، وبلغت من رقي،وعلى ما بلغت من فنون الحكم أن تنشئ نظاما يتحقق فيه العدل السياسي والاجتماعي بين الناس على النحو الذي حققه الرسول وأصحابه الراشدون.

لمحة تاريخية عن نشأة الخلافة وتطورها :-

كانت للرسول صلى الله عليه وسلم مهمتان في حياته : الأولى : التبليغ عن الله بحكم الرسالة التي أختير ليقوم بأدائها فهو بذلك شرع عن الخالق. والثانية : كونه إماما

(١) انظر طه حسين : الفتنة الكبرى : ص ٢٢.

للمسلمين تجتمع إليه كلمتهم يوجههم إلى الخير ويبعدهم عن الشر. وإليه القضاء في مشكلاتهم بحسب ما يوحي إليه من الشريعة ثم يقوم بتنفيذ تلك الأحكام كما كان قائدهم في الحرب والغزو .

فالوظيفة الأولى انتهت بموته عليه السلام بعد تشريع ما أراد الله تشريعه وختم ذلك التشريع بقوله تعالى * الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً * (١) .

فلم يكن لأحد بعد ذلك إلا البناء على قواعد تلك الشريعة والاستنباط من جملها .

والوظيفة الثانية : هي موضوع البحث والتي عرفت بالخلافة والإمامة الكبرى وكانت أولى المشاكل التي واجهت المسلمين بعد وفاة نبيهم. ولم يوجد بين المسلمين شيء تشعبت فيه الآراء واختلفت الكلمة بمقدار ما كان منها في الخلافة. وكانت سببا لما حدث بينهم من فرقة وخلاف. وقد أشار إلى ذلك الشهرستاني بقوله : (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة. إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان) (٢).

ويقول أبو الحسن الأشعري : اختلف الناس بعد نبيهم في أشياء كثيرة . فصاروا فرقا متباينين ... إلا أن الاسلام يجمعهم وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم اختلافهم في الأمامة . (٣)

وقد اختلفوا في الإمامة لأن الكتاب (القرآن) الكريم لم يشر أي إشارة لبيان هذا النوع من الحكم وكذلك الرسول لم يؤثر عنه نص صريح في هذه المسألة فلم يعين من يخلفه أو البيت الذي يكون منه الخليفة، ولا الطريقة التي يتم بها الاستخلاف. ولم يحدد الشروط التي يجب أن تتوافر في الحاكم وما إلى ذلك من التفصيلات.

فقد وكل إلى الأمة لتختار حاكمها كما تشاء وبالطريقة التي تراها ومن البيت الذي تريده في كل زمان، إذ أن الظروف والأحوال تتغير والمجتمعات تتطور والبيئات تختلف.

(١) سورة المائدة : آية ٣.

(٢) الملل والنحل : ص ٢٠ تخريج محمد بدران طبع الأزهر.

(٣) أبو الحسن الأشعري : مقالات الاسلاميين : جـ ١، ص ٢.

فما يصلح اليوم قد لا يصلح غدا. فالأمة أعرف بدنياها تشكلها كما تشاء،ولا ضرر من ذلك ما دام الدستور العام قائما مرعيا موجها للحاكمين والمحكومين . ولذلك كان التشريع الاسلامي في هذه الناحية في أسمى مراتب الكمال. بملاحظة سنة التطور العام في المجتمعات . ولم يشأ ظلم المجتمع الاسلامي بما عساه لا يتناسب مع التطور الطبيعي. وما أعظم جواب أبي بكر الصديق لمن قال من المسلمين : ألم يترك رسول الله (ص) أو لم يسم الخلافة لأحد قال أبو بكر : إن النبي (ص) خلى إلى الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين غير مختلفين (١) على أنه ينبغي إلا يغيب عنا أمر ذو بال : هو أن الصحابة رضوان الله عليهم قد اختلفوا اختلافا كبيرا بعد موت الرسول حول اختيار الحاكم،وهم علماء الأمة الأول الذين تفهموا عن الرسول كل شيء ، أفلو كانوا يعرفون نصا من القرآن أو صحيح السنة من النصوص الملزمة الواجبة الطاعة،أكانوا يخرجون عليه ولا يلتزمونه وكان يقع بينهم هذا الاختلاف الخطير، ثم الا يدل اختلافهم حول الخلافة على أنها منصب من شأن الشعب أن يقرر مصيره حيث لا يجدون نصوصا ملزمة؟

اذن فقد كان ترك مسألة الحكم بدون تحديد هو في ذاته اعتراف بالرأي العام للجماعة. كما نقول في تعبيرنا الحديث (ارادة الأمة).

لقد شعر المسلمون بالفراغ بعد موت الرسول . فمن يخلفه ؟ وكيف يعالجون مسألة الخلافة الشائكة ما دام الأمر شورى بين المسلمين ؟ .

ومن الطبيعي أن يطمع في الخلافة كثيرون وأن تقدم كل جماعة رئيسها مرشحا لأمر المسلمين . فكانت الأنصار تميل بالخلافة إلى سيد الخزرج سعد بن عباده (٢) .

فبينما كان المهاجرون وأهل بيت النبي مشغولين بتجهيز الرسول لدفنه،أسرع الأنصار إلى الاجتماع في سقيفتهم في نفس اليوم الذي توفي فيه الرسول (ص) ليبحثوا أمر الخلافة. فقد كانوا يرون أنهم أهل لرياسة المسلمين لأنهم أهل البلد، وهم أهل العدد وأصحاب السيوف التي تركز الاسلام بها وحمت الدعوة الاسلامية من طغيان قريش،

---

(١) شحاته : نظم الحكم في الاسلام : ص ٧.

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة، ص٧ ، الطبري : تاريخ الطبري ، جـ ٣، ص٢٠٨
ابن الأثير : الكامل في التاريخ : جـ ٢، ص ٣٢٨ (انظر الى خطبته).

وأنصار الرسول وحواريوه،وهذه المبررات تؤهلهم لرياسة الدولة وتجعلهم أحق بالامارة من قريش، لذلك كله استقر رأيهم على أن يرشحوا لهذا الأمر سعد بن عبادة سيد الخزرج وأحد النقباء في بيعة العقبة الكبرى . فلما بلغ الخبر أبا بكر وعمر اتجها إلى سقيفة بني ساعدة وفي الطريق انضم إليهما أبو عبيدة،وقد وصلوا قبل أن تتم مبايعة سعد. فاستمعوا إلى وجهة نظر الأنصار وتبرير أحقيتهم بالخلافة . ثم إن المهاجرين بينوا أنهم أحق من الأنصار بالخلافة لأنهم أول من عبد الله وآمن به وبرسوله وهم أولياؤه وعشيرته،وأن العرب لن تعترف بهذا الأمر الا لقريش. واشتد الجدال وكاد السيف يقع بين المهاجرين والأنصار لولا لطف الله بالاسلام فقد تدخل أبو عبيدة بن الجراح وقال للأنصار : يا معشر الأنصار كنتم أول من ناصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل أو غير. فكانت لهذه العبارة أثر في نفوس البعض إذ سرعان ما انطفأت الفتنة وحلت المشكلة بمجرد رواية أبي بكر حديث الرسول (ص) :(الأئمة من قريش)(١) وقول عمر بن الخطاب للأنصار : (لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم) (٢) عندها قال الأنصار : (منا أمير ومنكم أمير) فأبي المهاجرون وأسرع عمر وأبو عبيدة وبايعا أبا بكر (٣) فاقتدى بهما الأنصار وتداعى المسلمون للمبايعة وبخاصة بعد أن تأكدوا أن الأمر سيكون شورى بينهم وبين المهاجرين(٤).

والذي لا شك فيه أن ما تم في السقيفة قد وقى الاسلام فتنة ليس يعلم الا الله ما كان يحدث فيها. وقد مهد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين كما مهد للسياسة التي رسمها الرسول (ص) أن تنجح النجاح الذي مهد للامبراطورية الاسلامية من بعد، والذي نشر دين الله بفضل منه جل شأنه من مشارق الأرض ومغاربها .

وفي اليوم التالي من اجتماع السقيفة جلس أبو بكر في المسجد وبايعه الناس البيعة العامة بعد البيعة الخاصة بالسقيفة . وكان انتخابه للخلافة لما كان يتمتع به بين الصحابة

(١) مقدمة ابن خلودن : ص ١٥٣.
(٢) عمر بن الخطاب (لابن الجوزي) ص ٣٤-٣٥.
(٣) ابن هشام : جـ ٢، ص ٦-١٠.
(٤) الكامل في التاريخ : جـ٢، ص ٢٢٣.

من مكانة دينية عالية. فقد كان أول السابقين إلى الإسلام من الرجال (١) وصاحب النبي في الهجرة وصهر الرسول لزوجته عائشة (٢) وحسن بلائه في سبيل الاسلام.

وبعد أن تمت البيعة القى أبو بكر في الناس أول خطاب له بين فيه منهاجه في الحكم ويؤكد لهم أنه سيسوسهم بالعدل وأنه مسئول عنهم أمام الله وأن له عليهم حق المشورة والمؤازرة في خطابه :

(أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى ارد إليه حقه إن شاء الله. والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم) (٣).

وهكذا تمت بيعة أول حاكم (لأول نظام سياسي) بعد وفاة الرسول عليه السلام هو نظام الخلافة الذي قام منذ ذلك الوقت حتى الثاني من شهر آذار سنة ١٩٢٤ م حيث الغاه مصطفى كمال. ولم تقم له قائمة حتى الآن.

ما هي الخلافة (معنى الخلافة) (٤)

الخلافة في اللغة : مصدر (خَلَفَ) يقال خلفه لخلافه كان خليفته وبقي بعده والخليفة السلطان الأعظم والجمع خلائف وخلفاء واستخلف فلانا من فلان جعله مكانه. والخليفة الذي يستخلف ممن قبله (٥).

فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفا لأحد ومن ثم سمي من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم في إجراء الأحكام الشرعية خليفة.

والخلافة في الاصطلاح :هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي(ص)

---

(١) الكامل في التاريخ : جـ٢ ، ص ٣٨ : سورة التوبة : آية ٤٠.

(٢) الكامل : جـ٢ ، ص ٧٧.

(٣) ابن هشام : جـ٢ ، ص ٧ - ١٠ .

(٥) لسان العرب: جـ٩، ص٨٢ ومابعدها مادة خلف- بن تيمية : منهاج السنة جـ١، ص٣٥.

(٤) انظر : شحادة الناطور . عبد الله بن الزبير والانتفاضة الثورية فى عهد بني أمية، ص ٣٥-٤٣.

وقد عرفها الماوردي بقوله : (الامامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا) [١] .

أما ابن خلدون فعرفها بأنه (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة اليها) [٢] . إذ أن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي أي الخلافة في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع الشريف في حراسة الدين وسياسة الدنيا به.

فالخليفة اذن : هو القائم بحراسة الدين وسياسة الدنيا نيابة عن النبي ويسمى كذلك إماماً. فأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله. واختلف في تسميته خليفة الله، فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التي للآدميين في قوله تعالى * إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً * [٣] وقوله * جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ * [٤] . ومنع الجمهور منه لأن المعنى ليس عليه. .

وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال : لست خليفة الله. ولكني خليفة رسول الله. لأن الاستخلاف إنما يكون في حق الغائب وأما الحاضر فلا. وأما تسميته إماما : فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به ولهذا يقال : الإمامة الكبرى [٥].

والخليفة يجمع بين السلطتين السياسية والدينية . فمنزلته من الأمة كمنزلة الرسول عليه السلام من المؤمنين . له عليهم الولاية والطاعة التامة. وله حق القيام على دينهم فيقيم حدود الله وينفذ شرائعه. وله حق القيام على شئون دنياهم فهو الحاكم الزمني والروحي .

وهذا يغاير ما كان قائما في الغرب في العصور الوسطى في وجود شخصين أحدهما

---

(١) الأحكام السلطانية : ص ٣ تاريخ الحضارة الاسلامية : ص ٧٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ١٩٠.

(٣) سورة البقرة : آية ٣٠.

(٤) سورة الأنعام : آية ١٦٥

(٥) مقدمة ابن خلودن : ص ١٩١.

للشئون الدينية وهو البابا. والثاني للشئون الدنيوية وهو الامبراطور [١] .

ألقاب الخليفة :

كان أبو بكر يلقب بخليفة رسول الله. وكان عمر يلقب في بدء خلافته بخليفة خليفة رسول الله. ومنعا لتكرار لفظ خليفة في المستقبل فقد أمر عمر أن يستبدل هذا اللفظ بعبارة أمير المؤمنين. ومعنى هذا اللقب الجديد أن المؤمنين قد تحولوا إلى قوة وأن عمر صار أميرا لهذه القوة. لأن الأمير عند العرب قبل الإسلام كان يقصد به قائد الجيش. بذلك كان عمر أول من يلقب بهذا اللقب الذي كان يتمشى مع عهد الفتوحات لما في هذا اللفظ من الاشعار بالسلطتين الحربية والإدارية وقيل في تلقيب عمر بأمير المؤمنين غير ذلك [٢] أما لقب إمام فإنه تتمثل فيه الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة التي ترتبط بالدين. ويقال لهذه الإمامة الصغرى . أما الإمامة الكبرى فهي المرادفة للخلافة عند الجمهور. يقول ابن حزم : (ان لفظ الإمام إذا أطلق فإنه لا ينصرف الا إلى صاحب الإمامة الكبرى أو العامة) [٣] .

وأما الشيعة فقد خصوا عليا (رضي) باسم الإمام نعتا له بالإمامة التي هي الخلافة وتعريفا بمذهبهم في أنه أحق بإقامة الصلاة من أبي بكر كما هو مذهبهم فخصوه ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده. فكانوا كلهم يسمون بالإمام ما داموا يدعون لهم في الخفاء . فإذا استولى على الدولة أضافوا إلى اللقب السابق لقبي خليفة وأمير المؤمنين(٤) . ونقل التفتازاني : إن الشيعة كانوا يذهبون إلى أن الإمامة أخص من الخلافة(٥) . ومعنى ذلك أنها أكمل . فالإمام عندهم لا يعني الا صاحب الحق الشرعي.

---

(١) انظر في تاريخ الاسلام السياسي: حسن ابراهيم حسن :جـ١، ص٥٥٤-٥٥٥ وكتاب النظم الاسلامية/ص٣٠٢ ما ذكره توماس آرنولد حول أوجه الشبه والاختلاف بين النظامين .

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٧ وما بعدها. سيرة عمر بن عبد العزيز (لابن الجوزي) ص ٤٩.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملك والنحل : جـ٤، ص٩٠.

(٤) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٧.

(٥) شرح العقائد النسفية : ص ١٤٣.

سواء كان مولىً السلطة بالفعل أم لا . أما الخليفة فيدل أولا على صاحب السلطة الواقعية. وقد يكون غير ذي حق أو قد يؤيد الحق مركزه الواقعي. ففي هذه الحالة يتساوى مع الإمام. ومن أجل هذا فإن الشيعة كانوا يسمون ولاة الأمة الذين لا يعترفون بهم خلفاء ولا أئمة(١) .

هذه الألقاب الثلاثة التي كان الخلفاء الأول يلقبون بها منذ عهد الراشدين حتى نهاية الدولة الدولة الأموية. ثم أضيف إليها فيما بعد ألقاب أخرى مثل السفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد والناصر، الخ ... وكانت الألقاب الثلاثة الأولى كلها بمعنى واحد عند الجمهور تطلق على رئيس الدولة في الإسلام .

شروط منصب الخلافة :

وهي الشروط التي يجب أن تتوافر ليكون عقد الإمامة صحيحا وكما تعتبر في الابتداء تعتبر أيضا في الاستدامة . فإذا لم تكن موجودة منذ البداية لم يصح العقد أصلا وكانت الولاية باطلة. وإذا اختل شرط منها بعد ذلك صار العقد باطلا، أوجب أن يحكم ببطلانه. وفيما يلي هذه الشروط :-

١- أن يكون من أهل الولاية الكاملة : ويتضمن هذا أشياء هي : أن يكون مسلما حرا ذكرا بالغا عاقلا. أما الإسلام فلأنه شرط في جواز الشهادة وفي صحة الولاية. قال تعالى * وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً * (٢)

ولأن الغرض الأساسي من منصب الإمام هو تنفيذ الشريعة. فكيف يمكن تنفيذها، أو ترعى مصلحة الاسلام وأهله. إن لم يكن متولي هذا المنصب مسلما.

وأما الحرية : فلنقص فاقدها عن ولاية نفسه فيمنع من انعقاد ولايته على غيره .

أما الذكورة : فإنه وإن كان وقع بين العلماء خلاف في جواز تولي المرأة القضاء فإنه لم يُرْوَ عنهم خلاف فيما يتعلق بالإمامة الكبرى. والكل متفق على أنه لا يجوز أن تليها

(١) النظريات السياسية الاسلامية : ص ٩٧.

(٢) سورة النساء : آية ١٤١.

امرأة . لأن المنصب هذا يتطلب القيام بأعمال خطيرة ، والنهوض بأعباء جسيمة وهذا ما لا تتحمله طبيعة المرأة .

أما البلوغ : فلأن الصبي غير مكلف وهو مولى عليه فلا يلي أمر غيره. ولم يشذ عن هذه القاعدة من الخلفاء السنيين سوى المقتدر العباسي.

ويقول ابن حزم. وان جميع فرق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة، ولا إمامة صبي لم يبلغ،إلا الرافضة فإنها تجيز إمامة الصغير وهذا خطأ لأن من لم يبلغ غير مخاطب والإمام مخاطب بإقامة الدين [١] .

وأما العقل : فمن البداهة بمكان. ويقول الماوردي موضحا هذا الشرط : (ولا يكتفي فيه العقل الذي يتعلق بالتكليف من علمه بالمدركات الضرورية حتى يكون صحيح التمييز جيد الفطنة بعيداً من اللهو والغفلة . يتوصل بذكائه الى ايضاح ما أشكل وفصل ما أعضل) [٢] .

٢- العلم : والمراد به العلم المؤدي إلى الاجتهاد. لأن التقليد نقص والإمامة تستدعي الكمال. وإذا كان من واجبات الإمام تنفيذ الأحكام فإنما يكون منفذاً لها إذا كان عالما بها وما لم يعلمها لا يصح تقديمه لها..

٣- العدالة : الخلافة منصب ديني ينظر في سائر المناصب التي هي شرط منها ة ظاهر الأمانة عفيف عن المحارم متوقيا المآتم بعيدا من الريب مأمونا في الرضا والغضب. يقول ابن خلدون : (ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه (أي الإمام) بفسق الجوارح من ارتكاب المحظورات وأمثالها وفي انتقائها بالبدع الاعتقادية خلاف) [٣] .

٤- الكفاية : وهي أن يكون الإمام جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها. عارفا بالعصبية وأحوال الدهاء. قويا على معاناة السياسة. وبعبارة أخرى : أن يكون الإمام ذا ثقافة في شؤون السياسة والإدارة والحرب.

---

(١) الفصل في الملل والنحل : جـ٤، ص١١٠. وذكر الدكتور مصطفى الرافعي (حضارات العرب ص١٠٦) قالوا بإمامة غزالة أم شبيب بعد موت ولدها .

(٢) الأحكام السلطانية : ص ٦٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ١٩٣.

٥- سلامة الحواس والأعضاء : مما يؤثر في الرأي والعمل . كالجنون والصمم والعمى والخرس وفقدان اليدين والرجلين والأذنين وان كان يشين في المنظر فقط. فقدان إحدى اليدين والرجلين. فشرط السلامة منه كمال. وهذه الشروط في جملتها متفق عليها.

٦- النسب القرشي : وهو أن يكون الخليفة من قريش وهو شرط فيه خلاف ويتمسك بهذا الشرط جمهور أهل السنة. ما عدا القاضي أبا بكر الباقلاني من كبار الأشاعرة في القرن الرابع الهجري. فقد ذهب الى نفي شرط القرشية وتبعه آخرون منهم ابن خلدون.

أما الخوارج : فهم لا يقولون بهذا الشرط ويرون أن الإمامة حق لكل مسلم تكاملت فيه الشروط دون اعتبار لنسبه وقبيلته وجنسه. وأول إمام بايعوه هو عبد الله ابن وهب الراسبي. وراسب حي من الأزد - فهو إذن غير قرشي .

وأما المعتزلة : فقد ذهبوا إلى ما ذهب إليه الخوارج وحكم بعضهم - كشرار بن عمرو بتفضيل غير القرشي بحيث إذا اجتمع قرشي وحبشي قدم الحبشي إذ هو أقل عددا وأضعف وسيلة فيمكن خلعه إذا خالف الشريعة.

وأما الشيعة : فيرون تخصيص الخلافة بالقرابة القريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وان الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم. بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام. ولا يجوز لنبي اغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الصغائر والكبائر ، وان عليا هو الذي عينه الرسول [1]

إن التعارض واضح بين الأحاديث والآثار التي تقصر الخلافة على قريش عامة أو بني هاشم خاصة. وبين الأحاديث التي تجعلها حرة للناس جميعا. وعلينا أن نقول في هذه المرويات المتناقضة : تعارضا . وتبقى الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿ يَأَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّه أَتْقَاكُمْ﴾[2]

(١) مقدمة ابن خلدون : ص ١٩٣.

(٢) سورة الحجرات : آية ١٣٠.

وهذه الآية أساس روح الاسلام العامة في إلغاء الفوارق الاجتماعية وإلغاء الطبقات والتعصب للجنس أو النسب وإقرار الحرية العامة والمساواة التامة والأخوة بين المسلمين ومن الحقائق التاريخية أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمّر أسامة بن زيد مولاه على كبار المهاجرين والأنصار، ثم أنفذ ذلك أبو بكر، وقال عمر لما قيل له لو استخلفت : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيا لاستخلفته فإن سألني ربي قلت (سمعت نبيك يقول : إن سالما شديد الحب لله).

ويقول ابن كثير : ان النبي لم ينص على الخلافة لأحد من الناس. لا لأبي بكر كما تدعى البكرية ولا لعلي كما تدعي الشيعة. وان يكن أشار إلى الصديق بانتدابه للصلاة.[1] ولو كان هناك نص على قريش أو بيت خاص لنزل الصحابة على ذلك النص، ولما اختلفوا وتنازعوا حتى أوشك الشر أن يقع بينهم، وجماع القول فان شرط القرشية وما يماثله غير لازم لأنه شرط تأباه المساواة التي جاء بها الاسلام كما لا يتفق مع العدالة الانسانية. وإذا كان الاسلام قد جعل الأمة مصدرا لسلطات الحاكم وقوته. وترك اختيار الأصلح لها من طرق الحكم ووسائله أفير غمها على اختيار حاكمها من قبيلة خاصة وقد لا تتوافر فيه شروط الخلافة ؟

الخلافة في عهد الخلفاء الراشدين (٢)(١١-٤٠هـ)(٦٣٢-٦٦١م)

أ- اختيار الخليفة الأول :

قدمنا فيما سبق كيف اختير أبو بكر الصديق وكان ذلك بدء نشأة الخلافة في الاسلام. وحدث ذلك في سقيفة بني ساعدة بعد تشاور من حضر من المهاجرين والأنصار وكانت البيعة الخاصة. وفي اليوم الثاني عرض الأمر على الأمة مجتمعه في مسجد الرسول

(١) البداية والنهاية : جـ٥، ص ٢٥.

(٢) انظر ابن هشام : السيرة النبوية : جـ٤، ص٣١١.

الطبري : تاريخ الطبري : جـ٣، ص٢٠٣.

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : جـ٢، ص٣٣٢.

ابن كثير : البداية والنهاية : جـ٥، ص ٢٤٨

السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٦٤.

(ص) وحضر الاجتماع من تيسر له الحضور، وبايعوا البيعة العامة عن رضى وقبول وبذلك أصبح أبو بكر الخليفة الأول للرسول وفي هذه السابقة نلاحظ أن الخلافة قد خضعت للشورى العامة السريعة نظرا للأخطار والظروف التي كانت تحيط بالمسلمين آنذاك.

ب- اختيار الخليفة الثاني:

رأى أبو بكر أن الأحوال المحيطة بالمسلمين تدعو إلى اختيار شخص تتوافر فيه التقوى والكفاية والمقدرة على سياسة الدولة حتى يوفر على الأمة عناء الاختيار ويتجنب الاختلاف الذي هدده بالخطر بعد وفاة الرسول (ص) فوقع اختياره على عمر بن الخطاب. ثم رأى أبو بكر أنه ليس من حقه أن يستبد على الأمة بتعيينه ويفرض رأيه دون مشورة أحد من أصحاب الرأي في الأمة وهم أهل الحل والعقد. وبعبارة أخرى وكلاء الأمة. فاستدعى إليه بعضهم كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأسيد بن حضير وغيرهم من المهاجرين والأنصار فأثنوا على عمر ووافقوا على اختياره . فكتب أبو بكر عهدا بذلك يعلن للمسلمين اختيار عمر [١] وأشرف على الناس وهو في شدة مرضه وقال لهم : أترضون بمن أستخلف عليكم؟ فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا. فقالوا (سمعنا وأطعنا).

فكانت خلافة عمر بترشيح أبي بكر وموافقة أهل الحل والعقد ثم موافقة العامة على ذلك. وهذه الطريقة تسمى بالشورى المقيدة بترشيح ولي الأمر لمن هر أهل للخلاف علما بأن أبا بكر لم يرشح أحدا من أبنائه أو أقربائه بل ولا من قبيلته .

جـ - اختيار الخليفة الثالث :

لما طعن عمر بن الخطاب أشار عليه بعض الصحابة في أن يستخلف أحدا وإنما دعا نفراً من الصحابة وهم الذين توفي الرسول وهو عنهم راض وأمرهم أن يختاروا بعد وفاته - وخلال ثلاثة أيام واحدا منهم : وهم : سعد بن أبي وقاص ، على بن أبي طالب، عثمان بن

(١) الكامل في التاريخ : جـ ٢، ص ٢٩٢ - وانظر سيرة عمر بن الخطاب (لابن الخوري) ص ٣٦.

عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن عوام (١) وكان طلحة غائبا وبعد وفاة عمر اجتمع رجال الشورى وتمكنوا من الاتفاق على اختيار خليفة للمسلمين وهو عثمان بن عفان في المحرم سنة ٢٤ هـ (٢) وروى بن تيمية عن الإمام أحمد : وأقام عبد الرحمن ثلاثا حلف أنه لم يغتمض فيها بكبير نوم،يشاور الأولين والتابعين لهم بإحسان ويشاور أمراء الأنصار فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان وذكر أنهم كلهم قدموا عثمان وبايعوه لا عن رغبة أعطاهم إياها ولا عن رهبة أخافهم بها (٣).

وهكذا استطاع ابن عوف الخروج من تلك الأزمة التي كادت أن تثير حربا بين المسلمين. فكانت الطريقة التي اختير على أساسها عثمان قد اجتمع فيها الترشيح من الخليفة القائم والشورى في اختيار أصلحهم فهي شورى خاصة مقيدة بالترشيح من ولي الأمر.

د - اختيار الخليفة الرابع :

كانت لبعض الأمصار ونفر من أهل المدينة مآخذ على سياسة عثمان . وانتهى الأمر بالثورة المسلحة على الخليفة عثمان ثم قتل بيد الثائرين - وكان لعثمان عصبية وكان كثيرون قد ساءهم ما حل به وأهله . فخاف الثوار أن يرجع الحكم الى قرابة عثمان . فبايع هؤلاء المتغلبون ، علي بن أبي طالب خليفة فقبلها مرغما تحت تهديد الثوار ، والحاح بعض المهاجرين والأنصار،(٤) وقد تردد في بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وأسامة بن زيد وسعيد بن يزيد والمغيرة بن شعبه وغيرهم من

(١) انظر الكامل : ج٣ص٣٦ انظر : شحادة الناظور، عبدالله بن الزبير والانتفاضة الثورية ص٤١ .

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد: ج٢ص٣٩٨ شحادة الناظور الانتفاضة الثورية في عهد بني أمية، ص٤٢.

(٣) منهاج السنة: ج١ص١٤٣/انظر الطبري : تاريخ الطبري، ص ، ص١٣ . ٣٤ ابن الأثير الكامل: ج ٣، ص٥٠-٦٨.

(٤) الكامل في التاريخ : ج٣ ص ١٩٦ .

الإنصار مثل أبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير وغيرهم . وكذلك تخلف بنو أمية وهرب البعض الى مكة والآخر الى الشام . وعلى الرغم من ذلك فقد تمت بيعة علي من الثوار ومن بعض الصحابة في المدينة .

بقي علي بن أبي طالب خليفة الى أن قتل عام ٤٠هـ على يد احد الخوارج وهو عبدالرحمن بن ملجم(١). وبويع ابنه الحسن الذي تنازل لمعاوية بن أبي سفيان .

وبذلك انتقلت الخلافة الى الأمويين. ومما سبق نلاحظ أن الخلفاء الراشدين لم يكونوا من بطن واحد من بطون قريش فقد كان أبو بكر من تيم وعمر من عدي وعثمان من بني أمية وعلي من بني هاشم .

وكان انتخابهم يتمشى مع الشورى التي جاء بها القرآن وندبت اليها السنة النبوية ولا أثر فيه للاستبداد. كما أن تصرفاتهم كانت تخضع للشورى والخليفة يحكم طوال حياته ما دام محافظا على السير وفق الشريعة الغراء .

كما نلاحظ أن الخليفة كان عقب انتخابه يخطب الناس مبينا لهم منهجه في الحكم وسياسته التي اعتزم السير عليها .

الخلافة في عهد الأمويين (٤١-١٣٤هـ ٦٦١-٧٥٠م) :

بعد وفاة علي بايع أهل الكوفة ابنه الحسن بالخلافة . الا أنه تنازل عنها لمعاوية بن أبي سفيان لأسباب كثيرة منها رؤيته معاوية فوق طاقته . ومنها منع اراقة دماء المسلمين من جراء الحرب الأهلية. ومنها ميله للسلم وكرهه للحرب إلى غير ذلك من الأسباب التي ذكرت وتتعلق بشخصيته.

وبعد تنازل الحسن لمعاوية بايعه الكوفيون كما بايعه هو،وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٤١هـ .وسمي هذا العام عام الجماعة (٢) وأصبح معاوية أول خليفة أموي من ذرية أبي سفيان. وبه تبدأ الخلافة عهدا جديدا في تاريخها وتنتقل من حكم مبني على الشورى

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ج٢، ص٢٥٧، ٢٦٤

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ج٢ ص٢٥٧ ، ٢٦٤

مستمد من كتاب الله وسنة الرسول الى حكم فردي توجهه السياسة التي أصبحت في المكان الأول . ونقل معاوية عاصمة الخلافة الى دمشق واتخذ لنفسه الدور والقصور (١) وأحاط نفسه بالحجاب والخدام (٢) .

ويعتبر معاوية أول من أدخل مبدأ الوراثة في نظام الخلافة ، ومهما كانت الأسباب التي دفعت به لهذا التقليد من رغبة في حفظ الخلافة في بيته، أو ملاحظته للمشاكل التي تقع عند وفاة كل خليفة . فانه أول منأدخل نظام الوراثة (بعهده) بالخلافة لابنه يزيد وأخذ البيعة من المسلمين على هذا (٣) .

وقد أثار عمل معاوية سخط العرب عامة وسخط بعض الأمويين ، وانتقدوه بانه اتبع طرقاً ساسانية وبيزنطية ، ولما توفي معاوية جددت البيعة ليزيد تأكيدا للعهد. وصارت هذه عادة يسير عليها الخلفاء .(٤)

وكان معاوية قد استعمل الحيل والدهاء حتى استوثق له أكثر الناس في كل من الشام والعراق ، وأخذ البيعة لابنه يزيد . وقد بايعه الناس والقلوب منطوية على مافيها من كراهية بيعته (٥) .

وبعد وفاة معاوية حدث من الحوادث ما قسمت المسلمين شيعاً وأحزابا وحدثت حروب ذهب ضحيتها نفوس مؤمنة طاهرة . وبعد وفاة يزيد تولى الخلافة ابنه معاوية الثاني الذي تنازل عنها بعد أربعين يوما (٦) .. اختلف الأمويون بعد معاوية الثاني في من يولون الخلافة وحدثت حروب الى أن تولى مروان بن الحكم الأمر وقد اشترط عليه أن يكون الأمر

---

(١) كقصره الذي سماه الخضراء (انظر التنبيه والأشراف للمسعودي)ص٢٠٣-دي عاوية .

(٢) تاريخ اليعقوبي : ج٢، ص٢٧١- الكامل في التاريخ: ج٣ص١٩٨.

(٣) تاريخ اليعقوبي : ح٢ص٢٥٦- الامامه والسياسه ج١ ص٢٦٣- ابن جزم (الفصل في الملل والأهواء والنحل : ج٢٢٢ ص١٦٧ .

(٤) موجز تاريخ الحضارة العربية : ص١٩ (ناجي معروف وعبدالعزيز الدوري بغداد .

(٥) أنظر : تاريخ اليعقوبي: ج٢،ص٢٧١-الأغاني: ج٧، ص١٠٤-ج١٦ ص٧٠ -ألكامل في التاريخ: ج٣، ص٢٥٠ .

(٦) الفخري في الآداب السلطانية : ص ١١٠

بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص وقبل أن يتوفى نقل عهد الخلافة الى ابنيه عبدالملك ثم عبدالعزيز من بعده . وبهذا نكث مروان العهد الذي أخذه على نفسه .

وجرى خلفاء بني أمية على هذه الطريقة واختيار أولياء العهد في حياتهم اذ أن الأمويين منذ مروان الأول لم يقصروا عهدهم على واحد بل كانوا يختارون من يلي عهدهم ومن بعده. وهذه من أغلاطهم التي كانت سببا من أسباب القضاء على دولتهم (١) .

الخلافة في عهد العباسيين : (١٣٢- ٦٥٦هـ ، ٧٥٠ - ١٢٥٨م) .

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية . وبظهورها تطور نظام الخلافة تطورا آخر حيث اعتبر العباسيون الخلافة ميراثا عن الرسول وانه حق من حقوقهم المقدسة ، وان الأمويين كانوا غاصبين لهذا الحق . فقامت دولتهم باسم الدين السلاح الذي استخدموه للتأثير في العقول . وقد نجحت سياستهم هذه وتربعوا على سدة الحكم وأصبح الخليفة العباسي يحكم بتفويض من الله لا من الشعب ونلمح ذلك مما قاله أبو جعفر المنصور : انما أنا سلطان الله في أرضه (٢) .

وكان من أثر ميل العباسيين الى الفرس - لقيام دولتهم بجهودهم - أن اصطبغ الحكم بالصبغة الفارسية، من استبداد بالسلطة والتسلط على الرعية واحتجاب الخليفة عن رعيته ، حتى قيل : إن دولة بني أمية عربية ودولة بني العباس أعجمية (٣). ولم يكن عجبا أن تأثرت العرب بهم . فكثرت في بلاط الخلفاء المراسيم التي زادت من هيبة الملك والخلافة ، فاحتفلوا بالنيروز والمهرجان وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة . وبعد أن صارت الخلافة تستند الى نظرية الحق الالهي قرب الخلفاء اليهم العلماء ورجال الدين لنشر هذه النظرية بين الناس التي أصبح لها شأن في الحياة السياسية في الدولة العباسية (٤) .

(١) شحاته ك نظم الحكم في الاسلام : ص ٢٩

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين : ج٢ ، ص٦٤ .

(٤) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص٥١

كانت الخلافة في العصر العباسي وراثية تماما واتبع بنو العباس في ولاية العهد الاسلوب الذي سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والأخوة . كما عهدوا الى من لم يبلغ سن الرشد (١) .

وفي فترة النفوذ التركي (٢٣٢-٢٣٤هـ/ ٨٤٧-٩٤٠م) آلت الخلافة العباسية الى الضعف . ففي عهد المقتدر أصبح هناك ثلاثة خلفاء في العالم الاسلامي: الخليفة العباسي في بغداد والخليفة الفاطمي في شمال أفريقيا والخليفة الأموي في الأندلس (عبدالرحمن الثالث). ومنذ سنة ٣٣٤هـ انتقلت سلطة الخلفاء الى أمير الأمراء وأصبح الأمر والنهي بيد الأمراء ومنذ سنة ٣٣٤هـ ساءت الأحوال وضعف المماليك والأمراء فانتقلت السلطة الى البويهيين . وفي عهدهم ذهبت هيبة الخلافة ولم يبق للخلفاء نفوذ ولا سلطان . اذ لم يبق للخليفة سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه في الخطب ونقش السكة. (٢)

وبعد أن ضعف البويهيون انتقلت السلطة الى السلاجقة الذين كان الخلفاء في عهدهم أحسن حالا من العهود السابقة ، وان العلاقة بينهم وبين الخلفاء كانت أفضل حالا أيضا مما كانت عليه مع البويهيين .

ولما دخلت الدولة العباسية دور الضعف لم يعد للخليفة نفوذ سياسي وأصبح سلطانه قاصرا على الشؤون الدينية تشجع بعض الأمراء الخارجين على الخليفة العباسي بتلقيب أنفسهم بالخلافة والامامة. ومن هؤلاء عبيد الله المهدي مؤسس الدولة العبيدية (الفاطمية) بافريقية؛أخذ الفاطميون بمبدأ الوراثة في الحكم كالعباسيين ونافسوا الخلافة العباسية حقا اذ وضعوا كثيرا من النظم المختلفة (٣) .

كانت الخلافة الفاطمية تدين بتقديس الأئمة وعصمتهم وليس كمسلك الأمويين والعباسيين في تولية أبنائهم العهد(٤). وعندما ضعف الفاطميون انتهز صلاح الدين ذلك وأسقط الخلافة الفاطمية ، وأعاد الاعتبار للخليفة العباسي بالدعوة له على المنابر وأعلن قيام الدولة الأيوبية، وفي الأندلس

(١) المدخل في تاريخ الحضارة العربية : ص١٩

(٢) البيروتي : الآثار الباقية : ص ١٣٢

(٣) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ٧٩ - ٨٥

(٤) شحاته : نظم الحكم في الاسلام : ص٣٧

أعلنت الخلافة ولقب عبدالرحمن الناصر بالخليفة سنة ٣١٧ وأصبح بذلك ثلاث خلفاء في العالم الاسلامي. وظل سلطان الخلفاء قويا حتى عهد هشام المؤيد بالله حيث كانت السلطة بيد أمه ثم انتقلت الى الحاجب المنصور .

وفي مصر أعلن المماليك إحياء الخلافة العباسية زمن الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ، بعد سقوط بغداد حاضرة الخلافه العباسية وجعل مركزها مصر. وكانت الخلافة هناك وراثية وكانت سلطتهم قاصرة على الأمور الدينيـة وصار الخلفاء يعاملون مثلما كانوا يعاملون زمن البويهيين والسلاجقة.

وما أن ضعفت دولة المماليك حتى استطاع العثمانيون أن يحتلوا بلاد الشام ومصر. وبعد أن تنازل المتوكل عن الخلافة للسلطان العثماني سليم ظلت الخلافة العثمانية إلى أن ألغيت على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ م بعد أن كان خلفاؤهم يلقبون بالخلافة مع السلطنة.

النظم السياسية في الاسلام

الوزارة:-

الوزارة أسمى المناصب في الدولة بعد الرئاسة واسمها يدل على مطلق الاعانة . وهي مشتقة من الوَزَر (بفتح الواو والزاي) وهو الملجأ والمعتصم (١) .

قال تعالى : " كَلاَّ لا وَزَرَ إلى رَبِّكَ يومئذٍ المستَقَرُّ " (٢)

لأن الخليفة يلجأ الى رأي الوزير ومعونته . وقيل انها مأخوذة من الوزر (بكسر الواو) وهو الثقل لأن الوزير يزر ويحمل عن الخليفة أعباء الحكم واثقاله . ومنه قوله تعالى : " حَتَّى تَضَعَ الحَربُ أَوْزَارَهَا" (٣) أي أثقالها. أو أنها مأخوذة من الأزر وهو الظهر لأن الخليفة يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر ومنه قوله تعالى " وَاجعَل لِي وَزِيراً مِّن أهلِي هَٰرُونَ أخِي أشدُد بِهِ أزرِي وَأشرِكهُ في أمرِي " (٤)

وتظهر الحاجة الى الوزراء مما قاله تعالى عن نبيه موسى عليه السلام في الآية السابقة . فاذا جاز ذلك في النبوة . كان في الامامة أجوز. لأن ما وكل الى الامام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرته الا باستنابة ونيابة الوزير المشار له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه . وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل (٥). ولأن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا. فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه .. واذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهمته فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه الله من خلقه وعباده (٦).

---

(١) أبو العلي الفراء : الأحكام السلطانية : ص ١٣

(٢) سورة القيامة : آية ١١

(٣) سورة محمد : آية ٤

(٤) سورة طة : آية ٢٩

(٥) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص١٨

(٦) مقدمة ابن خلدون : ج٣ ، ص٢٢٦

وقيل في أصل كلمة الوزراء واشتقاقها : ان اصلها بهلوي مأخوذ من فيشيرا ومعناه الأمر والتقدير لما بين وزير و (فشير) البهلوية من الشبه والتي تعني القاضي أو الحكم . غير أن الفرق واضح بين القضاء والوزراء مما لا يجعل المرء يأذن بموافقة القائلين في اشتقاق هذا اللفظ من الأصل الفارسي القديم (١) .

نشأة الوزارة وتطورها : -

يرى بعض الباحثين أن الوزارة ظهرت في عهد الرسول لأنه صلى الله عليه وسلم كان يستعين في تصريف أمور الدولة وقضاء مصالح الناس بأصحابه . وكان أكثر ما يستعين بأبي بكر وعمر بن الخطاب وقد قال فيهما (.. وزيراي من أهل السماء جبريل وميكائيل ، ووزيراي من أهل الآرض أبو بكر وعمر) (٢)

ويرى فريق ثان بأن الوزراة ظهرت مع الخلافة فكان عمر وزير أبي بكر وعثمان وعلي وزيري عمر ، وعلي ثم مروان بن الحكم وزيري عثمان .

فقد كان أبوَ بكر يستعين بالصحابة وبعمر بن الخطاب بخاصة . فعندما خرج مع اسامة بن زيد في الجيش يوصيه ويشيعه قال لأسامة : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل. فأذن له به (٣) .

وروى أن عمر أرسل عبدالله بن مسعود الى العراق وزيرا ومعلما مع عمار ابن ياسر الذي ولاه الامارة كتب الى أهل العراق : وقدجعلت على بيت مالكم ابن مسعود وآثرتكم به على نفسي(٤). ويميل أكثر الباحثين إلى أن الوزارة لم تظهر إلا في العهد العباسي. والحقيقة أنه اذا كان الغرض من الوزارة المعاونة والمؤازرة فانها كانت موجودة في زمن

---

(١) انظر النظم الاسلامية : صبحي الصالح : ص ١٩٤

(٢) انظر : حسن ابراهيم : النظم الاسلامية: ص٩١- شحاته : نظام الحكم في الاسلام ص٥٠ .

(٣) انظر : تاريخ الطبري : ج٣ ، ص٢٢٦

(٤) الاسلام والحضارة العربية : ج٢، ص١٣١ - النظم الاسلامية/ حسن ابراهيم ص١١٣ .

الرسول (ص) حيث كان يشاور أصحابه ويفاوضهم في مهماته العامة والخاصة ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى . حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في فارس وبيزنطه والحبشة يسمون أبا بكر وزير النبي (١) .

وفي عهد الراشدين كان أبو بكر يستعين بهم . فجعل الى عمر القضاء وتوزيع الصدقات ، كما أسند الى علي الاشراف على أسرى الحرب وشؤونهم . وكان عمر أيضا يستشير الصحابة،ويخص علياً وعثمان ببعض الأمور وكذلك كان الشأن في عهد عثمان وعلي . ومع ذلك فلم يكن للمسلمين وزير متعين المرتبة للوزارة لبساطة الاسلام وبعده عن مظاهر الملك .

وفي عهد الأمويين تحولت الخلافة الى ملك يقوم على الدهاء والسياسة والحرب واقتضى ذلك من خلفائهم الحاجة الى من يستشيرونه ويستعينون به في ادارة الدولة وسياسة الرعية ومهام الأمور . فاختاروا بعض البارزين من ذوي الرأي في السياسة والحرب ليقوموا بمثل هذا الغرض ، فكانوا يؤدون مهام الوزراء وان لم يطلق عليهم هذا اللقب . وعلى الرغم من ورود لفظ وزير في بعض المناسبات واضافته الى بعض المعاونين للخليفة أحيانا (٢) فان أي عمل من أعمال المساعدة للخليفة لم يسم حتى العهد الأموي باسم الوزارة يقول المسعودي:

(وكانت ملوك بني أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة . ويقول الوزير مشتق من الوزارة والخليفة من أجل من يحتاج الى المؤازرة) .

ولم يضف لفظ الوزير الى أحد من مساعدي الخليفة في العصر الراشدي والعصر الأموي اضافة دائمة ولازمة. وانما ظهرت الوزارة في مجال أعمال الدولة الاسلامية ظهورا ثابتا في العصر العباسي. حيث تعينت مرتبة الوزير ومهدت قواعد الوزارة وتقررت قوانينها . فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد،ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ص٢٣٧

(٢) ورد ابيكر قال للأنصار في اجتماع سقيفة بني مساعدة : نحن الأمراء وانتم الوزراء. وقيل أن زياد بن أبيه كان يسمى وزير معاوية . وكذلك روح ب زنباح في عهد عبدالملك/ انظر شحاته نظم الحكم في الاسلام : ص٢٩٤

الخلفاء أتباع وحاشية فاذا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا (١) ، وانما سمي وزيرا في عهد بني العباس . وبذلك يكون المنصب الذي كان معروفا عند الأمويين الكاتب والكتابة قد تطور الى منصب الوزير والوزارة في خلافة بني العباس (٢)

ويبدو ان انشاء منصب الوزارة عند العباسيين كان نتيجة طبيعية لتطور نظام الحكم فيها . ولعله كان من جهة أخرى بتأثير من الفرس الذين قامت على أيديهم الدولة العباسية .

كان أول وزير في دولة بني العباس هو أبو سلمة الخلال استوزره السفاح من المحرم سنة ١٣٢هـ وفوض اليه الأمور وسلم اليه الدواوين ولقب وزير آل محمد (٣) . وكان فصيح اللسان عالما بالأخبار والأشعار والجدل وتفسير القرآن حاضر الحكمة كثير الخير . غير أنه لم يستمر في الوزارة أكثر من شهرين ونصف اذ قتله أبو مسلم الخراساني باشارة من السفاح عندما ظهر أنه أخذ يميل للعلويين وحاول أن ينقل اليهم الدولة .

وقد خلفه أبو الجهم ثم استوزر السفاح خالد بن برمك جد البرامكة وهو أول من اعتنق الاسلام من أهل بيته . ويقال أنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على أبي سلمة الخلال . فكان يعمل عمل الوزير ولا يسمى وزيرا .

واستوزر المنصور بعد خالد البرمكي أبا أيوب المورياني ثم نكبه وعذبه . واستوزر بعده الربيع بن يونس وكان موضع ثقة عنده وظل حتى قتله الهادي في خلافته .

---

(١) ابن طباطب : الفخري في آلآداب السلطانية : ص ١٥٣

(٢) كانت الوزارة موجودة عند المسلمين قبل العباسيين بمعناها العام وان لم تك تميزت وتقررتقواعدها وان الكلمة عربية وليست فارسية حيث وردت في معاجم اللغة وفي القرآن الكريم . واجعل لي وزيرا من أهل هارون أخي أشدد به أزرى واشركه في أمري) سورة طه : آية ٢٩ ك وفي خطاب أبي بكر في اجتماع السقيفة في قوله للأنصار (نحن الأمراء وانتم الوزراء) ولكن الكلمة في كل ما تقدم لم تستعمل في المعنى الاصطلاحي الذي نعرفه الآن من كلمة الوزير وانما هي بمعنى المؤازرة والمناصرة (انظر : ضحى الاسلام : ج٢، ص١٦٤) .

(٣) انظر : الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص٨٤ - ٨٦ .

من هذا يتبين لنا مبلغ ضعف الوزير في ذلك العصر وخطورة مركز الوزراء الذين كانوا هدفا للقتل والتعذيب اذا ما غضب عليهم الخلفاء. ويصف ابن طباطبا مركز الوزراء في عهد المنصور بقوله : (لم تكن الوزارة في أيامه طائلة الاستبداد . واستغنائه برأيه وكفاءته مع أنه كان يشاور في الأمور دائما . وانما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء . وكانوا لا يزالون على وجل منه وخوف . فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق. (١)

وفي خلافة المهدي اتسعت سلطة الوزراء وكان تعيينهم يتم غالبا تبعا لكفاءتهم الادارية والكتابية (٢). وربما كان للدسائس أثر في تعيين بعض الوزراء وعزلهم .

وفي عهد هارون الرشيد بلغ نفوذ الوزراء حدا بعيداً. فقد عين يحيى بن خالد بن برمك وزيرا وقال له :(يا أبتِ أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك . وقد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واعزل من رأيت وافرض من رأيت واسقط من رأيت فانني غير ناظر معك في شيء) ودفع اليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد في جميع شؤون الدولة .

وهكذا فوض الرشيد أموره كلها الى يحيى بن برمك الذي استعان في القيام بوزارته بولديه الفضل وجعفر (٣)

وهذا النوع من الوزارة هو ما يسمى التفويض . ونتيجة لهذا التفويض فقد زاد نفوذ البرامكة وسيطروا على مقاليد الأمور وكثر من بينهم الرؤساء وخضعت لهم الرقاب ومدحوا بما لم يمدح به خليفة (٤) .

وفي عهد المأمون أطلقت يد الوزير الفضل بن سهل في الأمور السياسية فقد فوضه المأمون بقيادة الحرب ورئاسة الشؤون الإدارية وسماه ذا الرياستين . ولكن المأمون نكبه عندما وجده خطرا عليه .

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية : ص١٧٤

(٢) المصدر نفسه ، ص١٨١، ١٨٣ (كان محمد المهدي قد جعل يحي بن خال كاتبا ووزيرا لولده هارون الرشيد . وكان الرشيد يدعو يحي : (أبة)

(٣) الجهياري : الوزراء والكتاب : ص١٧٧

(٤) انظر مقدمة ابن خلدون : ص١٥ ، ١٦ .

وعندما تسلط الأتراك في الربع الثاني من القرن الثالث الهجري ضعف مركز الوزراء وانتقلت السلطات الفعلية الى الجيش ولكن الخلفاء استعادوا سلتطهم بعد ذلك في منتصف القرن الثالث نفسه فاستعادوا قوتهم واحيطت الوزارة بكثير من مظاهر الاجلال وصار الوزراء يلعبون دورا خطيرا في تسيير دفة الحكم رغم تعرضهم لسخط الخلفاء من أجل أتفه الآمور (١) .

ومع ذلك ظلت الوزارة متأثرة باستبداد القوة العسكرية وتسلط العسكريين على مؤسسات الدولة. وبعد أن تسلم ابن رائق أمور الدولة وكلفه الخليفة الراضي بتدبير الدولة ، انضم اليه العسكريون وصاروا حزبا واحدا وحضروا بين يدي الخليفة فجعل الخليفة مرتبتهم فوق مرتبة الوزير واستبد ابن رائق بالأمور وولى النظار والعمال ورفعت المطالعات اليه ورد الحكم في جميع الأمور الى نظره ولم يبق للوزير سوى الاسم من غير حكم ولا تدبير (٢) .

وبعد أن دخل البويهيون بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م استبدوا بأمور الدولة وتعدوا، ولم يبق للخليفة حول ولا قوة وأبطلت وزارة العباسيين،وحلت محلها وزارة السلاطين البويهيين،وخص الخليفة كاتبا يدير أموره بقول المسعودي (٣) "وغلب على الأمر ابن بويه الديلمي،والمطيع في يده لا أمر له ولا نهي ولا خلافة تعرف ولا وزارة تذكر." ولا يذكر ابن الطقطقي شيئا من أمر الوزارة في عهدهم اذ سارت الوزارة من جهة البويهيين وصارت الأعمال اليهم (٤) واتخذ البويهيون لأنفسهم وزراء إلى جانب وزراء الخلفاء ومن أشهر وزرائهم أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه (٥) .

ومما يدل على سقوط هيبة الوزراء ان الأمير معز الدولة البويهي ضرب وزيره

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص٢٩٩. انظر الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٦٥ ، ٢٦٧.

(٢) الفخري في الآداب السلطانية : ص٢٨٢

(٣) مروج الذهب : ج٤، ص٢٧٢

(٤) الفخري في الآداب السلطانية : ص ٢٨٩ - ٢١٣

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج٢ ص٧ .

المهلبي مائة وخمسين مقرعة. وكذلك فعل بختيار بن معز الدولة مع ابن العميد وزير أبيه فسمل عينيه وقطع أنفه .

وقد أحدث عضد الدولة في منصب الوزارة شيئين لم يكونا مثله : أولهما أنه اتخذ وزيرين معا ، والثاني ان أحد الوزيرين وهو ابن منصور بن نصر بن هارون كان نصرانيا (١) .

وعندما استولى السلاجقة على السلطة انتعشت الخلافة فانتعشت معها الوزارة فكان الوزير يقف الى جانب الخليفة ويساعده في وجه السلاجقة محاولة منه في تقوية مركز الخليفة (٢).

وكان الخلفاء في هذه الفترة يلقبون الوزير بألقاب لا مثيل لها من قبل، مثل فخر الدولة ورئيس الرؤساء وعميد الدولة وظهير الدين وجلال الدولة، وكان كتاب الدولة يثبتون هذه الألقاب أمام أسماء الوزراء (٣) .

وفي الدولة الفاطمية لعب الوزير الدور الذي لعبه مثيله في الدولة العباسية وتعرض لما تعرض له الوزير العباسي (٤) .

وفي الأندلس أنف الأمويون أول أمرهم اسم الوزير وقسموا المهمات التي يقوم بها عادة أصنافا وأفردوا لكل صنف وزيرا،وكان يتردد بينهم وبين السلطان الأموي واحد منهم ارتفع مجلسه عن مجالسهم بمباشرة السلطات في كل وقت خصوه باسم الحاجب (٥).

ويلحظ من دراسة الوزارة في العصر العباسي أنها أوشكت أن تصبح كالخلافة وراثية في بعض العلائلات كآل الجراح وآل وهب وآل خاقان.(٦)

---

(١) أبو يعلي : الأحكام السلطانية : ص١٦- ناجي معروف : الحضارة العربية ص ٢٨

(٢) انظر الفخري في الآداب السلطانية : ص٢٩٣ ، ١٩٤، ٣١٣

(٣) المصدر نفسه : ص٣١٣

(٤) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص١٣٢

(٥) مقدمة ابن خلدون : ص١٧٩

(٦) النظم الاسلامية : صبحي الصالح : ص٣٠

صفة الوزير :

لسمو هذه الوظيفة كان الخلفاء والملوك لا يستوزرون الا الكامل من كتابها والأمين العفيف من خاصتها والناصح الصدوق من رجالها ومن تأمنه على أسرارها وأموالها وتنفق بحزمه وفضل رأية وصحة تدبيره في أمورها (١) .

وقد ذكر ابن طباطبا الصفات التي يجب أن يكون عليها الوزير فقال (الوزير وسط بين الملك ورعيته . فيجب أن يكون في طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة والأمانة ،والصدق رأس ماله قيل : اذا خان السفير بطل التدبير – وقيل ليس لكذوب رأى . والكفاءة والشهامة من مهماته والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته. ولا يستغني أن يكون مفضا لا مطعاما ليستميل بذلك الأعناق وليكون مشكورا بكل لسان . والرفق والأناة والتثبت في الأمور والحلم والوقار والتمكن ونفاذ القول مما لا بد له منه) (٢)

وقد ذكر الخليفة المأمون صفات الوزير التي طلب أن يكون عليها فقال : (اني التمست لأموري رجلا جامعا لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب واحكمته التجارب،إن أؤتمن على الأسرار قام بها وان قلد مهمات الأمور نهض فيها يسكنته الحلم. وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة. له صولة الأمراء وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء،ان أُحسن اليه شكر،وان ابتلى بالاساءة صبر،لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه) (٣) .

(١) التنبيه والاشراف : ص ٢٩٤

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ك ص ١٥٢

(٣) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ك ص١٢١-١٢٣- أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية و والفكر الاسلامي : ص٩١-٩٢ .

أنواع الوزارة :-

انقسمت الوزارة في العهد العباسي الى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

أولا: وزارة التنفيذ :

وهي التي تكون فيها مهمة الوزير قاصرة على تنفيذ ما يراه الخليفة . وعدم التصرف في أمور الدولة من تلقاء نفسه فهو واسطة بين الخليفة والرعية والولاة يؤدى عنه ما أمر به وينفذ عنه ما ذكر وبعض ما حكم ، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض على الخليفة ما يرد من مهم ويتجدد من حدث هام ليعمل فيه ما يؤمر به . فهو معين في تنفيذ وليس بوال ولا متقلد .

أما وزير التنفيذ : فهو الشخص الذي يتولى منصب وزارة التنفيذ ومهمته قاصرة على تنفيذ ما يراه الخليفة وليس له التصرف في أمور الدولة من تلقاء نفسه .

شروط وزير التنفيذ :

ويشترط في الشخص الذي يتولى وزارة التنفيذ كما يوردها أبو يعلى ما يلي :(١)

١- الأمانة : حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه ولا يغش فيما استنصح فيه .

٢- صدق اللهجة : حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل على قوله فيما ينهاه.

٣- قلة الطمع : حتى لا يرتشي فيما يلي ولا ينخدع.

٤- أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء اذ ان العداوة تمنع التعاطف وتصد عن التناصف .

٥- أن يكون ذكورا لما يؤديه الى الخليفة لأنه شاهد له وعنه .

٦- الذكاء والفطنه .

٧- أن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل .

٨- الحنكة والتجربة التي تؤدي الى صحة الرأي وصواب التدبير . ولا يجوز أن تتولى المنصب امراة وان كان خبرها مقبولا ، لما روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم)

(١) انظر الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ١٢٥ .

(ما أفلح قوم أسندوا أمرهم الى امراة) .

ولأن فيها من طلب الرأي وثبات العزم ما تضعف عنه النساء ومن الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور .

ولا يشترط الفقهاء في وزير التنفيذ ان يكون حرا . كما لا يشترط منه المعرفة بأمري الحرب والخراج . كما يجوز ان يكون من اهل الذمة (١) كما لا يشترط في تعيينه صيغة معينة للعقد وانما مجرد الأذن .

ثانياً: وزارة التفويض

وهي ان يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الأمور وامضاءها على اجتهاده دون الرجوع اليه . فيتولى الوزير كل شيء وليس بينه وبين سلطة الخليفة فرق الا في ثلاثة اشياء (٢) :

١- ولاية العهد : فان للخليفة ان يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير .

٢- للخليفة ان يعزل من قلده الوزير وليس للوزير ان يعزل من قلده الخليفة .

٣- للخليفة ان يستعفي الأمة من الإمامة وليس ذلك الوزير . ما عدا هذه فحكم التفويض اليه يقضي جواز فعله وصحة نفوذه منه .

ويفرق بين وزارة التفويض والإمامة بأمرين : اولهما يختص بالوزير وهو مطالعة الإمام لما امضاه من تدبير وانفذه من ولاية وتقليد لئلا يصير بالاستبداد كالامام . وثانيهما : يختص بالامامة : وهو ان يتصفح اعمال للوزير وتدبيره الأمور ليفرضها ما وافق الصواب،ويستدرك ما خالفه،لأن تدبير الأمة اليه موكول،وعلى اجتهاده محمول،ويمثل وزارة التفويض وزراء البرامكة وآل سهل وآل الفرات وغيرهم (٣) .

شروط وزير التفويض:

يشترط في وزير التفويض ما يشترط في الخليفة الا النسب وحده ، وهو فيه خلاف في الامامة نفسها ويزاد على شروط الامامة في وزارة التفويض ان يكون من اهل

---

(١) المصدر نفسه: ص ١٦ .

(٢) حسن ابراهيم : نظم الاسلام .

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ١٥ .

الكفاية والمعرفة فيما وكل اليه من أمر الحرب والخراج خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما فانه مباشر لهما تارة ومستنيب فيهما تارة اخرى . فلا يصل الى استبانة الكفاءة الا ان يكون منهم كما لا يقدر على المباشرة اذا قصر عنهم .(١)

وتمتد سلطات وزير التفويض الى حد يجوز معه ان يحكم بنفسه ، وان يقلد الحكام، كما يجوز ذلك للامام . لأن شروط الحكم فيه معتبرة . ويجوز ان يتولى الجهاد بنفسه وان يقلد امر الجهاد من يتولاه . لأن شروط الحرب فيه معتبرة . ويجوز ان يباشر الأمور التي دبرها وان يستنيب في تنفيذها لأن شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة .(٢)

ويشترط في وزير التفويض ان يكون مسلما حرا ذكرا . كما يشترط لتعيينه العقد للتولية . ولا يجوز ان يتولى وزيرا تفويض في آن واحد . لأنهما ربما تعارضا في العقد والحل والتقليد والعزل وقد قال تعالى :* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا *(٣) ، بينما يجوز ان يتولى وزيرا تنفيذ في وقت واحد .

الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ :

يفرق بين نظرة وزير التفويض ووزير التنفيذ بما يلي :

١- انه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم بينما لا يجوز ذلك لوزير التنفيذ .

٢- انه يجوز لوزير التفويض ان ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحرب وليس ذلك لوزير التفويض .

٣- يجوز لوزير التفويض ان يتصرف في اموال بيت المال يقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه .

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطلانية : ص ١١ .

(٣) انظر صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٣٠٢ - شحاته : نظم الحكم : ص ٥٩ .

(٣) أبي يعلي الفراء : الأحكام السلطانية : ص ١٦

الحجابة

يراد بالحاجب في الدولة الاسلامية عند نشأة تلك الوظيفة ما يراد بالتشريفاتي في العصر الحاضر . وهو الذي يتولى الاذن للناس في الدخول على الخليفة او السلطان او الأمير (١) .

والظروف هي التي انشأت منصب الحاجب . فلم يكن الخلفاء الراشدون يحجبون احدا على ابوابهم . فكانت مجالسهم مفتوحة لمن يشاء يخاطبون الفقير والغني والقوي والضعيف بلا حجاب ولا كلفة . فمدافعة ذوي الحاجات عن ابوابهم محظورة بالشريعة الاسلامية فلم يفعلوه .

فلما جاءت الدولة الأموية وانقلبت الخلافة الى الملك . كان اول شيء بدىء به شأن الباب وسده دون الجمهور،بما كانوا يخشون على انفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم،كما وقع لعلي ومعاوية وعمرو . مع ما في فتحه من ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات ، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه (الحاجب)(٢) واول من فعل ذلك معاوية بن ابي سفيان . وكان الحاجب يرتب الناس في الدخول بحسب طبقاتهم وانسابهم . فكانوا يفضلون في الدخول اهل النسب . فاذا تساوت الانساب فضلوا اهل السن . فاذا تساوت فضلوا اهل العلم والأدب . وروي ان عبد الملك بن مروان قال لحاجبه (وليتك حجابتي وعزلتك عن اربعة : هذا المنادي الى الله في الصلاة والفلاح فلا تفرجنه عني فلا سلطان لك عليه، وطارق الليل لا تحجبه فشرٌ ما جاء به ولو كان خيرا ما جاء بتلك الساعة . ورسول الثغر فان أخطأ ساعة افسد عمل سنة ، فأدخله علي وان كنت في لحافي . وصاحب الطعام فان الطعام اذا اعيد تسخينه فسد . وكان الحاجب يختار من افضل رجال في الدولة لأهمية عمله الذي يضطلع به . ولما ارسل عبد الملك بن مروان اخاه عبد العزيز اميرا على مصر اوصاه بقوله : (وانظر حاجبك فليكن من خير اهلك فانه وجهك ولسانك . ولا يقفن احدا ببابك الا انك مكانه لتكون انت الذي تأذن او ترده) .

(١) انظر : صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٣٠٦ ، حسن ابراهيم حسن : النظم الاسلامية : ص ١٣٠ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون : ص ١٩٠ – وتاريخ اليعقوبي : ج٢ ، ص ٢٧١.

ولما جاءت الدولة العباسية اقتدوا بالأمويين في مسألة الحجابة ، بل واسرفوا في منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا في الأمور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحاجب الثاني . فكان بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة والأخرى دار عامة ، ويقابل كل فئة في مكان معين . ثم تطور بعد ذلك عند انحطاط الدولة الى حاجب ثالث اشد حصانة من الأولين . ولا يكون الا عند الحجر على صاحب الدولة . وبذلك احاط الحاجب الثالث نفسه بهالة من الاجلال وقوى نفوذه وسلطانه في الدولة . ومن هنا علت مرتبة الحاجب بتعاقب الأيام حتى اضحى مستشار الخليفة في جميع الشؤون المهمة وفي مختلف اتجاهات الدولة ومرافقها الحيوية (١) .

ومن ابرز الحجاب في العصر العباسي الأول . الفضل بن الربيع الذي لعب دورا كبيرا في الايقاع بالبرامكة عند الرشيد ، كما كان له اثر هام في الأحداث بين الأمين والمأمون . وقد استطاع الأقوياء من الحجاب احتلال دور الوزراء عند الخلفاء، وكثيرا ما كانوا يستبدون بالنفوذ دون الوزراء ويلزم اصحاب الدواوين بالرجوع اليه في كل امور الدولة ويلزمهم بعرض الأعمال عليه قبل الفصل فيها ليوافق عليها .

وفي الأندلس : كانت الحجابة في ايام الأمويين لمن يحجب السلطان عن العامة والخاصة . ويكون وساطة بينه وبين الوزراء. فمن دونهم . فكانت في الأندلس : رفيعة الغاية. ولما جاء الاستبداد على الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن ابي عامر وابناؤه . وكانوا يعدون لقب الحاجب شرفا لهم . وكان أعظمهم ملكا بعد انتحال القاب الملك واسمائه لا بد له من ذكر الحاجب وذوي الوزارتين . يعنون به السيف والقلم . ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين عن جمعه لخطتي السيف والقلم (٢) .

ولهذا نرى الحاجب في الأندلس لم يقصد به ذلك الموظف الذي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة كما كان الشأن عند الأمويين بالشام والعباسيين والفاطميين وانما قصد به هنا من يتولى الوزاره بمعناها المعروف .وكأنهم الفوا اسم الوزير في مدلوله في بداية الدولة

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٣٠٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

ووزعت الأعمال بين جماعة من كبارها وافردوا لكل صنف وزيرا وافردوا للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم عن سائر الرتب .(١)

وعندما دب الضعف في الدولة الأموية في الأندلس ازداد نفوذ الحجاب لدرجة ان الخليفة لم يصبح له نفوذ معه . وأصبح الحاكم المطلق في الدولة ودعي له على المنابر ونقش اسمه على الملابس المنسوجة بالذهب كما ينسج اسم الخلفاء . كما نقش اسمه ايضا على النقود الى جانب اسم الخليفة (٢) .

أما الحجابة في مصر :فقد كان الحاجب في اول الدولة العبيدية (الفاطمية) غير معروف . ولماقويت الدولة واتسع عمرانها وحضارتها عرف منصب الحاجب الا انه قليل . وفي دولة المماليك: كانت اهم وظائف البلاط السلطاني وظيفة الحاجب . وتجاوزت مهمته الى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود وكانت درجته تلي النيابة لها في الحكم في اهل الدولة وفي العامة وعلى الاطلاق،واتسعت سلطته تدريجيا حتى صار يقضي بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام السياسة التي وضعها جنكيز خان (٣).

الكتابة :

بعد ان اتسعت الدولة وزادت مصالحها وعجز الوزير عن القيام وحده بجميع ما أوكل اليه من الصلاحيات والمهام كان لا بد من تعيين من يساعده في ادارة شؤون الدولة . ومن هنا كانت وظيفة الكتابة . واصبح الكاتب في الوقت نفسه من اكبر مساعدي الخليفة والوزير .

وتطورت الكتابة في الدولة الاسلامية . فقد اتخذ الرسول (ص) من كان يكتب له عن الوحي ومن يكتب له الى الأمراء والملوك ، مثل علي بن ابي طالب وعمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعثمان بن عفان والمغيرة بن شعبة (٤) .

(١) ابن خلدون، المقدمة : ٢٣٩ - ٣٤٢

(٢) المصدر نفسه : ص ٢٤٢ .

(٣) المقريزي : خطط المقريزي : ج٢ ، ص ٢٢١ .

(٤) صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن (بحث جمع القرآن وكتابته) . والنظم الاسلامية : ص ٣٠٤ .

وفي العهد الأموي تطورت الكتابة فصار الكتاب خمسة اصناف : كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القضاء . وكان اهمهم واكثرهم نفوذا كاتب الرسائل لأنه كان مؤتمناً على امور الدولة واسرارها وكان الأمويون لا يعينون لهذا المنصب الا من ذوي اقرباءهم او من يثقون به .

وفي العصر العباسي : حرص الخلفاء على ان يتولى هذا المنصب (كتابة الرسائل) من ينتمي الى نسب رفيع ومن اتاحت له ظروفه ان يتمتع بسعة العلم وعمق الثقافة الى جانب الدهاء والذكاء لأن مركزه يعادل مركز الوزير وكانت ملوك فارس تسمي كتاب الرسائل تراجمة الملوك (١) .

وقد وضعت الكتب التي اشتملت على فنون العلم وصنوف الأدب والمعرفة التي يحتاج اليها الكاتب مثل كتاب (ادب الكاتب) للصولي (٢) . وكتاب (صبح الأعشى)للقلقشندي والذي ضمنه كل ما رأى ان كاتب الرسائل يحتاج اليه في اداء وظيفته والقيام بصنعته في عصره (٣)

وهناك صفات كان ينصح ان يتحلى بها الكاتب والفت كتب في المعارف التي كان يحض الكتاب على الالمام بها . وقد تضمنت الرسالة التي كتبها عبد الحميد بن يحي كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية الى الكتاب كثيرا من هذه الصفات ومنها : الحلم والعفة والعدل والانصاف والأمانة وكتم الأسرار والوفاء والبعد عن السعاية والنميمة والكبر والعظمة والبعد عن المطامع والنظر في كل صنف من صنوف العلم ... والمنافسة في صنوف العلم والأدب والتفقه في الدين والعلم بكتاب الله والفرائض واجادة الخط ورواية الأشعار ومعرفة ايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها والنظر في الحساب (٤) .

وكانت مهمة كاتب الرسائل تحرير الرسائل الرسمية والسياسية داخلية وخارجية ، وهو الذي ينشر بين الناس المراسيم والقرارات والبلاغات والترتيبات الادارية . وقد كان

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٢٣ .

(٢)ابن قتيبة : ادب المكاتب : ص ظ - ١٦ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٧٤-٧٧ - محمد ضيف الله البطاينه ر: في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية : ج١ ، ص ١٤٨- ١٤٩ .

يجلس في بعض الأحيان مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوي والشكاوي ويختمها اخيرا بخاتم الخليفة (١) .

ولعل ما قاله ابن خلدون يمثل الأعمال التي كان يقوم بها اصناف الكتابة (ان اصول السلطان وتصرفاته لا تعدو اربعة : لانها اما ان تكون في امور حماية الكافة واسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحمايية والمطالبة . وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالمشرق ، ولهذا العصر بالمغرب . واما ان تكون في امور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان او في الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب.واما ان تكون في جباية المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه ان يكون بمضيعة وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية . واما ان تكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحموا عليه فيشغلوه عن مهمته . وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه وهو الحاجب)(٢) .

وقد اعتمدت الدولة الاسلامية في تصريف شؤون جهازها الاداري على فعاليات رعيتها وخبراتهم في الادارة ، مسلمين وغير مسلمين عربا وغير عرب من امثال عبد الحميد الكاتب ويحي بن خالد بن برمك والفضل والحسن ابني سهل وغيرهم الكثير ، تبتغي من ذلك احسن الوسائل لتحقيق افضل الوجوه في رعاية مصالح الناس (٣)

وكان شعارها في الادارة : لا تؤجل عمل اليوم الى الغد . وكان مما يجب في الكاتب من الصفات والخصال الا يؤخر عمل اليوم الى الغد والنصيحة لصاحبه (٤).

وقد بعث عمر بن الخطاب الى كتابه :

(ان القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم الى الغد ، فانكم ان فعلتم ذلك تراكمت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبتدون وايها تأخذون)(٥) .

---

(١)حسن ابراهيم : النظم السياسية : ص ١٢٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص

(٣) محمد بطاينه : في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية : ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) تاريخ اليعقوبي : ج٢ ، ص ٢٣٥ .

(٥) الجهشاوي : الوزراء والكتاب : ص ١٦ - محمد بطاينه: المصدر السابق ص ١٥٠ .

التنظيم الاداري : نشأته ، تطوره ، فلسفته واهدافه :-

اولا : الأمارة :

لقد وضع الرسول عليه السلام نواة النظام الاداري عندما كان يرسل الى القبائل التي دخلت في الاسلام من يعلمها احكام القرآن ويفقهها في امور الدين . وتطور التنظيم الاداري في عهده تدريجيا . فكان ينيب عنه بعض العمال والموظفين على المدن والقبائل الكبيرة في الحجاز واليمن .

وكانت وظيفة هؤلاء العمال تتلخص في الامامة في الصلاة وجمع الزكاة وجبايتها قبل ان تفصل امور الخراج . ولم يكن لهؤلاء العمال صفة سياسية وكان النبي اذا خرج للغزو اناب عنه احيانا قائدا يقود سرية من السرايا ويختار هؤلاء ممن اشتهروا بالتقوى والعلم والصلاح والتفقه في الدين . وكان او ل راتب مالي وضع للعمال والولاة والموظفين في عهد النبي ما فرضه عليه السلام لعتاب بن اسيد الذي ولاه مكة نائبا عنه . فقد خصص له درهما واحدا كل يوم (١) . فكان اول راتب وضع للعمال . اما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم ، اذا اناب احدا عنه .

وعندما تولى الخلافة ابو بكر اقر عمال النبي على اعمالهم . فجعل ابا عبيدة عامر بن الجراح على المال،واسند امر القضاء الى عمر بن الخطاب،ولعلي بن ابي طالب امر الفتوى في الحوادث والمشكلات . وكان العمال يختارون القضاة ويقلدونهم في الاقطار المختلفة التي كانوا يلون امرها وقد قسمت بلاد العرب في عهد ابي بكر الى عدة ولايات(٢) .

وبعد ان اتسعت الدولة الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب بسبب الفتوحات قسم الدولة الى اقسام ادارية كبيرة ليسهل تسيير شؤونها وادارتها وهي : ولاية الأهواز والبحرين ، وولاية سجستان ومكران وكرمان ، وولاية طبرستان ، وولاية خرسان . وجعل

(١) سيرة ابن هشام : ج٢ ، ص – تحقيق مصطفى السقا .

(٢) الولايات هي : مكه، المدينة ، الطائف ، صنعاء ، حضرموت ، خولان ، زبيد ، زفع ، نجران ، جرش ، والبحرين .

بلاد فارس ثلاث ولايات .

وقسم العراق الى قسمين : احدهما حاضرته الكوفة والثاني حاضرته البصرة ، وقسم بلاد الشام الى قسمين : احدهما حاضرته حمص والآخر حاضرته دمشق ، وجعل فلسطين قسما بذاته. وقسم افريقية الى ثلاث ولايات : مصر العليا ، مصر السفلى وغربي مصر وصحراء ليبيا .

فكان عمر بن الخطاب او ل من وضع اسس النظام الاداري للدولة الاسلامية ونظم ادارتها وبخاصة عندما ادخل نظام الدواوين بعد اتساع الدولة . فكانت سياسته تهدف الى تماسك بلاد العرب وادماجها لتكون امة واحدة هي الأمة العربية . كما كانت سياسة هذا الخليفة ترمي الى منع اختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة كي يحافظوا على قوميتهم . وقد عين عمر على هذه الولايات عمالا او ولاة كانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة . وكان امراء الأقاليم يسمون عمالا،ويفيد معنى عامل ان صاحبه ليس مطلق السلطة . ثم كلمة " والي " وهذا يدل على النفوذ والسلطان كما كانت بالنسبة للحجاج بن يوسف والى العراق زمن عبد الملك بن مروان . كذلك اطلقت عليه كلمة " امير " .

إن تطور اللفظ على ما ذكرنا يدل على السلطة الاستبدادية التي تمتع بها الولاة . وصارت كلمة " عامل " تطلق في عهد بني أمية على رئيس الناحية الادارية ولا يزال لقب عامل يستعمل في بعض البلاد العربية حتى الان. مثل الثمن والمغرب.

ووجد في كل اقليم (عامل او والي او امير) يقوم بامامة الناس في الصلاة والفصل في الخصومات وقيادة الجند في الحرب وجمع المال الى غير ذلك من الأعمال . وكان اهم هؤلاء العمال عامل الخراج الذي كان يعينه الخليفة فكان بمثابة الرقيب على أعمال الوالي . مما ادى الى وقوع النزاع بينهما .

وكان عمر يختار اولئك العمال او الوالاة من العرب لا لعصبية عنده ، ولكن لمقدرتهم على فهم الشريعة الاسلامية وتعاليمها ، لأنه كان عليهم ان يقيموا بالناس الصلاة ويحكموا بينهم بالحق ويقسموا بينهم الأموال والغنائم.(١) ولم يكن عمر بن

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٣١٠ .

الخطاب يترك عماله دون مراقبة . فكان يقتص من عماله اذا خالفوا كما كان يوصيهم بالخير وعدم الاعتداء، كما كان يوصيهم بتقى الله ، ويتحسس اخبارهم في الولايات .

ونهج عثمان منهج عمر الا ان الادارة ضعفت في النصف الثاني من عهده ، بسبب تأثره بأقاربه من بني أمية،مما ادى الى تذمر الرعية في الولايات الاسلامية فثاروا عليه واشعلوا نار الفتنة التي ادت الى مقتله . فلما ولي الخلافة علي بن ابي طالب بادر الى عزل عمال عثمان ليضع حدا للتذمر،وكان الأمير او الوالي يتخذ من المسجد مكانا للاجتماعات . فمنه تذاع الأخبار العامة للمسلمين ومن على منبره تلقى الخطب والتوجيهات والبيانات السياسية والدينية والاجتماعية(١) ولما جاء العهد الأموي بقى النظام الاداري بسيطا غير معقد فلم تكثر فيه . اختصاصات العمال،وظلوا يختارون ولاتهم من العرب او من الأسرة الأموية وازداد نفوذ الوالي في هذا العهد فكانوا يجمعون الأموال بطرقهم الخاصة دون الرجوع الى الخليفة في كثير من الأحيان ، وحتى ان سلطة بعضهم كانت مطلقة على أرواح البشر .

وفي العصر العباسي ، تقلصت سلطات الولاة . فاقتصرت على امامة الصلاة وقيادة الجيوش ، اذ كان غيرهم من الموظفين يقومون بتسيير الأمور الادارية وتنظيمها . وكان الخليفة يختار الولاة بنفسه . وكان الخليفة اذا شك في صدق عماله او عدم ولائهم يأمر بمصادرة أملاكهم كلها ، وعندما ضعفت الخلافة العباسية استقل كثير من الولاة بولاياتهم . فقامت في مصر الدويلات الطولونية والأخشيدية ، كما قامت في المشرق الدويلات الظاهرية والسامانية والصفارية وغيرها .

وقد قسم الفقهاء الامارة على البلدان الى نوعين :

١- امارة عامة ٢- امارة خاصة .

فالامارة العامة قسمت الى قسمين :

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ١٧ .

أ- امارة استكفاء :

وهي التي كانت تعقد عن اختيار . اي ان الأمير يتولاها برضى الخليفة واختياره .

ومهام صاحب امارة الاستكفاء : النظر في تدبير الجيوش ووضع الخطط الحربية . وتقليد القضاة ، وجباية الخراج ، وقبض الصدقات،واقامة الحدود،وتسيير الحجيج ، وجهاد الأعداء،وتوزيع الغنائم بين المقاتلين ، والأمامة في الجمع والجماعات،وحماية الدين والذب عن الحريم .

ب – امارة استيلاء :

وهي التي كانت تعقد عن اضطرار ، اي ان الأمير كان يأخذها كرها فيضطر الخليفة الى اقراره عليها .

وفي هذه الامارة يستبد الأمير او الوالي او العامل بالسياسة والتدبير،ولكنه يترك للخليفة وحده كل شأن يتعلق بالدين،والأمور الروحية،رعاية للرمز الديني الذي يمثله الخليفة او الامام (١) .

واما الامارة الخاصة :

فيكون صاحبها مقصور الامارة على تدبير الجيوش،وسياسة الرعية،وحماية البيضة(٢)،والذب عن الحريم،وليس له ان يتعرض للقضاء والأحكام وجباية الخراج والصدقات (٣).

وفي عهد الفاطميين :

لم يدخل على النظام الاداري في مصر تغيير يستحق الاهتمام حتى جاءت الدولة الفاطمية وادخلت عليه كثيرا من التعديل.وكان جوهر الصقلي ينوب عن الخليفة الفاطمي في ادارة شؤون مصر ، وافسح المجال امام المغاربة للالمام بالنظم الادارية التي كانت تسير عليها مصر في عهد الأخشيديين . وكان في هذا العهد عدة دواوين يرأس

(١)الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٢٨-٣٢ ابي يعلي : احكام السلطانية ص ١٧ .

(٢) البيضة : بفتح الباء وسكون الياء : المجتمع وموضع السلطان ومستقر الدعوة .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ٢٨ – وما بعدها .

كل منها موظف كبير . وكان عدد الموظفين في عهد الفاطميين كبيرا (١) .

وفي عهد المماليك :

حدثت تغيرات كبيرة في النظام الاداري ، فقد استعان الظاهر بيبرس في ادارة شؤون دولته بالأمراء المقربين اليه،واحيا وظيفة نائب السلطان،وزاد عدد الوظفين في هذا العهد مثل الأستادار والوادار والأمير جاندار وكان الأول يقوم بادارة البيوت السلطانية ويبلغ الثاني الرسائل للسلطان ومهنة الثالث الوقوف على باب السلطان واستئذانه في استقبال كبار رجال الدولة واعيانها .

وعرفت في هذا العهد وظيفة رأس نوبة الأمراء،وامير المجلس،وأمير السلاح،ووظيفة صاحب العسس،ووظيفة الولاية .

الدواوين

معنى الدواوين، نشأتها :

يقتضي الحديث عن الدواوين الاشارة الى المقصود بكلمة ديوان (٣) وهل انها عربية ام غير ذلك ، ومتى نشأت الدواوين في الدولة الاسلامية ؟ وما دواعي نشأتها ؟

ان رعاية مصالح المجتمعات وتصريف شؤون افرادها العامة والخاصة تستدعي ان تتخذ الوسيلة إلى تحقيق ذلك.وفي الدولة الاسلامية قام الرسول محمد(ص)باتخاذ ما يفي بحاجات مجتمعه ومصالح افراده . وجرى الأمر من بعده على ذلك وَجَدّتْ على الدولة ظروف جديدة بسبب الفتوح مثل: اعداد المشتركين في البعوث الى جهات القتال وكثرت الأموال، الأمر الذي ترتب عليه لزوم العطاء والنفقة، عندها أصبحت الحاجة ماسة الى اتخاذ التدابير الضرورية لمواجهة الأوضاع الجديدة ، ورعاية

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى : ج٣ ص ٤٩٠ ، ص ٢ - ٣٢ .

(٢) مع مرزبان ، وهو رئيس الفرس . ولفظ مرزبان مركب من " مرز " و " بان " اي حافظ الحدود .

(٣) الديوان : هو الدفتر الذي يكتب فيه اسماء الجيش واهل العطاء / ابن منظور لسان العرب ج١٣ ص ١٦ مادة ديوان - صادر بيروت .

ويقول الماوري : الأحكام السلطانية ص ٩١١ : الديوان (... موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال يقوم بها من الجيوش والعمال) .

مصالح الناس المستجدة . فكان لا بد لعمر بن الخطاب من استشارة رجالات الدولة ، فأشير عليه باتخاذ الديوان وكان ذلك عام ٢٠هـ(١) .

واختلف في اصل كلمة ديوان ، فقيل انه عربي : ومعناه : الاصل الذي يرجع اليه ويعمل بما فيه ومنه قول ابن عباس :

(اذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فان الشعر ديوان العرب) (٢) وقيل : انه فارسي معرب (٣) يعني : سجل او دفتر واطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي فيه الديوان .(٤).

وفي تسمية الديوان وجهان : احدهما ان كسرى زار كتاب ديوانه فوجدهم يحسبون مع انفسهم كأنهم يحادثون فقال : ديوانه،اي مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك ثم

---

(١) فتوح البلدان ص ٦٤١ مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ .

(قيل ان الدواوين اتخذت سنة ١هـ / الفخري في الأداب السلطانية ص ٨٣ -٨٤ - الطبري ج٣ص١٠- ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر : ج١ ص ١٦٠ . غير ان الرأي الأول هو الأرجح لأن الفتوحات الأسلامية لم تستكمل الا بعد سنة ١ هـ

واختلف في سبب وضع الديوان اذ قيل : ان ابا هريرة قدم بمال من البحرين بلغت عدته خمسمائة الف درهم فخطب عمر الناس وقال : قد جاءنا مال كثير فان شئتم كلناه لكم ، وان شئتم عددناه لكم عدا . فقام اليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم فدون انت لنا ديوانا . فقال عمر دونوا الدواوين ./ خطط المقريزي ج١ ص ١٦٩ / - الوزراء والكتاب ص ١٧ - فتوح البلدان ص ٦٤١ . وقيل : ان الوليد بن هشام بن المغيرة قام فقال : يا امير المؤمنين قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا وجندوا فدون ديوانا فأخذ عمر بقوله . / مقدمة ابن خلدون ، ص ٢٠٩ خطط المقريزي ج١ ص ١٦٩ - الطبري ، ج ٤ ص ٢٠٩ - ٢١٠ وقيل : ان سببه ان عمر بعث بعثا وكان عنده الهرمزان فقال : لعمر هذا بعث قد اعطيت اهله الأموال فان تخلف منهم رجل واحد بمكانه فمن اين يعلم صاحبك به . واشار عليه بالديوان وفسره له وشرحه ، فوضع عمر الديوان . / الجهيشاري : الوزراء والكتاب ص ١٧ - خطط المقريزي ج١ ، ص ١٦٩ . مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء : ج١ ، ص ٩٠ .

(٣) انظر : لسان العرب : ج١٣ ، ص ١٦ - ١٧ - مادة ديوان .

(٤) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ١٧ - صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٣١٢ .

حذفت الهاء من ديوانه للتخفيف فقيل ديوان (١) .

والثاني : ان الديوان بالفارسية اسم الشياطين ، فسمي الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شد وتفرق ثم سمي مكان جلوسهم بأسمهم فقيل ديوان(٢).

وكان عمر بن الخطاب او ل من وضع الدواوين ونظمها في الدولة الاسلامية ،ذلك بعد ان توالت الفتوح وأثرَتْ الدولة بما حصلت عليه من كنوز الفرس (٣) ، وكان مرازبة الفرس (٤) قد اشاروا عليه بأدخال نظام الدواوين ، فقد كان الديوان الذي وضعه هو ديوان الجند في المدينة ، وعلى غراره كانت دواوين في البصرة والكوفه والشام ومصر والولايات الأخرى واستخدم فيها الكتاب (٥) . وعرف هذا الديوان باسم ديوان الجيش وديوان العسكر . فكان انشاؤه لمعرفة ما يخص كلا من الجند من العطاء بعد كتابة اسمائهم وأوصافهم وانسابهم وترتيبهم ، والتجنيد لمقتضى الضرورات العسكرية وتسجيل المقاتلة في الديوان والولايات المستمرة ، من الأسباب التي كانت تستدعي اعادة النظر في التدوين . فقد جرى اعادة التدوين في العهد الأموي اربع مرات ، كان من بينها الحاق قيس بالديوان في عهد هشام بن عبد الملك ، وعلى اساس ذلك كانت الأعطيات والأرزاق للجند وعيالهم (٦) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ - مقدمة ابن خلدون : ص ٢٠٩ .

(٣) الجهيشاري : الوزراء والكتاب ص ١٦ - صبح الأعشى : ج١ ص ٩١ - الأحكام السلطانية ، ص ١٩٩ .

(٤) مرزبان : لفظ مرزبان مركب من (مرز) و (بان) اي حافظ الحدود . وهو الشجاع المقدم على القوم دون الملك .

(٥) الجهيشاري : الوزراء والكتاب : ص ١٦ - الطبري : ج٦ ص ٧٩ . كان يكتب على ديوان جند كاتب . فمثلا كان ابو جبيرة بن الضحاك الانصاري على ديوان جند الكوفة وابو طلحة على ديوان البصره .

(٦) المقريزي : خطط المقريزي : ج١ ص ١٧٣ .

وكان عمر بن الخطاب قد فرض للناس جميعا بمن فيهم الأطفال (١). ففرض للنفوس (٢) مائة درهم فاذا بلغ زاده (٣) .

هكذا كان التدوين في بداية امره . ذلك انه اتيح للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين اكثر ممن سبقهم . فلما اتسعت الدولة وزادت مرافقها احتاجت الى دواوين جديدة تنظم ادارتها وتلائم تطورها .

الدواوين في عهد الأمويين :

كانت الدواوين التي أقامها الأمويون هي :

١- ديوان الجند :

وكان على الأساس الذي وضعه عمر بن الخطاب . ذلك ان الذين تطوعوا بالفتوحات دون قيود لاسمائهم وأعطياتهم(٤)، ولا للغنائم التي يأخذونها حتى جاء عمر بن الخطاب ووضع ديوان الجند . ففيه يحتفظ بسجل يضم اسماء المقاتلة من العرب والموالي واوصافهم وانسابهم واعطياتهم وكل ما يختص بهم . (٥) وكان في الحقيقة سجل الجيش ويشبه ديوان وزارة الحربية في الوقت الحاضر . واقتضت الضرورات العسكرية - كما ذكرنا سابقا اعادة التدوين كلما دعت الحاجة . حيث جرى اعادته في العهد الأموي عدة مرات ، الى ما كان من الحاق قيس بالديوان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وعلى اساس ذلك التدوين كانت توزع الأعطيات للمقاتلين وعيالهم (٦) . ومنذ ان انشيء هذا الديوان وهو باللغة

---

(١) امر عمر بن الخطاب من ينادي بالناس : لا تعجلوا اولادكم بالفطام فانا نفرض لكل مولود في الاسلام .- الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ٢٠٢ فتوح البلدان : ٦٣٢ .

(٢) المنفوس : الطفل حين يولد : لسان العرب : ج٦ ، ص ١٣٩/ انظر مادة نفس .

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ٢٠٢ - فتوح البلدان : ص ٦٣٢ .

(٤) العطاء : يجمع على اعطية (بفتح الهمزة) وجمع الجمع اعطيات .

(٥) ابو يوسف : الخراج ص ٩٧ - الاحكام السلطانية ص ٢٠٣ .

(٦) المقريزي : خطط المقريزي ج١ ، ص ١٧٣ .

العربية (١) وظل العمل به مستمرا والحاجة اليه قائمة في عهد العباسيين .(٢)

٢- ديوان الخراج :

يعتبر احد الدواودين الهامة في الدولة . وكان يشرف على الشؤون المالية فهو عماد المال الذي هو عماد السلطان،ووظيفته جزء هام من الملك اذ الملك لا بد له من الجند والمال .(٣)

وكان الديوان يتولى تنظيم امور الخراج والنظر في مشكلاتها ،كما يتولى تسجيل ما يرد عليها وما ينفق من الأموال في الوجوه المختلفة ، من تنظيم حسابات الدولة من دخل وخرج . وفي هذا الديوان بيان بأحوال البلدان وكيفية فتحها : عنوة ام صلحا ، وما استقر عليه حكم ارضها من عشر او خراج ، كما يذكر فيه من في كل بلد من اهل الذمة وما استقر عليهم في عقد الجزية (٤) .

وتظهر اهميته من انه صار يطلق عليه اسم الديوان من غير اضافة الى لفظ الخراج - مع ان الدواوين كانت قد كثرت -. وكان اول ما دون هذا الديوان بالشام والعراق ومصر على ما كان عليه قبل الاسلام (٥) ، فكانت اللغة الفارسية هي لغة الدواوين في البصرة والكوفة وخراسان ، ومع ان هذا الديوان كان قد نقل الى العربية في عهد عبد الملك بن مروان - في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق - فإن اسحق بن طليق كان أول من نقله الى العربية في خراسان عام ١٢٤ هـ/٧٤٢م في خلافة هشام بن عبد الملك (٦) .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية : ص ٢١٤ .

(٢) الجهيشاري : الوزراء والكتاب : ص ٦٧ ، ٨٩ ، ٢٧٧ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ . روى عن ابي جعفر المنصور انه قال : ما كان احوجني الى ان يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي اعف منهم وقال : هم اركان الملك ولا يصلح الا بهم . وذكر منهم صاحب الخراج . (الطبري ، ج٨ ص ٦٧).

(٤) الأحكام السلطانية : ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) المقريزي : خطط المقريزي : ج١ ص ١٨١ .

(٦) الجهيشاري : الوزراء والكتاب ص ٣٨ - مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٩ . المقريزي : خطط المقريزي ج ١ ص١٨١ .

ويستنتج مما تذكره بعض المصادر ان ديوان الجند والخراج كان في عهد بني امية عملا واحدا (١)، يقوم به موظف يعينه ولي الأمر . وظل كذلك حتى جرى الفصل بينهما في بداية الدولة العباسية (٢).

ولما كانت هناك مشكلات جديدة طرأت في العهد الأموي فقد كان لا بد من معالجتها بروح جديدة تتلاءم والحضارة الجديدة (٣) ، فاستدعى الأمر انشاء دواوين جديدة .

٣- ديوان الخاتم :

كان معاوية بن ابي سفيان اول من اتخذ ديوان الخاتم اثر التزوير الذي وقع في احدى رسائله الى بعض ولاته(٤) ، فصارت التواقيع تصدر عنه مختومة دون ان يدري احد بما فيها ولا يستطيع ان يغير منها شيئا (٥) .

وكان يقوم بأنظمة الدولة ويعد أكبر الدواوين فيها .إذ وجد فيه عدد من الكتاب مهمتهم نسخ اوامر الخليفة وايداعها في الدواوين بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع بخاتم صاحب الديوان ، حتى يؤمن فتحها والاطلاع على ما فيها (٦) . وهو يشبه قلم " الأرشيف "

---

(١) ابن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٢٢٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣ ، ٣٦٢ ، ٤٠٨ .

(٢) تاريخ ابن خياط : ص ٤٦ .

(٣) ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ١١١ . حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٧١ .

(٤) قيل ان معاوية بن ابي سفيان احال رجلا - وأسمه عمرو بن الزبير على زياد ابن ابيه - واليه على العراق - بمائة الف درهم ، فلما مضى عمرو قرأ الكتاب وكان غير مختوم جعل المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه الى معاوية انكر عليه ذلك ، ثم استعيد المبلغ من الرجل ووضع معاوية ديوان الخاتم . (مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٧ - الطبري : ج ص ٣٣٠) .

(٥) ابن طباطبا : الفخري في الآداب السلطانية ص ١٠٧ - مقدمة ابن خلدون ٢٢٧ السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ١٨٧ .

(٦) الاحكام السلطانية : ص ٢١٧ - الفخري في الآداب السلطانية : ص١٠٧- مقدمة ابن خلدون ص٢٢٧ .

او السجلات والأضابير. واستمر العمل بهذا الديوان الى أواسط الدولة العباسية حيث ألغي لتحول الأعمال الى نظر الوزراء والسلاطين .(١)

وفي عهد هشام بن عبد الملك جعل الخاتم مع الحرس الى الربيع بن سابور مولى بني الحريش(٢). وعرف هشام ابن عبد الملك على انه شديد النظر في دواوينه مبالغا في التدقيق فيها حتى ان البعض قال : جمعت دواوين بني مروان فلم ار ديوانا اصح ولا اصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام (٣) .

وهناك عدة دواوين اخذت تتضح في العهد الأموي كان منها :-

٤- ديوان الرسائل :

وهو الدائرة التي كانت تشرف على الرسائل الواردة من الولايات او الموجهة من الخليفة الى الأمراء والعمال في الولايات والأمصار . واحيانا مع الدول الأخرى التي كانت تفاوض في الشؤون السياسية والأقتصادية (٤) . ويقول القلقشندي (٥) : (ان الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تبدأ عنه وتنشأ منه).ثم يبين انه اول ديوان وضع في الاسلام وذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يكاتب امراءَ واصحاب سرايا ،ويكتب الى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم الى الاسلام .

ويبدو من الاشارات الكثيرة الى وجود كتاب متخصصين بالرسائل منذ بداية الدولة الأموية - ان تنظيم كتابة الرسائل ووضع ديوان لها تم في عهد عبد الملك بن مروان لان

(١) الفخري في الآداب السلطانية : ص ١٠٧ .
(٢) الطبري : ج٧ ، ص ١٤٨ .
(٣) الطبري : ج٧، ص ١٤٨ .
(٤)عمر فروخ :تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية .ص٢١٣ ،حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص١٧١
(٥) صبح الأعشى في صناعة الأنشا : ج١،ص٩٠- الطبعة الأموية .القاهرة ١٩١٣ .

الطبري (١) والجهيشاري (٢) لا يذكر ان ديوان الرسائل صراحة الا عند الحديث عن عبد الملك بن مروان . وكان يكتب فيه من العرب و الموالي،فأبو الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان – وروح بن زنباع الجذامي كانا من كتابه . ووصف عبد الملك روح بن زنباع بأنه فارسي الكتابة (٣) .

ولأهمية هذا الديوان فقد كان القائ عليه ينتخب من أهل النسب ومن عظماء القبائل لعظم أمانتهم وخلوص اسرارهم (٤) .

وتعددت اختصاصات هذا الديوان مع الزمن وزاد عدد من يعملون فيه وصار له محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن. فكانت اصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو مغلفات يقال لها أضابير، توضع عليها بطاقات على محتوياتها ليسهل استخدامها والرجوع اليها (٥) .

وفي عهد هشام بن عبد الملك كان الكاتب على ديوان الرسائل سالم مولى عنبسة بن عبد الملك، وهو الذي أمره هشام بالكتابة الى يوسف بن عمر بولاية العراق بدلا من خالد القسري (٦) . وخلف سالما في هذا المنصب بشير بن ابي دلجة (٧) .

وكان الكاتب يعين على انه شخص موثوق بسيرته لئلا يخل به في ساعات عسرته واوقات شدته (٨) . ويذكر أن اللغة العربية هي اللغة التي كان معمولا بها في هذا الديوان (٩) .

(١) تاريخ الرسل والملوك : ج٦ ، ص ١٨٠ .

(٢) الوزراء والكتاب : ص ٤٠ – ٤٤ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان : ص ٣١١ – الأحكام السلطانية : ص ١٩٥ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة : ص ٢١١ – الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٣٥.

(٥) عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص ٣٦ – القاهرة ٩٦٣.

(٦) الطبري : ج٧ ص ١٤٨ – الوزراء والكتاب : ص ٦٣ .

(٧) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٦٣– (يذكره الطبري ج٧ ص ١٤٨ : بشير بن ابي ثلجة .

(٨) المرادي : الاشارة الى اداب الاماره ص ١٠٨ – تحقيق رضوان السيد / دار الطليعة بيروت ١٩٨٠.

(٩) ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ١١١ – حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ١٧١ . عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية ص ٢١٣ النظم الاسلامية / صبحي الصالح ص ٣١٤ .

وكان يضاف الى هذا الديوان ديوان السر فيطلق عليهما ديوان الرسائل والسر (١) كما عرف ديوان الرسائل باسم ديوان الانشاء (٢) في الدولة العباسية فكان ديوان الرسائل من الدواوين الجلية في الدولة ويتولاه من كان يتمتع بحظوة مقدمة عند الخليفة .

٥- ديوان المستغلة او الايرادات المتنوعة :

ويقصد بالمستغلات تلك الموارد المختلفة التي تؤول الى الدولة من املاك غير منقولة . ولعل هذا الديوان كان ينظر في هذه الاملاك من اراض وابنية وحوانيت وعمارات (٣) .

٦- ديوان الطراز :

استعمل للدلالة على ملابس الخلفاء الأمويين والولاة وكبار رجال الدولة فيها ، ثم صار يدل على المصنع والمكان الذي كانت تصنع فيه هذه المنسوجات . كما اطلق على الكتابة الرسمية التي كانت تكتب على القراطيس واوراق البردي.(٤) ولعله نشأ في عهد عبد الملك بن مروان او بعده اي حين بدأ تعريب مؤسسات الدولة (٥) . وذلك بهدف الاشراف على المعامل التي كانت تنتج الملابس الرسمية والاعلام في الحروب والشارات والشعارات في جميع الأحوال .

والطراز هو ان ترسم اسماء الملوك والسلاطين او علامات تختص بهم : في طراز اثوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج ، وتعتبر كتابة خطها في نسج الثوب لحاما وسدى بخيط الذهب على ما يحيكه الصناع في تقدير ذلك (٦) .

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ١٢٤ - خطط المقريزي : ج٣ ص ٧٢ .

(٢) انظر : محمد بن احمد الخوارزمي : مفاتيح العلوم : ص .

(٣) الجهيشاري : الوزراء والكتاب : ص ١٥٧ .

(٤) لجدة خماش : الادارة في العصر الأموي : ص ٢٨٦ .

(٥) ابن خلدون: المقدمة : ص ٢٢٨ .

(٦) ابن خلدون : المقدمة : ص ٢٢٨ .

وقد بنى الخلفاء الأمويون في دورهم معامل لنسج اثوابهم (١) ، وكان القائم عليها يسمى (صاحب الطراز) . ينظر في أمور الصياغ ويجري عليهم ارزاقهم ويشرف على اعمالهم.

ولم يبقى هذا الديوان على ما كان عليه في بداية نشأته ولكنه تطور في العهود التالية الى ان وصل أوج العظمة في عهد هشام بن عبد الملك ومن جاء بعده وفي عهد العباسيين (٢) فكان يكتب لهشام في هذا الديوان جنادة بن ابي خالد ، وظل اسمه مكتوبا على الثياب الهاشمية (٣).

٧- ديوان البريد :

كان معاوية بن ابي سفيان اول من وضع البريد (٤) لتسهيل الاتصال بين الخليفة والعمال وايصال الأخبار بسرعة(٥) خاصة وان الدولة قد اتسعت رقعتها وابتعدت عن العاصمة واطرافها . وقد استعين في انشائه بخبرة الفرس والروم(٦) ويعتبر عبد الملك بن مروان بحق الخليفة الذي اعاد تنظيمه .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٢٨ .

(٢) الوزراء والكتاب : ص ٦٠ .

(٣) البريد : هو ان يجعل خيل مضمرات في عدة اماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا. وكذلك يفعل في المكان الاخر والاخر حتى يصل بسرعة. الفخري في الآداب السلطانية : ص ١٠٦ .

وقيل في أصل لفظ البريد انه فارسي وهو بريده دم ، وقيل بريده ذنب . اي مقصوص الذنب لأن الفرس كانوا يقصون اذناب البغال التي يقيمونها في البريد ليكون علامه . وعربت الكلمة وخففت وسميت دابة البريد ، البغل او غيره بريدا . والرسول الذي يركبها بريدا والمسافة بين المحطتين بريدا وهي مقدرة باثنى عشر ميلا (صبح الأعشى : ج١٤ ص ٣٦٨) . وقيل ان لفظ البريد عربي مشتق من بردت الحديد اذا ارسلت ما يخرج منه وقيل من برد اذا ثبت لأنه بما تستقر عليه الأخبار .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ١٧٨ - الفخري في الآداب السلطانية : ص ١٠٦ .

(٥) الفخري في الآداب السلطانية : ص ١٠٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج٤ ص ٢١١ .

واستخدمه الوليد بن عبد الملك لنقل الفسيفساء من القسطنطينية الى دمشق وظل في عهد هشام وغيره اداة لتنظيم الاتصالات وضروب التنقل وآلاته بين العاصمة واجزاء الدولة .

وكان تقدير الخلفاء لأمور البريد وخطورته كبيرا اذ اصبح في هذا العهد والعهود اللاحقة اشبه ما يكون بجهاز المخابرات في ايامنا .

والبريد ولاية عظيمة الخطر، وصاحبه بمنزلة العيون المبصرة والآذان السامعة لولاة الأمر ، ولذلك وجب ان يكون امينا عاقلا ناصحا صادقا حتى تكون اخباره صحيحة ونافعة .

ومما يجب على صاحب البريد ان يتتبع احوال عمال الخراج والضياع فيما يجرونه، وان يعرف حال عمارة البلاد وان يعرف ما عليه الحكام وان يكون على علم بدار الضرب وان لا يغفل عن اخبار القضاة وعمال الوزراء وغير ذلك من المكاتبات ، ليجري كل كتاب في موضعه.(١) واضافة الى ما ورد من المهام التي كانت تناط بصاحب البريد فانه كان يقوم بنقل رسائل الناس الى ولاة الأمر .(٢)

وهناك دواوين اخرى عرفت في هذا العهد منها :

٨- ديوان الصدقات :

وكان يقوم بالنظر فيما هو مستحق في اموال المسلمين كالزرع والثمار والمواشي والذهب والفضة وعروض التجارة ، وينفق الزكاة في الأوجه التي حددها القرآن (٣) ، واسمه مأخوذ من غايته . ويقى هذا الديوان في العهد الأموي والعباسي دون ان يطرأ تغيير كبير على مهامه . ولم يكن صاحب ديوان الصدقات في غنى عن ان يكون نبيها عارفا بما أوجب الله على عباده في اموالهم من الزكاة وكيفية وجوبها ومقدارها وطريقة

(١) ادم متز : الحضارة الاسلامية : ص ١٥٢ .

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ٥٦ .

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية : ص ١١٣- ١٢٥- الوزراء والكتاب ص ٦٠ .

الحسن بن عبد الله : اثار الأول في ترتيب الدول : ص ٧٣ .

توزيعهـــا (١) وكان هشام بن عبد الملك قد قلد اسحق بن قبيصة بن ذؤيب هذا الديوان ، كما قلده ايضا ضياعه في الأردن واسمه مكتوب على احد قصور عكا بما أجرى.

٩- ديوان النفقات :

وكانت مهمته الرئيسية في عهد الأمويين النظر في مصروفات الدولة ، وهي الوظيفة التي من اجلها انشىء هذا الديوان من قبل والمتمثلة في صرف ما ينفق على تسليح الجيش ورواتبه والبسته ، والادارة المركزية التي توزع مرافق الدولة على الدوائر المختلفة (٢) . فقد كان عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر يكتب للخليفة سليمان بن عبد الملك على النفقات وبيوت المال والخزائن والرقيق (٣) . واستمر العمل بالديوان بعد ذلك طوال العهد الأموي والعباسي مما يشير الى أنه كان يتصل في عمله ببيت المال اتصالا وثيقا .

١٠ - ديوان بيت المال :

ومهمته ان يثبت في سجلاته جميع اصول الأموال على اختلاف فئاتها من غنائم واخماس واعشار،ويسجل ما يجبى من ذلك ، ويجعل على الأموال دواوين وعمال،فكان ديوان الخزانة للأموال والقماش ، وديوان الاهراء للغلال وديوان خزائن السلاح للذخائر والأسلحة(٤) .

وكان صاحب ديوان النفقات يباشر ديوان بيت المال ليكون عنده التواقيع الدالة على حقيقة النفقات (٥)

---

(١) محمد بطاينه : تاريخ الحضارة الاسلامية : ج١ ،ص ١٤٩، ط١/دار الفرقان. عمان (الوزراء والكتاب ص ١٠) .

(٢) عمر فروخ : تاريخ صدر الاسلام : ص ٢١٤- صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٣١٤ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخ خليفة بن خياط : ص ٣١٩ .

(٤) الحسين بن عبد الله : اثار الأو ل في ترتيب الدول : ص ٧٤ .

(٥) المصدر نفسه : ص ٧٥ .

وديوان بيت المال عرف بالديوان السامي ، وهو اجل الدواوين ومرجعها اليه،وظل كذلك طوال العهد الأموي الذي يشكل عهد هشام فترة منه،ويبدو انه لم يجر عليه كبير تبديل في هذا العهد . وفي العصور التي تلت عهد الأموين استمرت مهامه على ما كانت عليه ، فكانت لصاحبه علامة على الكتب والصكاك ومن واجباته ان يقدم في اخر كل شهر ونهاية كل عام حسابا (١) .

وعرف آنذاك ديوان الزمام الذي اتخذ من اجل متابعة سير العمل في الدواوين وضبطها وتنظيمها . ومع انه عرف عن زياد بن ابيه انه اول من اتخذه من العرب،(٢) الا ان ظهوره واستمرار العمل به كان قد اشتهر في عصر بني العباس (٣) وما انشاء ديوان الأحباس في مصر في عهد هشام بن عبد الملك الا اشارة الى انه من الدواوين التي سادت في جهات مختلفة من الدولة الأموية .

تعريب الدواوين :

في عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) ارتقى نظام الدواوين ، وكان من سياسته عدم استعمال اللغتين اليونانية والفارسية في الدواوين ، والغاء السكة الرومية ، ولا سيما عندما استعرت نار العداء بين عبد الملك بن مروان وقسطنطين الرابع وجستنيان الثاني . وكانت السجلات في اوائل عهده تكتب باليونانية في الشام وبالفارسية في فارس ، فأمر بتعريبها .

وكان لتعريب الدواوين اثر كبير من الناحيتين السياسية والأدبية ، فقد اصبحت لغة الدواوين هي اللغة العربية وقد ساعد ذلك على تقلص نفوذ اهل الذمة بعد ان انتقلت مناصبهم الى ايدي المسلمين العرب . اما من الناحية الأدبية فقد اصبحت اللغة العربية لغة التدوين . فنقل اليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية ، واخذت طبقة

(١) كان يطلق على الحساب المقدم في اخر كل شهر الختمة وما يقدم في نهاية كل سنة : ختمة جامعة . الخوارزمي : مفاتيح العلوم : ص ٣٧ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان : ص ٦٥ .

(٣) الطبري : ج٨ ، ص ١٤٢ .

الكتاب تظهر منذ ذلك الحين .

وقد سار عبد الملك على سياسته في تعريب الدواوين ، فلما ولى الحجاج ابن يوسف الثقفي بلاد العراق نقل دواوينها من الفارسية الى العربية .

ويقول الجهشياري في كتابه الوزراء والكتاب انه لم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان : احدهما بالعربية لاحصاء الناس واعطياتهم ، كما رسمه عمر ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك ، احدهما بالرومية ، والآخر بالعربية ، فجرى الأمر على ذلك في عهد عبد الملك بن مروان .

اما في مصر فكانت اللغتان اليونانية والعربية مستعملتين في دواوين الحكومة ، الأولى على انها اللغة الرسمية التي كانت تدون بها الأعمال في تلك الدواوين ، والثانية لأنها لغة الحاكم العربي . فقد لوحظ في بعض الأوراق البردية التي عثر عليها الباحثون كتابات باللغة القبطية في أسفل الصحف او في ظهرها الى جانب اللغتين اليونانية والعربية مما يدلنا عى انها كانت في الدرجة الثالثة من الأهمية .

وكان ديوان الخراج يكتب بالفارسية والرومية الى عهد عبد الملك بن مروان ، فعرب عبد الملك هذا الديوان ، وقد ظلت الدواوين تدون باليونانية في مصر الى ان انتقلت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ، فسار على سياسة ابيــه في تعريب الدواوين ، فحول ديوان خراجها الى العربية ، وقام بتنفيذ هذه السياسة واليه على مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان سنة ٨٧هـ.

اصلاح السكة :

ولما استقرت الآمور لعبد الملك بن مروان اعلن الحرب على الروم ، والغى الصلح الذي عقده مع امبراطورهم . وكان يدفع اليه الف دينار في كل اسبوع ، فقرر عبد الملك سك عملة عربية اسلامية بدلا من العملة الأجنبية ، وبنى دارا لضرب النقود في دمشق ، وامر بسحب العملة المستعملة في جميع انحاء الدولة الاسلامية وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة نقشت عليها بعض الآيات القرآنية .

وكان العرب الى ذلك الوقت يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية . فلما

رأى الروم ان الأموال التي تؤدي اليهم قد كتبت عليها بعض الآيات القرآنية اعتبروا ذلك اهانة لهم ، لعدول العرب عن عملتهم من جهة ، وكتابة عبارات اسلامية على العملة التي يؤديها العرب اليهم من جهة اخرى ، مما ادى الى وقوع الحرب بينهم وبين العرب .

الدواوين في العصر العباسي : واهم الدواوين في العصر العباسي :-

كثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها في العصر العباسي بعد ان استعان العباسيون بخبرة الفرس . ومع ان العباسيين احتفظوا ببعض تنظيمات الأمويين في الدواوين الا انهم استكملوا ما كان ينقصها حتى انها كانت تعادل افضل النظم الحديثة .

وأهم الدواوين في العصر العباسي : ١- ديوان الخراج وديوان الدية وديوان الزمام وديوان الجند وديوان الموالي والغلمان، وكانت تسجل فيه أسماء موالي الخليفة وعبيده . وديوان البريد وديوان زمام النفقات، وديوان الرسائل ، وديوان النظر في المظالم الذي انشىء في عهد المهدي . وديوان الأحداث والشرطة،وديوان العطاء،كما كانت هناك ادارة خاصة للمحافظة على مصالح غير المسلمين ويدعى رئيسها كاتب الجهباز .

ومن الدواوين التي انشئت في عهد المنصور ديوان المصادرات وذلك لحفظ اسماء من صودرت اموالهم .

وفي عهد المهدي انشىء دواوين الأزمة التي كانت عبارة عن دواوين او دوائر تشرف على اعمال الدواوين الكبيرة حتى كأنها دواوين محاسبة .

كما أنشئ في عهد المهدي ايضا ديوان زمام الأزمة ينتظم في آن واحد جميع دواوين الأزمة .

وابرز الدواوين في عصر الرشيد كان ديوان الصوافي وهي الأراضي التي تملكها الخزينة الرسمية . وعرف في الصر العباسي ديوان الاستخراج والذي هو عبارة عن دائرة رسمية تسعى الى تتبع اخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالرشوة

لمعرفة اسمائهم وتحديد اوضاعهم ثم مصادرة اموالهم بأمر من الخليفة. وظهر في هذا العصرديوان الخاصة : وهو الذي كان ينظر فياموال الخليفة وأملاكه المكتوبة باسمه الراجعة اليه والى ورثته (١) .

والى جانب هذه الدواوين الرئيسية للدولة دواوين اخرى مثل ديوان المنح العباسي . وكانت مهمته جمع ضرائب بلاد العراق اغنى اقاليم الدولة العباسية وتقديم حساب للضرائب في الأقاليم الأخرى .

ويقصد بديوان الأزمة او الزمام ان الدواوين تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان فيتخذ دواوين الأزمة ويعين رجلا على كل منها،وأنشا العباسيون ديوانا سمي ديوان النظر او المكاتبات والمراجعات ويضم : ديوان الجيش وفيه الاثبات والعطاء وديوان الأعمال ومهمته الرسوم والحقوق . وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل . وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج (٢) .

كانت هذه اشهر الدواوين التي عرفت في الدولة الاسلامية ولتعدد مهامها وخطورة وظائفها كان لا بد لها من موظفين يقومون عليها لذلك اوكلت وظائفها الى فئة من الناس اطلق عليهم اسم الكتاب وانيط النظر فيه إلى شخص اطلق عليه صاحب الديوان ، يكون مسؤولا امام الوالي في الولايات وامام الخليفة في العاصمة وبقى الأمر كذلك الى ان وجدت الوزارة وانيطت بالوزير مهمة النظر فيها .

كان يشترط في الكاتب ان يكون متصفا بصفات حميدة : كالحلم والعفة والفقه والعدل والانصاف والأمانة والوفاء ومجانبة النميمة والتواضع والبعد عن المطامع والالمام بالأمور المختلفة (٣) .

كما كانت هناك مؤهلات خاصة بفئة من الكتاب دون الأخرى . فكان لا بد لصاحب ديوان الجيش – مثلا – من معرفة بغرض الرجال ، والمام بوسائل القتال من دواب وسلاح ، ولا غنى لصاحب ديوان النفقات من الالمام بالحساب والمكاييل والأوزان والأسعار وغيرها ،

---

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ١٥٦ – ١٥٨ .

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ١٧٧ .

(٣) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ٧٤ – ٧٧ .

ولا مناص لصاحب ديوان الصدقات من الفقه والمعرفة بما اوجب الله على عباده من اموالهم(١) .

وخصصت للعاملين في الدواوين رواتب معينة . فكان مقدار ما يصرف للرؤساء من الكتاب والعمال في تلك الدواوين طوال العهد الأموي ثلاثمائة درهم (٢) فلما كان عهد المأمون العباسي - زيدت الرواتب لأن الدولة اعتمدت على فعاليات رعاياها وخبراتهم في الادارة بهدف تحقيق انجح السبل في رعاية المصالح العامة وهو ما يجب على الكاتب ان يلتزم به(٣) اذا ما اريد ان تتطور مؤسسات الدولة نحو الأفضل وهذا ما كان الخليفة هشام بن عبد الملك قد ركز عليه حتى اعتبر مثالاً

البريد :

اختلف في لفظ البريد فذهب قوم الى انه عربي ، وقيل انه فارسي معرب وانه مشتق من برد او ابرد بمعنى ارسل كما في قولك بردت الحديد اذا ارسلت منه ما يخرج منه(٤) .

وقيل من برد بمعنى ثبت يقال :" اليوم يوم بارد (سمومه) اي ثابت وذهب اخرون الى انه فارسي معرب وان اصله بالفارسية (بريده دم) اي مقصوص الذنب لأن الفرس كانوا يقصون اذناب بغال البريد تمييزا لها عن غيرها من الدواب الأخرى (٥) . وكان يطلق البريد على الرسول تجاوزا .

وكانوا يضعون البريد في اماكن معينة لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار(٦) والبريد في الاصطلاح : هو ان يجعل خيل ضمرات في عدة اماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا . فاذا وصل الى المكان

(١) آثار الأول في ترتيب الدول : ص ٦٧ - ٧٣ .

(٢) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص ١٣٢ .

(٣) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي : ج٢ ، ص ٢٣ .

(٤) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ٢١٠ .

(٥) صبحي الأعشى : ج١٤ ، ص ٢٧١ .

(٦) ابن طباطب : الفخري في الآداب السلطانية : ص ١٠١ - ١٠٢ .

الآخر ركب غيره فرسا . وهكذا حتى يصل البريد الى المكان المقصود بسرعة وربما اضطروا الى أخذ الدواب بالسخرة اذ لم تتوافر .(١).

واما معناه اللغوي : فهو مسافة معلومة مقدرة بأثني عشر ميلا (٢).

وكان اول من ادخل نظام البريد في الاسلام معاوية بن ابي سفيان الذي اقتبسه من الروم اثناء حكمهم في الشام . ثم ادخل عبد الملك بن مروان تحسينات على نظام البريد واعطاه طابعه النهائي وامسى اداة هامة في ادارة شؤون الدولة وصار يدعى عند العرب : جناح المسلمين " (٣) .

وكان للبريد ديوان كبير في بغداد مزود بمحطات على طول الطريق نظرا لاتساعها في ذلك العهد . وكانت مهمة صاحب البريد اول الأمر توصيل الأخبار الى الخليفة من عماله في الأقاليم وبالعكس،ثم توسعوا فيه حتى صار صاحبه عينا للخليفة ينقل اخباره الى ولاته وبالعكس ايضا .

وكان صاحب البريد يستطلع اخبار الأعداء ويشبه هذا النظام قلم المخابرات في الوقت الحاضر .

وكان عامل البريد يكتب الى الخليفة اخبار الوالي مع الرعية وحالة المعاش فيها وامور الخراج والأسعار ويجمع الرسائل وينظمها ثم يقدمها الى الخليفة او الوزير (٤) .

واهتم العباسيون بهذا النظام كثيرا واعتمدوا عليه في ادارة شؤون دولتهم وكان ابو جعفر المنصور يقول " ما أحوجني الى ان يكون على بابي اربعة نفر لا يكون على بابي اعف منهم فقيل له يا امير المؤمنين من هم قال : هم اركان الملك لا يصلح الا بهم ، كما ان السرير لا يصلح الا بأربعة قوائم ان نقصت واحدة وهيٰ (سقط) اما احدهم : فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غنى والرابع ... ثم عض على اصبعه

(١) قدره الفقهاء وعلماء المماليك بأربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة اميال .

(٢) صبحي الأعشى : ج١٤ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٣) صبحي الأعشى : ج١٤ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) المدخل في تاريخ الحضارة العربية : ص ٣٧ .

السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة : آه آه . قيل له ومن هو يا امير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب اليَّ بخبر هؤلاء على الصحة"(١). ومن مظاهر اهتمامه بالبريد وعنايته به انه كانت تأتيه الولايات مرتين في اليوم في الصباح والمساء . فأمكنه ذلك من الاطلاع عى احوال الدولة .

ويظهر ان نظام البريد بلغ درجة من الاتقان في مصر في عهد المماليك اذ عرفوا البريد الجوي في عصر بيبرس. واستخدموا حمام الزاجل ونظموا البريد البري في شبكة من الخطوط . وكان لحمام الزاجل ابراج بقلعة الجبل (٢).

ويلغ البريد مبلغا كبيرا من الدقة والسرعة في عهد بني بويه حتى كانت الدولة تنقل البريد في اثناء الحرب بالجمازات (٣) .

ومن وسائل نقل البريد : الدواب ، الحمام الزاجل ، النار ، وقد استعملت كوسيلة من وسائل المراسلة في القرن الثالث الهجري (٤) على الساحل الافريقي الشمالي .

ومن وسائل البريد السعاة والسفن البحرية والنهرية .

وكان الايجاز من اهم مميزات الرسائل التي ينقلها حمام الزاجل . فكانت تكتب بايجاز على غرار البرقيات في الوقت الحاضر . وتربط تحت جناح الحمامة او الى ذيلها وتطلق الحمامة وبعد ساعتين من الاطلاق تطلق حمامة ثانية بنسخة من نفس الرسالة وذلك حفاظا على سلامة وصولها خوفا من تعرض الأولى للضلال والضياع .

الشرطة :

هم الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة او الوالي او السلطان في حفظ الأمن والنظام والقبض على الجناة والمفسدين وما الى ذلك من الأعمال الادارية التي تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم وقد سموا بذلك لأنهم اشرطوا انفسهم بعلامات خاصة يعرفون بها .

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص ٢١٢ .
(٢) النجوم الزاهرة : ج٦ ، ص ٥٤ .
(٣) انظر تاج العروس : وهي المحامل التي تشبه العربات التي تجرها الخيل السريعة.
(٤) عريب : صلة تاريخ الطبري : ج١٢ ، ص ٢٨ .

وكان عمر بن الخطاب اول من ادخل نظام العسس في الليل . ثم نظمت الشرطة في عهد علي بن ابي طالب وسمي رئيسها صاحب الشرطة (١) .

وكان اختياره يتم من كبار رجال القوم ومــن اهل العصبية والقوة . وكان الغرض من وضعها في بداية الأمر مساعدة القاضي في اثبات التهم ومساعدة الحكومة على تنفيذ الأحكام (٢) . وكان صاحبها يتولى اقامة الحدود ولكنها لم تلبث ان انفصلت عن القضاء واشتغل صاحبها بالنظر في الجرائم ، وقد ادخل هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ) نظام الأحداث وكان صاحبه يقوم بالأعمال العسكرية التي تعتبر وسطا بين اعمال صاحب الشرطة والقائد العسكري .(٣)

وكان لهذه الشرطة مكانة رفيعة وعظمت اهميتها في دولة بني امية في الأندلس . وانقسمت الى قسمين شرطة كبرى وشرطة صغرى فكان لصاحب الشرطة الكبرى الحكم على الخاصة من ذوي النفوذ والجاه . واختص صاحب الشرطة الصغرى بالحكم على العامة (٤).

وكان صاحب الشرطة في مصر ينوب عن الأمير في الفسطاط اذا غاب عنها وكان يصلي بالناس اذا غاب الأمير او الوالي . وكان يتولى اعطيات الجند وغيرها من الأعمال وانقسمت الشرطة في مصر الى قسمين :

الشرطة السفلى ومقرها الفسطاط والشرطة العليا ومقرها العسكر .

وكثيرا ما كانت الشرطة والحسبة تسند الى رجل واحد مما يدل على خطورة مركز صاحب الشرطة في الدولة الفاطمية . وكان ينوب عن صاحب الشرطة موظفون يعملون على حفظ النظام واستتباب الأمن في الأقاليم ، ويساعده القاضي وعامل المدينة .

وكانت وظيفة الولاية في عصر المماليك تقابل الشرطة، مهمة صاحبها حفظ النظام وتتبع الجناة وما يتعلق بما يكفل سلامة الجمهور.

وكان يقوم بأعمال هذه الوظيفة ثلاثة أمراء يتولى أحدهم المحافظة على الأمن في القاهرة .

(١) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ، ص ٢١٧ .

(٢) تاريخ الحضارة العربية : ص ٤٠ .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٢١٨ .

(٤) مقدمة ابن خلدون : ص ٢١٩ .

ويعهد الى الثاني مثل هذا العمل في الفسطاط اما الثالث فكان يلي شؤون المقابر . وما يتعلق بحفظ النظام في الجنائز ومواكبها وحراسة القبور من عبث اللصوص .

وكان يطلق على صاحب الشرطة لقب (صاحب الليل) أو صاحب المدينة لأنه يحفظ النظام.

القضاء :

تمهيد :يراد بالقضاء الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للتنازع ويتم الفصل فيه بالأحكام الشرعية المتلقاه من الكتاب والسنة.وهو منصب قديم يرجع الى ما قبل الاسلام لان الانسان لم يستغن عمن يفصل في قضاياه من اول زمن وجوده ، وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبراءها وهم ايضا حكامها وامراؤها ، وكذلك كان العرب في جاهليتهم يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم ، واشتهر من هؤلاء جماعة يحكم كل منهم في قبيلته فمن تميم : حاجب بن زرارة والأقرع بن حابس ومن ثقيف : غيلان بن مسلمة، ومن قريش : هاشم بن عبد مناف، وابنه عبد المطلب، وابو طالب وابنه، والعاصي بن وائل ، ومن اسد ربيعة بن جدار ، ومن كنانة : سلمى بن نوفل ، وغير هؤلاء مثل أكثم بن صيفي وعامر بن الظرب . وكان العرب احيانا يتقاضون الى الكهان والعرافين . على ان هؤلاء جميعا لا يمكن ان نعتبرهم قضاة بالمعنى المألوف لدينا عن القضاء ، فقد كانوا محكمين اكثر منهم قضاة . والقضاء يمتاز عن التحكيم بصفات منها :

١- ان القاضي موظف مخصوص اقامته الدولة للقضاء بين الناس وليس له ان يرفض النظر في خصوماتهم . اما الحكم فهو فرد من الشعب ليست له صفة رسمية تحمل الناس اليه لحل مشاكلهم ، فان شاء نظر فيها وان شاء أبى .

٢- ان صاحب الحق او المدعي متى رفع دعواه الى القاضي اصبح المدعى عليه ملزما بمخاصمته والحضور الى مجلس القاضي فان لم يفعل حكم القاضي غيابيا .

اما في حالة التحكيم فلا يستطيع احد الخصمين ان يلزم خصمه الآخر بالخصومة والحضور الى مجلس الحكم . ولا عبرة بالتحكيم الا اذا تراضى الفريقان على الخضوع

له .

٣- قضاء القاضي ملزم للخصمين فاذا انكره احدهما اكرهته الدولة على تنفيذه بالقوة اما حكم المحكمين فلا ينفذ الا بتراضي الخصمين . ومصداق هذا ان بعض حكام الجاهلية ما كانوا يقبلون بالحكم بين المتخاصمين الا بعد ان يأخذوا منهماموثقا بأنهما سوف ينفذان حكمهما .

القضاء في عهد الرسول :

لم يعرف الاسلام مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية او الدينية، كما لم يعرف المبدأ الذي يقضي بالفصل الأساسي بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية .

وعلى هذا فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكما سياسيا ودينيا كما كان للشريعة مبلغا وللحرب قائدا وللحكم بين الناس قاضيا ." فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجرّ بينهم ثم لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما" ولم يكن للمسلمين في حياته صلى الله عليه وسلم قاض سواه فهو قاضيهم الأعلى ، يحكم بينهم بما انزل الله . فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواء هم عما جاءك من الحق .

فان لم يجد في كتاب الله ولم ينزل عليه وحي في القضية اجتهد برأيه كما ارتضاه اكثر الأصوليين . واتفقوا على انه (ص) لا يقر على خطأ ، فما اجتهد فيه واقر عليه كان حجة . وكان يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ولهذا حذر المتخاصمين من ان يأخذ بعضهم شيئا ليس من حقه . قال صلى الله عليه وسلم : انكم تختصمون اليّ ، ولعل بعضكم ان يكون الحن بحجته من بعض فاقضى له على نحو ما اسمع ، فمن قضيت له بحق اخيه فلا يأخذ منه شيئا ، فانما اقضي له قطعة من نار . ولم يُؤثر عنه (ص) انه عين في بلد من البلدان رجلا اختص بالقضاء بين المسلمين ، بل كان يعهد بذلك الى بعض الولاة ضمن ولايتهم ، وتارة يعهد الى احد اصحابه بفض الخصومات ولما بعث معاذ بن جبل الى اليمن قال له : بم تقضي ان عرض لك قضاء ؟ قال : اقضي بما في كتاب الله . قال فان لم يكن في كتاب الله . قال : اقضي بما قضى به الرسول قال معاذ فضرب صدره

وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى الله . وقد اشتهر بالفتيا من الصحابة في عهد الرسول مائة وواحد وثلاثون رجلا وامرأة نبغ منهم سبعة هم : عمر بن الخطاب ، وعلى بن ابي طالب ، والسيدة عائشة ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن حارثة، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس (١)

ولم يكن رسول الله يقلد القضاء لأحد طلبه ، ولا سيما اذا كان ضعيفا لا يقدر على اقامة الحق ، فقد قال لأبي بردة بن ابي موسى الأشعري ورجلين من بني عمه :" انا والله لا نولي هذا العمل احدا سأله .وقال لابى ذر الغفاري يوم سأله ان يستعمله يا أبا ذر انك ضعيف وانها امانة ، وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها ، وادى الذي عليه فيها . وقال : من ابتغى القضاء وسأل فيه الشفعاء وكل الى نفسه ، ومن اكره عليه انزل ملك يسدده .

وكانت طرق الاثبات : البينة واليمين والاقرار والكتابة والفراسة والقرعة وغيرها وكان(ص) لا يحابي في حكمه فقد اثر عنه انه قال " " اذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضى حتى تسمع كلام الأخر كما سمعت من الأول فانه احرى ان يتبين لك القضاء .

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين :

لما تولى ابو بكر الخلافة كانت تعرض عليه معضلات المسائل ليقضي فيها ، فكان يستشير كبار الصحابة فيما لم يرد فيه كتاب ولا سنة ، ولم يؤثر عنه انه عين قاضيا في ناحية من النواحي ، وروى انه لما كثر عليه شئون الأمة عهد بالمسائل القضائية الى عمر من غير ان يلقبه القاضي .

فلما تولى عمر وفتحت الفتوح، عين القضاة في الأمصار، وكان بجانب القاضي جملة من الصحابة والتابعين في كل مصر ، عرفوا عادات المصر الذي نزلوا به ونوع معيشتهم وحالتهم الأقتصادية والاجتماعية ، وكان لهم علم بالقرآن وجملة صالحة من الحديث وراى يحكمونه فيما ليس فيه نص ، فكان هؤلاء يستفتون فيما يعرض لهم ، فيفتون ، وعدت

(١) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص ٢٧،النظم الاسلامية نشأتها وتطورها لصبحي الصالح ص ٣١٩.

هذه الفتاوي سوابق قضائية تراعى اذا حدث مثلها .

فكان عمر اول خليفة عين قضاه في الولايات الاسلامية - مستقلين عن الامراء . فعين ابا الدرداء معه في المدينة ، وقيس بن ابي العاص السهمي بمصر ، وشريح بن الحرث الكندي بالكوفة ، وكان كبار التابعين ، وقد اقام قاضيا بها ٧٥ سنة ولم يتعطل فيها الا ثلاث سنوات في فتنة ابن الزبير ولما اجتمع الناس على عبد الملك - عندما قتل مصعب بن عمير - اعاد شريحا ثم قدم الحجاج فأقرة على القضاء ، ثم استعفاه فأُعفاه . وتوفي سنة ٨٧هـ(١) كما ولى ابا موسى الأشعري قضاء البصرة . وقد سن عمر لهؤلاء القضاة قانونا يسيرون على هديه في الأحكام فأرسل كتبا الى بعضهم (٢) ومن اشهرها الكتاب الذي بعث به الى ابي موسى الأشعري الذي اتخذه جمهور من المسلمين اساسا لنظمهم القضائية . وهذا نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر امير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك اما بعد،فان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة فافهم اذا ادلي اليك وانفذ اذا تبين لك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له آس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر ، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا احل حراما او حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالآس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحقْ ، فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج (٣) في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الاشباه والأمثال وقس الأمور بنظائرها . واعمد الى اقربها الى الله واشبهها بالحقْ واجعل للمدعي حقا غائبا او بينة

(١) تاريخ ابن خياط ج١ ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٤ (مطبعة الأداب بالنجف الاشراف ١٣٨٦هـ- ١٩٦٧م) وفي ص ٢١٧ انه ضم اليه قضاء البصره في ولاية زياد ومن هنا قيل لشريح قاضي المصرين .

(٢) انظر هذه الكتب في الاسلام والحضارة العربية ٢/٢ . وانظر كتاب عمر الى ابي عبيدة في كتاب الخراج لابي يوسف ص ١١٧ (طبع السلفية بالقاهرة ١٣٨٢ هـ) .

(٣) يعني تردد :

أمدا ينتهي اليه ، فان احضر بينته اخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية، فانه انفى للشك واجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا في حد ، او مجربا عليه شهادة زور ، او ظنينا في ولاء او نسب فان الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والايمان . واياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فان الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته واقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق الناس بخلق يعلم الله انه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام" (١) .

وقد علق ابن القيم الجوزية على هذه الرسالة بقوله : وهذا كتاب جليل القدر تلقاه العلماء ، بالقبول ، وبنوا عليه اصول الحكم والشهادة والحاكم (٢) .

ويرى آدم متز أن أبا جعفر منصور(لا عمر بن الخطاب) اول خليفة ولى قضاة الأمصار من قبله... وظل تعيين القضاء من حق الخليفة حتى في العصور السيئة، باعتبار ان القضاء آخر ما بقي من المناصب الهامة رغم أن قيام بعض الولاة المتنفذين بتعيين بعض القضاة بأنفسهم ، الذين يحكى أن الخليفة هو الذي كان يعينهم، فالظاهر أن حكايتهم موضوعة كما هو الحال في الخطابات التي ينسب لعمر انه كان يوجهها الى القضاة والولاة (٣) .

وهذا الرأي مخالف لما اتفق عليه أكثر المؤرخين من أن عمر هو أول من جعل للقضاء ولاية خاصة وأول من عين القضاة في الامصار. ولعل الذي اوقع - متز - في هذا الخطأ انه اعتمد على بعض المؤرخين الذين لهم ميول خاصة ضد عمر، او انه لم يفهم النص العربي فهما صحيحا. حيث يمكن حمله على الأولية بالنسبة للعهد العباسي وليس مطلقا .

وكان القضاء في زمن الخلفاء مستقلا ذا منزلة رفيعة ، وكان القضاة يولون من قبل الخليفة واحيانا تكون التولية من قبل الوالي ان كانت ولايته هامة تشمل الصلاة

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٢١ ، الاسلام والحضارة ٣/٢ ومن اهم الكتب في الادارة والقضاء العهد الذي كتبه الامام علي للأشتر النخعي عامله في مصر ولو صح هذا العهد لكان من احسن ما كتبه في العالم (انظر العهد في شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ٣/٩-١٢٢) ومنها عهد الخليفة الطائع لقاضي القضاه ابي محمد بن معروف الذي كتبه الصابي ٣٦٦هـ (الحضارة لمتز ٣٢١/١).

(٢) اعلام الموقعين ٩٨/١ ، وانظر النظم الاسلامية لصبحي ص ٣٢٣ .

(٣) الحضارة الاسلامية ٣٠١/١ .

والخراج والحرب والقضاء ، وفي هذه الحالة يقر الخليفة التعيين . وكان القاضي يجلس للحكم في منزله ، ثم اصبح يعقد جلساته في المسجد بعد ذلك . ولم يكن للقاضي كاتب او سجل تدون فيه الأحكام ، لان الأمر لم يكن يدعو الى شيء من ذلك ، فالقاضي هو الذي يحكم وهو المنفذ للأحكام ويطالب بتنفيذها فورا ، ولم يعرف تسجيل الأحكام الا في مصر في ولاية القاضي سليم بن عنتر الذي ولاه معاوية سنة ٤٠ هـ ، ذلك انه قضى بين جماعة في ميراث ، وبعد الحكم تناكروا ، فعادوا اليه فقضى بينهم ثانية ، وكتب كتابا بقضائه واشهد عليه شيوخ الجند فكان ذلك اول تسجيل للقضاء .

هذا ولم يكن في زمن الرسول ولا في عهد ابي بكر وعمر وعثمان سجن بالمعنى المعروف ، فلما كانت خلافة علي بنى السجن ، وهو اول من بناه في الاسلام ، وسماه نافعا ولم يكن حصنا فانفلت الناس فبنى اخر وسماه مخيمسا (١) .

القضاء في عهد الأمويين : كان الخلفاء الأمويون يولون بانفسهم القضاة في عاصمة ملكهم ويتركون ... غالبا - اختيار القضاة في الأمصار الى الولاة ويروى ان معاوية كان اول خليفة امتنع عن القضاء ودفعه الى غيره ، وانقطع هو الى التفرغ للسياسة والحرب .

وظل القضاء مستقلا في عهد بني امية ، فلم يتأثر بالسياسة ولا بميول الحاكمين ، وكان حكم القاضي نافذا على الولاة وعمال الخراج . على انه كان يحدث احيانا - وهو نادر - الا يقبل الوالي حكم القاضي ، وفي هذه الحالة لم يكن امام القاضي الا ان ينصرف عن الحكم ويعتزل او يجلس في منزله مضربا على الأقل .

وكان القاضي يحكم باجتهاده فيما ليس له نص من كتاب ولا سنة، اذ لم تكن المذاهب الأربعة المشهورة والتي تقيد بها القضاة فيما بعد قد تكونت انما كان هناك أئمة كثيرون مجتهدون كالاوزاعي ، والثوري والحسن البصري وغيرهم اندثرت مذاهبهم . وبدأ في آخر العهد الأموي بظهور امامين من الأئمة الاربعة : الامام ابي حنيفة في العراق ، والامام مالك بن انس في المدينة . فقد ولد أبو حنيفة ٨٠هـ في ولاية عبد الملك ، وعاش نحو

(١) مخيمسا : بالخاء والياء المشددة فتحا وكسرا . انظر الاسلام والحضارة ٢/ ٦٠ .

ثمانية عشر عاما في ظل الدولة العباسية حيث توفي في بغداد سنة ١٥٠ هـ.واشتهر بقدرته التشريعية وقوة حجته وحسن منطقه ودقته في الاستنتاج ، ومن اجل ذلك عد امام اهل الرأي . والامام مالك ولد نحو سنة ٩٣ هـ بالمدينة ، وبها تعلم وعلم وألف واشتهر بانه حجة في الحديث وعد من اجل ذلك امام اهل الحديث ، ويمتاز مذهبه باعتماده على الحديث اكثر من ابي حنيفة ويحتج باهل المدينه ، وتوفي سنة ١٧٩ هـ وخلف لنا كتاب الموطأ ، وقد اشتهر بأنه كتاب حديث ، ولكنه في الحقيقة كتاب فقه وان مليء حديثا .

وكان القضاة أحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة اذا اشتبه عليهم الأمر فيها ، كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي ، قاضي مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله في أمر الشفعة ، وان سلفه كانوا يقضون فيها للاول فالاول من الجيران. كتب اليه ان يجعلها للشريك وحده ، وقال : فاذا وقعت الحدود بين اهل الشرك في الميراث او غيره وضربت مداخل الناس التي يدخلون منها وارضها فقد انقضت الشفعة.

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضا في الأمصار المختلفة، لأن المجتهدين على شيء يقضي به قضيتهم او يحمل مجتهدي كل مصر على عمل ما يصلح لذلك المصر مستمدين من اصول الدين . لم يفعلوا هذا ولاذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه .

وكان من مستلزمات القاضي في العصر الاموي ان يكون رجلا عفيفا، ورعا تقيا عالما مجتهدا ، سليما من العيوب ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، قال عمر بن عبد العزيز . اذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع وحلم عن الخصم ، والاقتداء بالأئمة ومشاركة اهل العلم والرأي (١) .

القضاء في العهد العباسي :

تطور نظام القضاء في الدولة العباسية تطورا كبيرا ولم يكن هذا التطور فوريا او وليد ظروف سريعة ، وانما كان نتيجة طبيعية لاختلاف نظم الحياة العباسية عن الحياة الأموية ، وبالتالي لاختلاف العقليات ومناهج الحكم الشكلية ، ففي هذا العصر بدأت

(١) النظم الاسلامية : لحسن ابراهيم : ص ٢٧٩ .

عملية تكون المذاهب ، ولم يكن الأمر قاصرا على المذاهب الأربعة : الحنفي والمالكي والحنبلي والشافعي ، بل كانت في ذلك العصر مذاهب كثيرة غير هذه ، فكان مذهب الحسن البصري ، ومذهب ابي حنيفة ، والأوزاعي وسفيان الثوري والليث بن سعد ومالك بن عيينه والشافعي ، ثم من بعدهم مذهب اسحاق بن راهويه ، ومذهب ابي ثور ، ومذهب ابن حنبل، ابو داود الظاهر، ومذهب ابن جرير الطبري ، وغير ذلك . وكان الذي كتب له البقاء من هذه المذاهب هي المذاهب الأربعة ، ولكن هذا الانحصار لم يتم الا في القرن الرابع وما بعده . اما في القرنين الثاني والثالث فكل هذه المذاهب الثلاثة عشر وغيرها كانت موجوده ولها انصار وكان الاجتهاد حرا طليقا ، ومن العلماء من كان لا يتقيد بشيء من هذه المذاهب ، بل يجتهد لنفسه فان صح عنده حديث عمل به ، وان وجد قولين للعلماء تخير لنفسه ، حتى فيمن ينتسبون الى امام معين ، كمحمد بن الحسن لم يمنعه انتسابه الى ابي حنيفة من اختياره لمذهب مالك وهكذا ، وكان لهذه الحرية والاجتهاد اثر صالح في نمو الفقه وظهور الآراء القانونية بمظهر جليل ، وتحليل المسائل تحليلا دقيقا ، ومراعاة كل فقيه حال قومه وبلده ومقتضيات الأحوال وكل الذي يؤخذ عليهم انهم لم يضعوا قانونا عاما للدولة تسير عليه . وقد كانت الفرصة مهيأة امامهم ولكنهم اضاعوها ، فالمنصور وكذلك الرشيد يعرض كل منهما على مالك ان يجعل الموطأ قانونا ، لكنه لم يقبل . وابن المقفع - في رسالة الصحابة - التي رفعها الى المنصور يقترح عليه ان يسن قانونا عاما للمسلمين يرجع فيه الى النصوص المجمع عليها من كتاب او سنة ، والى ما يرشد اليه العقل في معنى العدالة ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن وتركت الحرية للقضاة وللمفتين كما تركت للمؤلفين والشراح ، وكان خيراً ان يقيد القضاة بقانون يعلمه الناس قبل ان يتقاضوا ويعلمه القضاة قبل ان يقضوا ، ويكون هذا القانون مجالا للتعديل والتغيير على مر الزمان وعلى مقتضيات الأحوال ولو فعل المسلمون ذلك لكان له اثر كبير في حياتهم في الناحية القضائية .

وقد ترتب على عدم وجود قانون بعينه او مذهب معين تفرضه الحكومة على الدولة كلها او على الأمصار فرضا أن صار القضاء متروكا لرأي القضاة واجتهادهم ، مما ادى بدوره الى صدور الاحكام المتناقضة ، حتى في البلدة الواحدة ، فتستحل - مثلا - دماء وفروج في

ناحية من نواحي الكوفة ، وتحرم في نا حية اخرى - تبعا لحكم القاضي - وكل ذلك نافذ على المسلمين ، ولم تتدخل الحكومة في حسم الخلاف وتوحيد القضاء حتى في العاصمة نفسها ، بل اختارت القضاة من مناحي مختلفة في الاجتهاد ، وتركت لهم الحرية في الاحكام على حسب اجتهادهم ، ولا تتدخل سلطة فيما بينهم من خصام ونزاع ما داموا بعيدين عن مسائل الخلافة وما اليها .

إن روح الاجتهاد في العصر العباسي الاول كانت قوية جدا واستتبع ذلك رقي النظام القضائي وتطوره . ولما تقدم الزمن في العصر العباسي رأينا المذاهب تتبلور ولكنها كثيرة ، اشتهر منها ثلاثة عشر مذهبا او يزيد ، ورأينا الناس ينحازون الى هذه المذاهب ، ثم قدر لبعض هذه المذاهب ان يفنى او يقل اتباعها ، وبعضها يقدر له البقاء والنماء ، حتى تصبح في العصر الثاني اربعة فقط حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي ، هذا عدا الشيعة والخوارج ، واذا بالناس ينحازون الى هذه المذاهب لا الى غيرها ، وتقتسم البلاد هذه المذاهب ، فيسود كل منها قطرا وتقل بجانبها المذاهب الاخرى ، ومن ثم ضعفت روح الاجتهاد واصبح القاضي ملزما بان يصدر احكامه وفق احد المذاهب الاربعة ، فقاضي العراق كان يحكم وفق مذهب ابي حنيفة ، وفي مصر بالمذهب الشافعي ، وفي الشام والمغرب بالامام مالك ، وهكذا واذا تقدم خصمان على غير المذهب السائد في بلد من البلدان فان القاضي كان ينيب عنه قاضيا على مذهب الخصمين .

وقد عظم شأن القضاة من عهد الخلفاء الاولين من بني العباس فقد كانت العادة ان الولاة يحضرون القضاة الى مجالسهم ، فلما قدم محمد بن مسروق الكندي واليا على مصر من قبل الرشيد عام ١٧٧هـ - ٧٩٣م ارسل اليه اميرها عبد الله بن المسيب يأمره بحضور مجلسه رفض الحضور ، وانقطع ذلك عن القضاة (١) من يومئذ ، بل نجد الآية قد انعكست في القرن الثالث الهجري ، فكان الولاة يحضرون مجلس القاضي في كل صباح الى ايام القاضي ابي عبيد بن حربويه قاضي مصر المتوفي سنة ٣١٩هـ - ٩٣١ م فكان اخر من ركب اليه الامراء ، لانه كان لا يقوم الى الأمير اذا اتاه . وكان هذا القاضي الشافعي المذهب مثلا اعلى للعدالة لا يطعن عليه في علم ، ولا تلحقه تهمة في رشده

(١) الولاة والقضاه للكندي ، ص ٣٨٨ (طبعة روفنجست بيروت ١٩٨٠م) .

ولا يحيف في حكم ، وكان لا يؤمر احدا من ولاة مصر ، بل كان يدعوهم بأسمائهم ، وكان يختار في احكامه ، ويرى ان من قلد فهو متعصب او غبي ، وحكم بما لو حكم غيره ما اسكتوا عنه وروى انه اختصم عنده رجلان وكان المدعي عليه قد سبق اليه وجعل نفسه المدعي صاحب الحق ، فضحك خصمه تعجبا ، وعند ذلك صاح ابن حربويه صيحة ملأت الدار وقال : - مما تضحك لا اضحك الله سنك ، تضحك في مجلس ، الله مطلع عليك فيه، ويحك ؟ تضحك وقاضيك بين الجنة والنار - فأرعب القاضي الرجل ومرض ثلاثة اشهر ، وكان اذا عاده صاحبه يقول له : صيحة القاضي في قلبي الى الساعة واحسبها تقتلني(١).

ومما يدل على رهبة منصب القضاة واحترامه في ذلك العهد أننا نجد الأمراء والوزراء كثيرا يساقون الى السجن ، ولا يحكى مثل ذلك الا عن قليل من القضاة ولم يمت في اثناء السجن الا قاض واحد ، ولا يعلم أن قاضيا مات في السجن سواه ، وهو القاضي ابو اميه المتوفي عام ٣٠٠هـ الذي ولاه الوزير ابن الفرات قضاء البصرة وواسط والأهواز كانت له على الوزير منه ايام محنته حيث اختبأ عنده وكان قليل العلم ولكنه كان لا يحترم الأمير ولا يركب اليه، ولما نكب ابن الفرات وقبض عليه وعلم الامير بذلك قبض على أبي امية وادخله السجن، فاقام فيه مدة ثم مات .

مع هذه الهيبة التي كانت للقضاة فان دوائر الفقهاء لم تكن من الناحية النظرية تلقى منصب القضاء بعين الرضى ، وترى الامتناع عن قبوله ، ويرجع ذلك الى ما روى من الأحاديث التي من شأنها ان ترهب القضاة حتى العادل منهم ، مثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : - يجاء بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود ان لم يكن قضى بين اثنين،وقوله عن ابي هريرة"من جعل قاضيا فكأنما ذبح بغير سكين".ولماكتب عمربن الخطاب الى عمر بن العاص ان يجعل كعب بن يسار بن ضنة على القضاء ارسل اليه عمرو بكتاب امير المؤمنين فقال كعب والله لا ينجيه الله من امر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة ، ثم يعود فيها ابدا اذا نجاه الله منها . وأبى ان يقبل القضاء وفي سنة ٧٠هـ - ٦٨٩م تولى قضاء مصر . عبد الرحمن بن حجيرة ، فلما بلغ اياه ذلك قال : انا لله وانا

(١) المصدر السابق ٢٨ ، طبقات الشافعية للسبكي /٣٠٠ - ٣٠٦ .

اليه راجعون ، هلك الرجل ومن هذا القبيل امتناع ابن حنيفة رحمة الله عن قبول القضاء مرتين : احدأهما في العهد الأموي اراده ابن هبيرة - عامل مروان اخر بني اميه على العراق - فأبى فضربه بالسوط ، وفي رواية انه اراده ليكون على بيت المال فأبى فضربه والأخرى في العهد العباسي في زمن ابي جعفر المنصور اراده على القضاء فأبى فحبسه (وقيل مات في السجن). وكان وجهة نظر الامام الاعظم ان في اولى الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر ، هذا الى ما في القضاء من تعرض لغضب السلطان ان ارضى الله، وغضب الله ان ارضى السلطان . وفي بعض الروايات انه قال لأبي جعفر : اتق الله ، ولا ترعى في امانتك الا من يخاف الله . والله مأمون الرضى فكيف اكون مأمون الغضب ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني ان تغرقني في الفرات او ان الغي الحكم لأخترت ان اغرق، ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ولا اصلح لذلك- حتى ان كثيرا من المحدثين لا يرون حديث من تقرب ، الى السلطان ، وان كثيرا عابوا أبا يوسف من اجل توليه القضاء.

قال ابن خلّكان نقلا عن محمد بن جرير الطبري : انه قد تحامى حديث ابي يوسف قوم من اهل الحديث ، من اجل غلبة الرأي وتفريعه الفروع والأحكام ، مع صحبة السلطان وتقلد القضاء . ومع ان بعض المحدثين - كابن معين حنبل - قد رضى عنه ، فأنه لم يرضى عنه اكثرهم ، ولم يروِ عنه شيئا احدٌ من اصحاب كتب الحديث الستة . ومما يدل على تأثر القضاة بالسياسة انه كان من العلماء من يشايعها ، كما كان منهم من لا يصانع الا الحق شأن الناس في كل عصر - قصة يحيى بن عبد الله العلوي الذي خرج على الرشيد بالديلم ، واشتدت شوكته ثم اجاب الى الصلح ، وكتب الرشيد له امانا اشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بني هاشم ومشايخهم ، وجاء يحيى الى بغداد فأكرمه الرشيد اولا ، ثم سعى بينهما رجال السوء فاراد الرشيد ان ينقض الأمان ، فدعا يحيى ودعا بعض الفقهاء منهم ابو البحتري القاضي ، ومحمد ابن الحسن صاحب ابي حنيفة ، واحضر الأمان الذي كان اعطاه ليحيى ، فقال : لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمان اصحيح هو ؟ قال هو صحيح ، فحاج في ذلك الرشيد فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان؟ لو كان محاربا ثم ولى كان امنا ، فأحتملها الرشيد على محمد بن الحسن ، ثم سأل ابا البحتري ان ينظر في الأمان فقال ابو البحتري هذا منتقص من وجه كذا وكذا ، فقال

الرشيد : انت قاضي القضاة ، وانت اعلم بذلك ، فمزق الأمان ونقل فيه ابو البحتري ، وعزله الرشيد عن قضاء الرقة ولما خرج الرشيد الى خراسان صحبه محمد فمات بالري سنة ١٨٩هـ في السنة التي توفي فيها الكسائي وله ٨ سنة(١) وهناك كثير من الأدلة على ان الخلفاء العباسيين قد نقضوا العهد مع كثير من القواد والعلويين بعد ان اعطوهم الأمان، وذلك عن طريق فتاوي القضاة . وقد بلغ فساد القضاة في منتصف القرن صورة مرزية ، عبر عنها التنوخي المتوفي سنة ٣٨٤ هـ بقوله : كان اول ما انحل من نظام سياسة الملك ايام العباس القضاء ، فان ابن الفرات وضع منه وادخل فيه قوما بالزمانات (السمانات)لا علم لهم ولا ابوه فما مضت الا سنوات حتى ابتدأت الوزارة تتضح ، ويتقلدها كل ليس بها بأهل : ..... وتلا سقوط الوزارة اتساع الخلافة ، وبلغ صيورها الى ما نشاهد فأنحلت دولة بني العباس ، بانحلال القضاء (٢) .

ولما ولى معز الدولة البويهي عبد الله بن أبي الشوارب قضاء القضاة، شرط على نفسه ان يحمل في السنة الى خزانة بن ابي بويه مائتي الف درهم ، وكتب على ذلك سجلا ولكن الأمور لم تسر معه على عادتها ، فقد خلع عليه من دار السلطان وامتنع الخليفة من ان يصل اليه ولم يأذن له الخليفة ان يصل اليه في موكب ولا غيره ، ثم عزل من منصبه بعد عامين ، وتولى مكانه ابو بشر عمر اكثم ، على ان لا يأخذ راتبا وأعفى مما كان يحمله ابو الشوارب ، وأمر بان لا يمضي شيئا من احكام ابن ابي الشوارب وسجلاته لأنه اشترى منصبه شراء(٣) .

ومن مظاهر تطور القضاء في الدولة العباسية انشاء منصب قاضي القضاه ، ويشبه الى حد كبير وزير العدل في العصور الحديثة ، وكان مركزه بغداد حاضرة الخلافة ، ومن صلاحياته تعيين الذين ينوبون عنه في الاقاليم ، وأول من لقب بهذا اللقب القاضي ابو يوسف - يعقوب ابراهيم الأنصاري المتوفى ١٨٢ هـ في عهد هارون الرشيد الذي كان

(١) انظر الفهرس لابن النديم ص ٢٠٤ - ٢٠ (طبع مكتبة خياط ببيروت) وضحى الاسلام ٢٠٤،٢٦/٢/.

(٢) الاسلام والحضارة العربية ٢/ ٤٠ - نقع عن نشوار المحضرة للتنوخي .

(٣) انظر المصر السابق ، الحضارة لمتز ٢/ ٣١١ ، النظم لحسن ابراهيم ص ٢٨٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٤٠٠ .

يجله ويكرمه ، وقد ولي القضاء من قبل عهد الهادي والمهدي فبقاؤه في هذا المنصب طوال تلك المدة تدل على لياقة ومرونة فائقين ، خصوصا اذا اراد ان يجمع بين الدين والمنصب والجاه ، ولعل ما يتمثل ابا يوسف قوله : رؤوس النعم ثلاثة اولها نعمة الاسم التي لا تتم النعمة الا بها ونعمة العافية التي لا تطيب الحياة الا بها ،ونعمة الغنى التي لا يتم العيش الا بها . فقد اراد ان يجمع بين الاسلام والعافية والغنى ، وما ادق ذلك واشقه وقد استطاع ابو يوسف ان يتغلب على هذه الصعوبات وان يوفق في مهمته توفيقا عظيما .

ومن آثاره العلمية الخالدة- كتاب الخراج(١) الذي يعتبر اقدم كتاب وصل الينا في النظم المالية والأقتصادية للدولة الاسلامية في النصف الثاني من القرن الثاني . والكتاب وان كان عنوانه - الخراج - ولكنه يبحث في الواقع في اهم ابواب مالية الدولة ، يقول في اوله - ان امير المؤمنين ايده الله تعالى سألني ان اضع كتابا جامعا به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به (٢) ويعني بالخراج ضريبة الأرض وبالعشور ما يحصل من الأراضي التي اسلم اهلها ، ويراد بها كذلك الضرائب التي كانت تؤخذ من التجار الكفار حينما يمرون بالبلاد الاسلامية معاملة بالمثل ، ويعني بالصدقات الزكاة المفروضة على المسلمين في اموالهم ، وبالجوالي (٣) الجزية على رؤوس الذميين وامثالهم ويضطره ذلك البحث عن الأراضي ايها فتح عنوة وايها فتح صلحا،

ويتوسع في هذا الباب ، فيبحث في قسمة الغنائم التي يحرزها جيش المسلمين ، وفي الأرض الموات ، وفيما يخرج من البحر ، وفي شئون الري وما يعرض له ، وفي معاملته لأهل الذمة من حيث الضرائب، وبناء الكنائس والبيع والصلبان الخ ، وهو اوسع الاطلاع على اقوال الصحابة واعمالهم ويتجلى من كتاب الخراج وقوفه الدقيق على تصرفات عمر بن

---

(١) راجع مؤلفاته في ابن النديم ، ص ٢٠٣ ويذكر د . يحى الصالح في النظم الاسلامية ص ٢١٢ ان لأبي يوسف كتابا ثانيا - الرد على سير الأوزاعي - وهو غير موجود بفهرست ابن النديم .

(٢) الجوالي : جالية واصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطنا اخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم الفارق عن جزيرة العرب جالية ، ثم انتقلت هذه اللفظة الى الجزية التي اخذت منهم ، ثم استلمت في كل جزية تؤخذ وان لم يكن صاحبها جلا عن وطنه .

(٣)،كتاب الخراج :ص ١١١-١١٢، وانظر الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٠٩ .

الخطاب لأنه كان العمدة في هذا الباب ، حيث ان عمر واجه هذه المشاكل الماليه عند فتحه لبلاد الفرس والروم ، وسن لمن بعده ما يحتذونه ، وقد ورد اسمه في كتاب الخراج نحو ١٢٣ مرة .

ولم يكن ابو يوسف في رسالته عن الخراج ذلك الفقيه الجاف او ذلك المفتي الضعيف ينظر الى غرض المستفتي فيجتهد ان تكون فتواه طبق رغبته ، بل كان ذلك العالم الناصح الذي سير حال الأمة فعرف ما يصلحها وادرك سر الدين الذي اوحى الله به الى رسوله (ص) لاصلاح حال الأمة ، فجال في ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق ، وأحاط علما بالمسائل التي يفتي فيها. فبينما تراه واعظا لا يخاف في الله لومة لائم (١) يصوغ من كلمات النصح اشدها وقعا واقواها تأثيرا يوجهها الى امامه مع رعاية الأدب واللياقة اذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كا ن غرضهم من ذلك ، وبينما انت تستخرج منه لطائف التاريخ ، اذاً بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة اسلافه الطيبين الطاهرين ، ثم تراه قد سبر ما يفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التي يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة . فينبه الخليفة الرشيد الى مخازيهم ويرفع صوته طالبا اجراء العدالة فيهم(٢) ، ويشير على امامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ، ويبين له كيف يفعل في ذلك ليكون ناجيا بين يدي الله سبحانه وتعالى الذي جعله كفيلا لحقوق الرعية . وما جمل قوله للرشيد : ان العدل وانصاف المظلوم وتجنب الظلم مع ما في ذلك من الأجر - يزيد به الخراج وتكثر به عمارة البلاد ، والبركة مع العدل تكون وهي تفقد الجور ، والخراج المأخوذ من الجور تنقص البلاد به وتخرب .. فلو تقربت الى الله عز وجل يا أمير المؤمنين بالجلوس لمظالم رعيتك في الشهر او الشهرين مجلسا واحدا تسمع فيه من المظلوم وتنكر على الظالم ، رجوت ان لا تكون من احتجب عن حوائج رعيته ، ولعلك لا تجلس الا مجلسا او مجلسين ، حتى يسير ذلك في الأمصار والمدن،فيخاف

(١) راجع مقدمة كتاب الخراج: ص ٣ - ٦ .

(٢) راجع ما قاله ابو يوسف، بشأن هذه الأمور في كتاب الخراج من ص ١٠٦- ١٠٩ .

المظالم وقوفك على ظلمه ، فلا يجتريء على الظلم ويأمل الضعيف المقهور جلوسك ونظرك في أمره فيقوى قلبه ويكثر دعاؤه فان لم يمكنك الاستماع في المجلس الذي تجلسه من كل من حضر من المتظلمين نظسرت في أمر طائفة منهم في اول مجلس ، وفي امر طائفة اخرى في المجلس الثاني وكذلك في المجلس الثالث ، ولا تقدم في ذلك انسانا على انسان ، من خرجت قصته أولا ، دعي اول ، وكذلك من بعده ، مع انه متى علم العمال والولاة انك تجلس للنظر في امور الناس يوما في السنة - ليس يوما في الشهر ، تناهوا باذن الله عن الظلم وانصفوا من انفسهم ، واني لأرجو بذلك اعظم الثواب ، انه من نَفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة ومن ستر مسلما في الدنيا ستر الله زلته يوم القيامة (١) .

وبعد فكتاب الخراج من اعظم الكتب المالية في الفقه الاسلامي ، كما يعد وثيقة تاريخية هامة وخاصة بالنسبة الى الفترة التي كتب فيها من العصر العباسي ، كما رسم فيه مؤلفه نظاما شاملا للخراج يتفق مع مباديء الشريعة الاسلامية .

أما أثر تولية ابي يوسف لمنصب قاضي القضاة في انحاء الدولة الاسلامية وبذلك سهل نشر المذهب الحنفي في الأمصار ، كما كان في تولية القضاء عهدا طويلا فائدة كبيرة للفقه ، ففي القضاء امتحان للنظريات الفقهية ، ومواجهة لمشاكل عملية لا يدركها من اقتصر على النظر ، فلهذا كان ابو يوسف منظما لمذهب ابي حنيفة ومغذيا له بالطرق العملية ، لذلك قال الحنيفة : انه يعمل بقول ابي يوسف في باب القضاء وكان ابو يوسف اكثر اتصالا بالمحدثين ورواية الحدث عنهم ، فدخل الى المدينة ولقى مالكا وناظره واخذ عنه، ورجع في بعض ارائه الى قول مالك واقوال الحجازيين ، وكان من اثر اتصاله بالمحدثين تقوية مذهب ابي حنيفة بالحديث ايضا ، وتطعيم المذهب ببعض آراء الحجازيين ، ومخالفة ابي حنيفة الى ما صح عنده من حديث احيانا .

ويعزى إلى أبي يوسف انه اول من ميز العلماء والقضاة بزي خاص بهم وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس، وكان القاضي يلبس السواد على هيئة عمال بني العباس

(١)كتاب الخراج : ص ١١١-١١٢، وانظر الخراج في الدولة الاسلامية ص ٤٠٩الدكتور م.ض . الدين الريس طبعة نهضة مصر ١٩٥٧م .

ويتميز في تغطية رأسه بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة وفي غضون القرن الثالث الهجري كانت القلنسوه – وتسمى ايضا الدنية في لغة المستهزئين – هي لباس القضاة الذي يميزهم وكانت تلبس مع الطيلسان (١) – وكان قضاة الفاطميين يحملون سيفا .

اما موظفو ديوان قاضي القضاة ببغداد في سنة ٣٣٦هـ فهم : الكاتب ، وكان راتبه الشهري ثلاثمائة درهم ، والحاجب ورزقه مائة وخمسون درهما في الشهر ، ومن يعرض الأحكام وراتبه شهريا مائة درهم ، وخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ولهم ستمائة درهم .(٢).

ومن اهم ما يلفت النظر في النظام القضائي انه في خلافة ابي جعفر ظهر نظام ايجاد جماعة من الشهود الدائمين امام القاضي ، ويحدثنا الكندي عن نشأة الشهود فيقول كان القضاة اذا شهد عندهم احد وكان معروفا بالسلامة ، قبله القاضي وان كان غير معروف بها اوقف ، وان كان الشاهد مجهولا لا يعرف سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير او شر عمل به ، حتى كان غوث بن سليمان في خلافة المنصور ، فكان اول من سأل عن الشهود بمصر في السر ، وكان سبب ذلك كثرة شهادة الزور في زمن غوث ، وكان من عدل عنده قبله ، ثم يعود الشاهد واحدا من الناس ، ولم يكن احد يوسم بالشهادة ولا يشار اليه بها.

وكان يوجد موظف خاص يسمى : صاحب المسائل – ليسأل عن الشهود ويشهد عليهم ومن الشهود نشأت بطانة القاضي ، وكان صاحب المسائل يجدد السؤال عن الشهود والموسومين بالشهادة في كل ستة اشهر ، ليقف من حدثت له جرحه .

وقد عني عيسى بن المنكدر الذي تولى قضاء مصر عام ٢١٢هـ بأمر الشهود عناية كبرى فكان يتنكر بالليل ويغطي رأسه ويمشي في السكك ليسأل عن الشهود . وقد كان التثبت في شهادة الشهود ، والمبالغة في المسألة عنهم ، والفحص عن وجوه عدالتهم ، والبحث عن حالتهم ، من اهم واجبات القاضي ، وكان الرسم ان يجلس مع القاضي عند نظره في القضايا اربعة شهود اثنان عن يمينه واثنان عن يساره ، ثم اصبح الشهود بعد فترة نوعا من العمال الثابتين بعد ان كانوا في اول الأمر من حاشية القضاة الأمناء الذين

(١) ملحق القضاة للكندي : ص ٨٦ ، الحضارة لمتز ٣١٦/١.

(٢) الكندي : ص ٥٧٤ .

يوثق بشهادتهم وكان ببغداد حوالي عام ٣٠٠ هـ نحواً من الف وثمانمائة شاهد .

وقد سمي الشهود في خراسان والمغرب في النصف الثاني من القرن الرابع بالعدول ، اما الشهود الذين لا يقومون بالشهادة ويرشحون لها فيسمون الموسومين بالعدالة .

كذلك استحدثت في العهد العباسي طريقة جديدة تساير التقدم الحضاري فيه، اذ تمتعت كل ولاية بجملة قضاة ، فصار بها اربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم في النزاع الذي يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه ، وكان يولي هؤلاء قاضي القضاة ، واكثر من ذلك انه اصبح في البلد الواحد اربعة مشتركون كل منهم يلقب قاضي القضاة(١) - واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء في مصر والأندلس وغيرهما ، وصاروا يولون قاضي القضاة ، وهو يولي القضاة .

وكان قاضي القضاة في الأندلس يسمى قاضي الجماعة ايضا ، ومركزه قرطبة حاضرة الأمويين بالأندلس ، ويختار غالبا من الذين تولوا بعض مناصب الدولة الهامة . وكان الأمير او الخليفة الرئيس الأعلى للقضاء . لتعلق هذه الوظيفة بالدين ، وكان قاضي القضاة احيانا يسمى صاحب الصلاة ، حيث كان له الاشراف على الصلاة في ايام الجمع والأعياد بالمسجد الكبير بقرطبة او بمسجد الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء . وظل الأمر كذلك حتى افرد عبد الرحمن الناصر شخصا معينا للصلاة وللقضاء شخصا اخر .

وسار الأمويون في الأندلس على نهج الخلفاء الأمويين والعباسين في الشرق في تولية قضاتهم قيادة الصوائف نيابة عنهم . ومن هؤلاء القضاة منذر ابن سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر (٢) .

هذا ومن الجدير بالملاحظة أن نظام القضاء في مصر لم يسر على وتيرة واحدة، ويرجع ذلك لعلاقة حكام مصر وتبعيتهم للخلافة - ولو نظريا - او عدم تبعيتهم لها واستقلالهم التام عنها - كما حدث في حكم الفاطميين ، ففي الحالة الأولى كانت تسير وفق النظام المتبع في دار الخلافة وفي الحالة الثانية حينما انسلخت عن الخلافة العباسية وحكمها على

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٤٠٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٢ .

الفاطميون كان قاضي القضاة فيها وقت الفتح ابا الطاهر من المصريين السنيين . فرأى جوهر قائد المعز اقراره في منصبه لئلا - يثير غضب المصريين - وعمل في الوقت نفسه على اضعاف نفوذه ولما وصل الخليفة المعز لدين الله الى مصر وخف الناس لاستقباله ، وقبلوا الأرض بين يديه - ظل ابو الطاهر راكبا ولما قرب من موكب الخليفة ترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض فلفت ذلك نظر المعز واسرها في نفسه ، ومع هذا فقداقره الخليفة في منصبه جريا على السياسة التي اتبعها جوهر من قبل لكن نفوذ ابي الطاهر بدأ يضعف ، فقد الزمه الخليفة ان يصدر احكامه وفق المذهب الاسماعيلي بل واشرك معه ابن ابي ثوبان المغربي واسند اليه النظر في المظالم الخاصة بالمغاربة وما زال نفوذ ثوبان يقوى شيئا فشيئا ونفوذ ابي الطاهر يضمحل ، حتى عين المعز في عام ٣٦٢هـ قاضيا اخر من الشيعة هو علي بن النعمان المغربي فقاسم ابا الطاهر القضاء ، وجلس في جامع عمرو للحكم بينما جلس ابو الطاهر في الجامع الأزهر وظلت الحال هكذا حتى استقل علي بن النعمان بالقضاء على اثر استقالة ابي الطاهر في عام ٢٦٦هـ لضعفه وشيخوخته وظل اولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨هـ ، كما اسندت مقاليد الدعوة لقاضي القضاة الحسين بن علي للمرة الأولى في سنة ٣٩٣ هـ واصبح يلقب بقاضي القضاة وداعي الدعاة .

وكان منصب القضاء احيانا يعهد به في العهد الفاطمي لبعض السنيين وفي عام ٥٢٥هـ عين ابو علي بن الأفضل بن امير الجيوش بدر الجمالي الى وزير الحافظ - وكان جعفريا - اربعة من القضاة : اثنين من الشيعة ، احدهما امامي و آخر اسماعيلي - واثنين من السنيين ، احدهما شافعي والآخر مالكي ، واعطى لكل من الأربعة السلطة المطلقة في اصدار احكامه وفق مذهبه ، ولما قتل هذا الوزير عادت السلطة الى الاسماعيلية من جديد - وبقيت على ذلك الى ان جاء صلاح الدين الأيوبي فعمل في سنة ٥٦٤هـعلى القضاء على الفاطميين وعقائدهم واسس مدرستين لتعليم الفقه احداهما على مذهب الامام الشافعي والأخرى على مذهب - الامام مالك - ثم صرف جميع قضاة الشيعة وعين بدلهم قضاة من الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم .

وبذلك اخذ المصريون يرجعون شيئا فشيئا الى المذهب السني - الذي كانت له

السيادة قبل الدولة الفاطمية ، واخذ المذهب الشيعي بنوعيه الاسماعيلي والامامي يضعف الى ان قضي عليه نهائيا (١)- ثم بتداول الأيام ودخول اكثر الممالك الاسلامية في قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لأبي حنيفة انتهى الأمر إلى حصر القضاء على مذهب امامهم .

عمل القاضي وصلاحياته :

كانت وظيفة القاضي في صدر الاسلام محصورة في الفصل بين الخصوم ثم صار القضاة يتعاطون اعمالا اخرى على ما تقتضيه الأحوال بحسب اشتغال الخلفاء بأمور السياسة ، فأضيف الى اعمال القاضي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين كالنظر في اموال المحجور عليهم المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه ، وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء (على رأي من رآه) والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم . وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتابع ولايته (١).

وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهاد في عساكر الصوائف. منهم يحيى بن أكثم فقد كان يخرج في ايام المأمون بالصائفة الى ارض الروم . وقد يضاف اليه ايضا النظر في المظالم كما فعله المأمون ليحيى بن أكثم . والمعتصم لأحمد بن ابي داود ، وقد يضاف اليه الشرطة والحسبة والقصص ودار الضرب وبيت المال . وولى العزيز بالله الفاطمي القضاء لعلي بن النعمان في مصر واضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز والخطابة والامامة والعيار في الذهب الموازين والمكاييل ثم تولى القضاء ابو محمد البازوري سنة ٤٤١هـ واضيفت اليه الوزارة - وهو اول قاض جمع بينهما ثم اضيفت الى غيره من بعد (٢)

ومن ذلك نتبين ان صلاحيات القاضي كانت واسعة جدا ، على انه لم يكن كذلك في

(١) المقدمة: لابن خلدون : ص ٢٢٢ .

(٢) التمدن الاسلامي : ٢٤٩/١ .

جميع العصور ، وانما اختلف باختلاف الدول .

شروط منصب القضاء :

يشترط في القاضي عدة شروط منها : الاسلام - فلا يجوز تولية غير المسلم القضاء بين المسلمين - اما غير المسلمين فيقضي بينهم القاضي المسلم او يعين ولي الأمر قاضيا منهم للفصل في خصوماتهم.والذكورة ، فليس للمرأة ان تتولى القضاء . وأجاز ابو حنيفة قضاءها فيما تصلح فيه شهادتها . وشذ بن جرير الطبري فجوز قضاءها في جميع الأحكام (١) . والبلوغ لأن الصبي في ولاية غيره فلا يعقل ان يكون له ولاية على الناس.والعقل - فلا يجوز ان يولى القضاء مجنون والمراد بالعقل ان يكون صحيح التمييز جيد الفطنة ، بعيدا عن السهو والغفلة يتوصل بذكائه الى فصل ما اغلق،وايضاح ما اشكل - والحرية فلا يجوز لعبد ان يكون قاضيا ولا لمن فيه بقية رق كالمدبرة والمكاتب والمبغض.والعلم . والفقهاء يختلفون في حقيقته فيرى البعض ان يكون عالما مؤديا للاجتهاد المطلق بينما يذهب فريق ثان الى ان يكون مجتهدا ولو في حدود مذهبه ، وفريق ثالث يجيز قضاء المقلد وهذا هو الأوفق وخاصة في الوقت الحاضر . وسلامة السمع والبصر والنطق واشتراطها ظاهر . والعدالة . فالقاضي لا يقبل الا شهادة العدل فلا يصح ان يكون ناقصا عن الشهود ومن لا تجوز شهادته لا تجوز ولايته والمراد بها ان يكون مؤديا للواجبات الشرعية والمستحبة مجتنبا للمحرمات والمكروهات وبعبارة اخرى ان يكون ظاهر الأمانة عفيفا عن المحارم متوقيا المآثم . بعيدا عن الريب ،مأمونا في الرضا والغضب مستعملا المروءة في دينه ودنياه .

جلسات القضاء :

كانت عادة المتخاصمين ان يتقدموا للقاضي برقاع في الرقعة منها اسم المدعى واسم امه وابيه . وكان الكاتب يأخذ هذه الرقاع عند باب المسجد قبل حضور القاضي

(١) الأحكام السلطانية للماوردي :ص١٠٧ - ١٠٨ والحضارة لمتز ٢/ ١٢٨ .

ويظل يأخذها حتى يحضر القاضي ، واذا كانت طلبات الدعاوى كثيرة لا يقدر القاضي على الفصل فيها في يوم . فرقها في كل يوم خمسين طلبا او اكثر على قدرطاقته في الجلوس .

وكانت جلسات القاضي للحكم علنية . ولذلك فقد كان القاضي في اول الأمر يجلس في مكان لا يمنع احد من المسلمين من الدخول اليه . وهو المسجد الجامع حيث كان يجلس مستندا الى اسطوانة من اساطين المسجد . كما كان يجلس احيانا للقضاء في داره . ولما ولي هارون بن عبد الله قضاء مصر سنة ٢١٧ هـ جعل مجلسه في الشتاء في مقدم المسجد مستبدر القبلة واسند ظهره الى جدار المسجد ومنع المصلين ان يقربوا منه وباعد كتابه عنه ، وباعد الخصوم وكان اول من فعل ذلك،واتخذ مجلسا للصيف في صحن المسجد (١). وكان قاضي قضاة بغداد حوالي عام ٣٢٠ -٣٢٩هـ يجلس للقضاء في داره احيانا وفي الجامع احيانا اخرى(٢) وركب وتجول في البلد او الأسواق فيقف حين يطلب للقضاء ولم يكن للقضاء يوم محددوكان ذلك يختلف باختلاف الظروف والأمصار،وكان المتحاكمون في العصر الأول يبسطون قضيتهم وهم وقوف بين يديه . ثم صار المعتاد ان يجلس المختصمون بين يدي القضاة صفا متساوين .

ومن تقاليد القضاء الاسلامي نظام القاضي المفرد - ولا توجد حادثة واحدة اشترك فيهاقاضيان بين احد قط الا بين عبد الله بين الحسن العنبري وعمر ابن عامر على قضاء البصرة وكانا يجتمعان معا في المجلس وينظران بين الناس (٣) .

معاونو القاضي :

يتخذ القاضي بحسب كثرة اعماله أوقلتها كاتبا لتسجيل الأحكام وحجج المتخاصمين ، وخازنا يحفظ اضبارات (ملفات) الدعاوي ، واشخاصا يرسلهم في احضار

(١) القضاة للكندي : ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) وكره الشافعية للقضاء في المساجد - فأخذ القضاة يجلسون في رحاب المسجد او في المدارس او في الدور الخاصة بالقضاة

(٣) حضارة العرب لمصطفى الرافعي : ص ١٤٤ .

الخصوم وحاجبا يرتب الخصوم على اوقات حضورهم . وترجمانا لينقل اليهم اقوال الاعاجم اذا كان في بلد يكثر فيها من لا يحسن العربية،ويجري على كل من هؤلاء رواتب من بيت المال .

آداب القضاء :

ينبغي للقاضي ان يلتزم الوقار في مجلسه فلا يتضاحك ، ويلزم العبوسة من غير غضب،ومنع من رفع الصوت عنده ، ولا ان ينتهر الخصم ويصيح عليه ليستخرج منه الاجابة التي يريدها .ولا يضحك في وجه احدهما ويساره - او يومىء اليه بشيء دون خصمه لئلا ينكسر قلب احدهما ويقعد عن الحجة تاركا الحق لصاحبه ، ويجب عليه ان يدني الضعيف حتى يشتد قلبه ، ويتعهد الغريب حتى يقوى على المطالبة بحقه،ولا يجوز له ان يمازح الخصوم وان استحق احدهم التعزير عزره بما يرى من ادب او حبس ، ولا ان يفعل ما ينافي هيبة القاضي (١)، ولا يقضي وهو غضبان ولا جائع ولا عطشان ولا يقضي في حالة غلبة النعاس عليه، ولا في حالة الحزن الشديد ، ولا البرد القاسي الى غير ذلك من الآداب التي اشار اليها الرسول صلى الله عليه وسلم حينما بعث عليا قاضيا باليمن،وكذلك ماضنمه كتاب عمر لأبي موسى الأشعري ، وقد اشرنا الى ذلك من قبل (٢) .

راتب القاضي :

يرى بعض القضاة الا يؤخذ على القضاء اجر، لأن القضاء علم والعلم لا يباع وانما يتبرع

---

(١) كانت المعاملة اللينة من القضاة للخصوم وعجز القضاة احيانا عن الزام احد الخصمين باعطاء المال لصاحبه سببا في اختراع اهل الفكاهة بمصر قصة القاضي النطاح في عهد الحاكم الذي ثبت في قلنسوته قرني ثور لينطح بهما المعاند من المتخاصمين وقد سمع الحاكم بذلك فلام القاضي على ما فعل (انظر هذه القصة وحكاية قاضي بغداد) احمد بن يسار صاحب الجثة المهولة واللحية الطويلة في الحضارة لمتز ٣١٦/١ - ٣١٧ .

(٢) راجع ص ٧٦ - ٧٨ من هذه المحاضرات .

به لوجه الله ومن هؤلاء قاضي المدينة في عهد المهدي،فقد امتنع ان يأخذ من هذا المنصب الذي يكرهه رزقا (١) ،وكذا محمد بن صالح الهاشمي الذي تولى قضاء القضاء ببغداد سنة ٣٦٣هـ - وكان يتفقه لمالك - اشترط عند تولي منصبه شروطا. منها : الا يتناول على القضاء اجرا ولا يشفع اليه فيما يخالف الشرع ، ولا يخلع عليه وقرر لكتابته في كل شهر ثلثمائة درهم ولحاجبه مائة وخمسون . وللفارض على بابه مائة ولخازن ديوان الحكم والاعوان ستمائة (٢) ،وكان ابو بكر محمد ابن المظفر الشامي قاضي قضاة بغداد المتوفى عام ٤٨٨هـ - زاهدا ورعا، وقد شرط عند تولي القضاء الا يأخذ رزقا وكان له كراء بيت قدره في الشهر دينار ونصف كان من ذلك قوته وكان له عمامة من الكتان وقميص من القطن الخشن وكان له كيس يحمل فيه فتيت الخبز،فاذا اراد الأكل جعل من الفتيت في قصعته ووضع عليه قليلا من الماء واكل منه (٣).

لكن اغلب الفقهاء جوزوا ان يكون للقاضي رزق من بيت المال ليفرغ من همّ المعيشة الى مسؤولية القضاء - واستمر الأمر على هذا - يقول ابو يوسف مخاطبا الخليفة الرشيد : وسألت من اي وجه تجري على القضاة والعمال فأجعل ما يجري على القضاة والولاة من بيت مال المسلمين ، من جباية الأرض او من الخراج والجزية، لانهم في عمل المسلمين فيجري عليهم من بيت،مالهم ويجري على كل والى مدينة وقاضيها بقدر ما يحتمل،وكل رجل تصيره في عمل المسلمين فاجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا (٤) .

وقد فرض عمر بن الخطاب لقاضيه شريح مائة درهم مع مؤونته من الحنطة،فلما جاء الامام علي جعلها اربعمائة . فلما كان العهد الأموي زاد راتب القاضي تبعا لزيادة موارد الدولة . ولما ولي القضاء بمصر ابن حجيرة سنة ٧٠هـ كان رزقه في السنة من القضاء مائتي دينار، وكان رزقه من القصص ومن ادارة بيت المال اربعمائة دينار ، وكان عطاؤه

---

(١) مسكوية : تجارب الأمم : ١٩٦/٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء : ص ٤٠٣ .

(٣) طبقات السبكي ٨٤/٣ .

(٤) الخراج : ص ١٨٦ - ١٨٧ .

مائتي دينار ، وكانت جائزته مائتي دينار . فكان مجموع رزقه في السنة ألف دينار. ومع هذا فكان لا يحول عليه الحول وعنده منها شيء يفضل على اهله واخوانه .(١)

والظاهر ان معظم القضاة في عهد عمر بن عبد العزيز لم يتناولوا راتبا اصلا، لأنه رأى أن القاضي لا يجوز له أن يأخذ نظير قيامه بالخدمة الدينية .

وفي سنة ١٣١ هـ كان رزق قاضي مصر عبد الرحن بن سالم عشرة دنانير في الشهر(٢) وكان أبو خزيمة ابراهيم قاضي مصر عام ١٤٤هـ- متحرزا جدا فيما يتعلق برزقه ، فكان اذا غسل ثيابه او شهد جنازة او اشتغل بشغل لم يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل،وقال : انما انا عامل للمسلمين بشيء غير عملهم فلا يحل لي أخذ مالهم .

وكان ان العباسيين جعلوا للقاضي مكانا رفيعا،فانهم رفعوا رزقه ايضا،فكان رزق ابن لهيعة قاضي مصر سنة ١٥٥ هـ ثلاثين دينارا في كل شهر،وكذلك كان رزق المفضل بن فضالة قاضي مصر من قبل المهدي ثلاثين دينارا شهريا. اما في عصر المأمون فقد اجرى على قاضي مصر الفضل بن غانم ١٦٨ دينارا في الشهر،وهو اول قاضي اجري عليه هذا الرزق الكبير . واجرى والي مصر عبد الله بن طاهر على قاضيها عيسى بن المنكدر ٤٠٠٠ درهم في الشهر (٢٧٠ دينارا) ولما عرف انه مقل اجرى عليه سبعة دنانير كل يوم،وهو اكبر ما عرف من رواتب القضاة في العصر العباسي . والظاهر انه كان راتبا شخصيا،وفي عهد احمد بن طولون كان القاضي بكار قتيبة يتقاضى في السنة الف دينار(٣) وزاد ذلك في الدولة الفاطميه فأصبح راتب القاضي وهو قاضي القضاة ١٢٠٠ دينار في السنة ما عدا المؤونة والهدايا.ويحدثنا الرحالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري أن رزق قاضي القضاة بمصر الفا دينار في الشهر(٤) . وذكر بن حجر أن دخل

(١) الكندي : ص ٣١٧ .

(٢) الكندي : ص ٣ ، محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية للاستاذ محمد الخضري ج١ مطبعة المعارف بمصر .

(٣) لما غضب ابن طولون على بكار بسبب امتناعه عن خلع الموفق من ولاية العهد ارسل اليه يقول : اين جوائزي ؟ فقال على حالها فأحضرها من منزلة بخواتيمها ستة عشر كيسا فقبضها ابو طولون .

(٤) الحضارة لمتز ٣٠٩/١ عن ناصر خسور ص ١٦١

القاضي عبد الحاكم سعيد الفارقي في السنة كان يزيد على عشرين الف دينار(١)

اما بغداد : فاختلف راتب القاضي فيها باختلاف الأزمان،وكان في عهد المعتضد نحو ٥٠٠ دينار في الشهر بما في ذلك اجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضي (٢). ثم دخل القضاء في الالتزام ، فأصبح القاضي يلتزم القضاء على ان يؤدي لبيت المال مبلغا معينا مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا،واول من ضمن القضاء ابن ابي الشوارب،فقد عرض على معز الدولة بن بويه مائتي الف درهم في السنة عن قضاء بغداد،ثم صار ذلك امرا مألوفا، وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة،وكان الالتزام اولا مقصورا على الخراج واكثر من ذلك ظهور نزعة قوية الى جعل المناصب وراثية،واظهر ما كان هذا في مناصب القضاء،فقد تقلد قضاء القضاة من اسرة واحدة هي اسرة ابي الشوارب ثمانية رجال ببغداد هذا عدا ستة عشر قاضيا اخر من هذه الأسرة وظل بنوابي بردة منذ حوالي عام ٣٢٥ هـ يتقلدون قضاء القضاة بفارس اجيالا كثيرة،كما ظلوا قرونا كثيرة قضاة في غزنة.وكذلك توارث آل النعمان قضاء القضاة ثمانين سنة في عهد الفاطميين بمصر وقد زادت شوكة هذه الأسر التي توارثت القضاء زيادة هائلة .

ولاية المظالم :

هذه الولاية وان كانت من صور القضاء الا انها اهم منه شأنا واعمق اثرا،فهي كما قال الماوردي : قود المتظالمين الى التناصف بالرهبة،وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة.وكان من شروط الناظر فيهما ان يكون جليل القدر ، نافذ الأمر عظيم الهيبة ، ظاهر العفة قليل الطمع ، كثير الورع ، لانه يحتاج في نظره الى سطوة الحماة وثبت القضاء،فيحتاج الى الجمع بين صفات الفريقين وان يكون بجلالة القادر الآمر في الجهتين (٣) . فهي

(١) ملحق القضاة : ص ١١٣ .

(٢) الأحكام السلطانية : ص ٦٤ ، وانظر الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص ٥٨ ، ٦٣(طبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٣٨م) .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٢ .

وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء .

والنظر في المظالم خطة قديمة،كانت قريش في الجاهلية حين كثر فيهم الزعماء، وانتشرت فيهم الرياسة،وشاهدوا من التغالب والتجاذب مالم يكفهم عنه سلطان قاهر ، عقدوا حلفا بعد حرب الفجار في دار عبد الله بن جدعان التيمي ، على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم ، وقد حضره النبي صلى الله عليه وسلم ، وتحدث به بعد البيعة،واشاد به.و لا نجد في عصرنا شيئاً اقرب الى ولاية المظالم من مجلس الدولة او المحاكم العليا التي تنشئها الدولة في ظرف معين . لان اختصاصاتها تفوق اختصاصات القضاء في امور كثيرة . وقد نظر الرسول في المظالم في الشرب الذي تنازعه الزبير بن العوام ورجل من الأنصار .

ولم ينتدب للمظالم احد من الخلفاء الراشدين الا في القليل النادر ، ومع ان علياً كرم الله وجهه جلس للمظالم،الا انه لم يعرف عنه انه افرد لسماع الشكاوي وقتا معينا او جعل لمجلسه ذاك نظاما خاصاً،وانما كان اذا جاء متظلم انصفه،وانما احتاج الى النظر بنفسه في ظلامات الرعية حين تأخرت امامته،واختلط الناس فيها ، ومالوا الى الجور.ومن امثلة المظالم التي نظرها علي حادثة المرأتين في الولد،كل منهما تدعيه فدعا بسكين ليشقه نصفين،فقالت احداهما من هول المنظر : انه ابني فكانت امه حقا .

ولما تجاهل الناس بالظلم،مست الحاجة الى ولاية المظالم لردع الغالبين وانصاف المظلومين.واول من أفرد يوما خاصا يتصفح فيه قصص المتظلمين عبد الملك بن مروان،وكان اذا وقف منها مشكل او احتاج فيها الى حكم منفذ،رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدي . فنفذ فيه احكامه فكان عبد الملك هو الآمر وابو ادريس هو المباشر.واول من جلس لمباشرة المظالم الأمويين عمربن عبد العزيز . فردها وراعى السنن العادلة واعادها ورد مظالم بني اميه على اهلها. والظاهر ان هذه الولاية اهملت بعد عمر الى نهاية الأمويين .

فلما كان العهد العباسي جلس للمظالم المهدي ، والهادي،والرشيد،والمأمون.وآخر من تولاها منهم المهتدي بالله ابن الواثق (٢٥٥ - ٢٥٦هـ).فكان يجلس للمظالم،وينظر فيما يرفعه اليه العام والخاص . وقد بنى قبة لها اربعة ابواب كان يجلس فيها وسماها قبة المظالم . وكان تقيا فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . وكان يحضر كل جمعة الى المسجد

الجامع فيخطب في الناس ويؤمهم.وكان اذا جلس المتظلم امر بأن يدفأ ويجلس ليسكن ويثوب الى عقله ويتذكر حجته ثم يدنيه ويسمع منه،ويقول : متى يلحن المتظلم بحجته اذا لم يفعل به هذا ؟ وقد تداخلته رهبة الخلافة والم البرد ؟

وكانت الظلامات تقدم مكتوبة، وكان يحدث أحيانا أن ترمى الرقعة في ورق المظالم أمام القاضي في المجلس، وكانت الأحكام تصدرمكتوبة، وقد جرت بعض هذه التوقيعات مجرى النصوص الأدبية المشهور التى تؤثر لحسنها؟.

وكانت محكمة المظالم تعقد أحيانا في المسجد،وأخرى في دار الخلافة،وخصص لها بعض أيام الأسبوع، فكان المأمون يجلس لها يوم الأحد من كل أسبوع، وكان أحمد بن طولون بمصر يجلس لذلك يومين في الاسبوع، وكان الاخشيد يجلس للمظالم بنفسه كل يوم أربعاء،.وأخذ كافور يجلس لها كل سبت، ويحضر عنده الوزير وسائر الفقهاء والقضاة والشهود ووجوه البلد(١)

وفي عهد المقتدّر جلست أمه للمظالم ، وكذا قهرمانتها ثمل، وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع، بعضها في مظالم الجند ، وبعضها في مظالم العمال، وبعضها لغير ذلك.

ولما أفضت الحكومة في مصر الى سلاطين الأيوبيين بنوا داراً للنظر في المظالم سموها دار العدل.وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار في دمشق الملك العادله نور الدين زنكى. وكان الأيوبيون يجلسون في دار العدل للنظر في المظالم،وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك . وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم،فلايقعدون فيه على كرسى الملك، ولكنهم يجلسون على كرسى بجانبه حتى تلحق أرجلهم الأرض، فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسى يجلس قضاة من المذاهب الأربعة على يمينه، ووكيل بيت المال وغيرهم من أرباب الوظائف والحرس والخاصة فيما يرى مراجعتهم فيه، ثم يمضى بما يراه.

وكان صاحب المظالم أكثر حريةً من القاضى ، وهناك فروق بين نظريهما : أهمها : ان

(١) عبد الفتاح شحاته : مصر الاسلامية وحضارتها في عهد الاخشيديين : ص ١٦٠ .

لناظرالمظالم من فضل الهيبة وقوة اليد،ماليس للقضاة،بكف الخصوم عن التجاحد ، ومنع الظلمة من الغلب والتجاذب، وأنه يستعمل من الارهاب ومعرفة الامارات والشواهد ما يصل به الى معرفة المحق من المبطل، وانه يستطيع رد الخصوم اذا أعضلوا الى وساطة الأمناء ، ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض، وليس للقاضي ذلك الا رضاالخصمين بالرد، وانه يجوز له احلاف الشهود عند ارتيابه بهم، والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك، وانه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعى باحضاربينته، ولايسمعون البينة الا بعد سؤاله(١).

أما اختصاص من ينظر في المظالم فكان واسعاً يشمل:

١- النظر في الشكاوى التي يرفعها أفراد الرعية ضد الولاة والحكام بل والقضاء اذا انحرفوا عن طريق الحق والعدل.

٢- جور العمال فيما يجبونه من الأموال.

٣- كتاب الدواوين ، فيتصفح أحوال ماوكل اليهم ، فان عدلوا بحق من دخل أو خرج الى زيادة أو نقصان اعاده الى قوانينه.

٤- النظر في تظلم المرتزقة اذا نقصت رواتبهم أو تأخر دفعها لهم.

٥- رد الغصوب سواء أكانت سلطانية تغلب عليها ولاة الجور، أو تغلب عليها ذوو الأيدى القوية .

٦- الاشراف على الأوقاف العامة والخاصة لتجرى على سبيلها، وقضى على شروط واقفيها.

٧- امضاء ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه، لعلو قدر المحكوم عليه وعظم خطره.

٨- مراعاة اقامة الشعائر والعبادات، كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها أو اخلال بشروطها.

٩- النظر فيما عجز عنه الناظرون من الحسبة في المصالح العامة كالتعدى في طريق عجز من منعه .

(١)الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ٦٩-٧٠ (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧هـ) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٢ ، والحضارة لمتز : ص ٣١٧ .

١٠- النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين، فلا يخرج في النظر بينهم عن موجب الحق ومقتضاه ، ولا يسوغ أن يحكم به الحكام والقضاة(١).

وكان مجلس المظالم لا يستكمل ولا ينتظم الا بحضور خمس جماعات وهم :

١- الحماة والاعوان، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ للعنف او يحاول الفرار من وجه القضاء ان ثبتت ادانته .

٢- القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

٣- الفقهاء ليرجع اليهم فيما اشكل ، ويسألهم فيما اشتبه واعضل .

٤- الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجه لهم او عليهم من الحقوق .

٥- الشهود لاثبات ما عرفوا عن الخصوم، وما اوجب والى المظالم من حق وامضاه. من حكم الشهادة على أن ما اصدره من الأحكام لا ينافي الحق والعدل.

ومن هذا يتبين ان قضاء المظالم كان اشد وقعا واسرع نفاذا واوسع مدى،وان اختصاصه يشمل - الى حد ما - مجلس الدولة،والقضاء العالي،ومحاكم التمييز في العصر الحاضر كما تقف على مبلغ اهمية هذه الوظيفة ، وما كان لصاحبها من السلطة ونفاذ الكلمة ، وعلى ما كان عليه النظام القضائي في الاسلام من الدقة والاحكام ، وهو نظام لا يقل ان لم يزد عن مثيله في الزمن الحالي .

الحسبة :

ومن توابع القضاء وصوره وظيفة الحسبة : وهي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله . وهو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلا له، فيتعين فرضه عليه بحكم الآية ، وان كان على غيره من فروض الكفاية . والأصل في ذلك قوله تعالى :"ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اولئك هم المفلحون"وقوله تعالى :"كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ."

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ٦٩-٧٠(مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٧هـ) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٢ ، والحضارة لمتز : ص ٣١٧ .

وتعتبر الحسبة وسطا بين القضاء العام والقضاء للمظالم . فوظيفة القاضي فض المنازعات المتعلقة بالعقود والمعاملات بوجه عام . ووظيفة المحتسب النظر فيما يتعلق بالنظام العام ، وفي الجنايات احيانا . واما صاحب المظالم فمن اهم ما يقوم به الفصل فيما استعصى من الاحكام على القاضي والمحتسب . وفي بعض الأحيان كان القضاء والحسبه يقوم بهما رجل واحد مع ما بين العملين من اختلاف ، فعمل القاضي مبني على التحقيق والاناة في الحكم ، اما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل (١) .

نشأة الحسبة :

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الزم الواجبات على الرسل والائمة،فانه من البداهة بمكان ان يكون الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو اول من باشر امر الحسبة بنفسه ، وقلدها غيره واتبعها من بعده الخلفاء ، ثم صارت ولاية من ولايات الاسلام ، ونظاما من انظمة الحكم التي جرى عليها الولاة والحكام .

ومما يشهد بان الرسول (ص) تولاها بنفسه ما روى عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله (ص) مر على صبرة طعام فاذخل يده فيها فنالت اصابعه بللا فقال : - ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : اصابته السماء يا رسول الله ، قال : افلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ، من غشنا فليس منا - . ولم يقصر الرسول الحسبة على نفسه ، ولكنه اشرك غيره في القيام بها . وممن اشركهم في هذا سعيد بن سعيد بن العاص،فقد استعمله على اسواق مكه بعد فتحها .

وسار عمر بن الخطاب على هدي الرسول في هذا الشأن . فقد روى انه رؤي مرة يضرب جمالا ويقول له : - حملت جملك ما لا يطيق - كما استعمل السائب بن يزيد ومعه عبد الله بن عتبه بن مسعود على سوق المدينة . وتوسع ذلك حين اشرك النساء في تحمل هذه الوظيفة ، فولى السيدة الشفاء على سوق المدينة ، وتولت السيدة سمراء بنت

---

(١) من اراد تفصيل الكلام عن التشابه والاختلاف بين الحسبة والقضاء والمظالم فليراجع احكام ابي يعلي ص ٢٦٨ وما بعدها،والنظم الاسلامية لصبحي ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

نهيك الأسدية هذا المنصب ايضا ، وقد ادركت النبي (ص) وعمرت طويلا ، وكانت تمر في الأسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتضرب الناس بسوط معها[1].

ويشترط في المحتسب : ان يكون حرا عدلا ذا رأي وصرامة ، وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة . لذا كان لايتولاها الا رجل وجيه في دينه ، وجيه في دنياه ، نزيه عفيف عن اموال الناس،نشيط قوي جريء شديد في الحق . وله ان يتخذ الأعوان الذين ينوبون عنه في المدن والأعمال ، ويطوفون على أرباب الحرف والمعايش في الأسواق والطرقات يفتشون القدور واللحوم واعمال الطهاة وما الى ذلك من النظر في مراعاة احكام الشرع وعقاب من يعبث بالشريعة أو يرفع الأثمان، كما يمنع التعدي على حقوق الجيران وفي ارتفاع مباني اهل الذمة على مباني المسلمين ، ويحول دون بروز الحوانيت حتى لا يعوق ذلك نظام المرور ، ويستوفي الديون ، ويكشف عن المكاييل والأوزان منعا للتطفيف ، وكان للموازين والمكاييل دار خاصة بها ، فكان المحتسب يطلب جميع الباعة الى هذه الدار في اوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايرها فان وجد فيها خللا صادرها والزم صاحبها بشراء غيرها او اصلاحها ، وبقيت هذه الدار طوال عهد الفاطميين والأمويين بمصر .

كذلك كان المحتسب يراقب السلع المعروضة في الأسواق ، فيشرف على بائعي الفراء وبائعي الحلى ، وعلى شوائي اللحوم وعلى الرواسين (بائعي الروس) وعلى الأكارع (الباجة) وعلى قلائي السمك والهرائسيين (صناع الهريسة)،كما كان يشرف على الشربين (صناع الأشربة) وهي الأدوية السائلة ، وعلى البزازين (بائعي الثياب)وعلى الحاكة وهم الذين ينسجون الغزل قماشا ، وعلى الخياطين لمراعاة جودة التفصيل وعلى الصباغين والدلالين والمنادين،وعلى الصاغة والصيارف وعلى الحمامات وقومتها .

وقد تحدث ابن خلدون عن اعمال المحتسب،فكان مما قاله : ان المحتسب يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل ،والحكم على اهل

---

(١) القضاء في الاسلام : للاستاذ مصطفى مشرفة :" ص ١٨٧ - ١٨٨ .

المباني المتداعية للسقوط بهدمها،وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ عن ضربهم للصبيان المتعلمين.

ولا يتوقف حكمه على تنازع او استعداء ، بل لما للنظر والحكم فيما يصل الى عمله من ذلك ويرفع اليه . وليس له امضاء الحكم في الدعاوي مطلقا ، بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين ، وله ايضا حمل المماطلين على الانصاف وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بينه ولا انفاذ حكم(1)

على انه يمكن حصر أعمال المحتسب في امرين اساسيين : الاول الأمر بالمعروف ويتناول حقوق الله تعالى مثل صلاة الجمعة والجماعة والعيدين ، وحقوق العباد مثل الاشراف على الأسواق وما اليها مما يتصل بالمرافق العامة وحقوق مشتركة بين الله والعباد مثل اخذ الأولياء بنكاح الأيامى ، وتكليف اصحاب الدواب باطعامها والثاني النهي عن المنكر ، ويتناول حقوق الله مثل الافطار في رمضان ، وحقوق العباد مثل الضرب على ايدي من يتعدي على حقوق الجوار ، وحقوق مشتركة بين الله والعباد مثل منع اصحاب الدواب من تحميلها ما لا تطيق .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين ، فكان للمحتسب نواب يطوفون في الأسواق فيفتشون القدور واللحوم واعمال الطهاة ، ويلزمون رؤساء المراكب الا يحملوا اكثر مما يجب حمله من السلع ، ويشرفون على السقائين لضمان تغطيتهم القرب ويراقبون لبسهم السراويل حتى لا يخرجوا على الآداب العامة .

وقد تطورت في الأندلس الحسبة بتطور البيئات ، فكانت لها في الاندلس خطة تسمى خطة الانتساب - ويتولاها قاض ، وكانت العادة فيه ان يمشي بنفسه راكبا الى الأسواق واعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد احد الأعوان وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار ان يبيع باكثر او دون ما حدده المحتسب في الورقة ولا تكاد تخفي خيانته فان المحتسب كان يدس عليه صبيا او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصا قاس على ذلك حاله مع الناس . وكان لهم في

---

(1) المقدمة : ص ٢٢٥ - ٢٢٦ انظر النظم الاسلامية لحسن ابراهيم : ص ٢٩٨تاريخ الحضارة لشلبي:ص ١٣٢ .

اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء احكام الفقه وتتبين لنا اهيمة الحسبة في الأندلس اذا علمنا ان ملوك الأسبان المسيحيين كانوا كلما استردوا من المسلمين اقليما اقروا المحتسب الذي يعهد اليه بالاشراف على الموازين والمكاييل . اما في المغرب فليس ادل على اهمية الحسبة من استمرارها في المدن المغربية الى اليوم . .

الوحدة الثالثة

النظم المالية والاقتصادية

١- مقدمة : لمحة تاريخية عن ميزانية الدولة في العصر الاسلامي

٢- النظام المالي في الاسلام:

النظم الاقتصادية

الزراعة، التجارة، الصناعة

٣- وحدات الأطوال والمكاييل والأوزان والنقود

لمحة تاريخية عن ميزانية الدولة في العصر الاسلامي :-

قامت الدولة الاسلامية بصورة رسمية بعد هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢م. فكان فتح المدينة أول فتح اسلامي ولعله كان في الحقيقة أهم الفتوح جميعا لأنه كان حجر الأساس للدولة الاسلامية (١)،تلك الدولة التي قضت على الامبراطورية الفارسية وانتزعت من الأباطرة البيزنطيين أجمل أقاليمهم (٢) .

بسبب هجرة مسلمي مكة الى المدينة تركوا معظم أموالهم وأملاكهم في مكة لكن موقف الأنصار المشرف أنساهم فراق بلدهم بما قدموا لهم من أرض وأموال ومنازل . واشتغل بعضهم في الزراعة لكسب العيش لكنهم سرعان ما استجابوا لدعوة للقتال حتى كادت الغنائم أن تشكل معظم مواردهم ونمى الرسول صلى الله عليه وسلم في البداية مالية الدولة عن طريق الفتوح والحروب وما يكون فيها من غنائم .

وكانت أول غنائم المسلمين الابل التي كانت لقريش محملة بالغذاء والبضائع في مكان بين مكة والطائف يقال له نخلة (٣) . وقد أصابت هذه النتيجة سرية من المسلمين أرسلها النبي لترصد أخبار قريش في جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة . ثم كانت غنائم في معركة بدر الكبرى التي استولى فيها المسلمون على كميات كبيرة من الأسلحة والمال .

وفي شوال من السنة الثانية للهجرة غنم المسلمون كثيرا من أموال يهود بني قينقاع الذين نقضوا عهدهم مع الرسول وأجلاهم الى أذرعات . وكانت معظم هذه الغنائم من الذهب الخالص والحلي لانهم كانوا يحترفون الصياغة (٤) وكانت أول أرض ملكها النبي (ص) هي التي وصى بها حبر يهودي من بني النضير يقال له فجيريق اعتنق الاسلام (٥) كانت أول أرض افتتحها الرسول (ص) أرض بني النضير من اليهود (٦) بعد أن حالفوا

(١) محمد ضياء الدين الريسي : الخراج والنظم الاسلامية : ص٩٢
(٢) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص٣٣٧
(٣) الطبري : تاريخ الطبري : ج٢ ، ص٢٦٢ - ٢٦٤
(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ - ج٢ ، ص ٥٢ .
(٥) انظر الكامل في التاريخ : ج٢ ، ص٥٢ - الماوردي : الأحكام السلطانية ص١٣٣
(٦) البلاذري : فتوح البلدان : ج٢ ، ص٢٨

قريشا وخططوا لقتله ، حيث أجلاهم بعد أن حاصرهم خمس عشرة ليلة ، فخلصت أرضهم كلها لبيت المال الاسلامي .

وقد قسم النبي في ذلك الوقت أموال القوم على المهاجرين فقط باستثناء سهل بن حنيف وأبي دجانه سماك بن خرشة فانهما شرحا للنبي فقرهما فأعطاهما (١) .

وفي هذا نزلت آية من سورة الحشر : " كَي لا يَكُونَ دُولَة بَيْنَ الأغنياءِ مِنكُم " (٢)

وغنم المسلمون يوم الأحزاب من السنة الخامسة للهجرة أموالا كثيرة وكميات كبيرة من الأسلحة (٣) . وتفرغ الرسول (ص) بعد صلح الحديبية لغزو اليهود في خيبر سنة ٧هـ فحاصرهم وفتح حصونهم عنوة ووزع على أهل الحديبية ما في الحصون الأخرى من مال وطعام وحيوان . ودفع الرسول (ص) بأرض خيبر ونخلها الى أهلها مقاسمة على النصف مما يخرج من الثمر والحب (٤) وولى عليهم عبدالله بن رواحة وظلوا على هذا طوال حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أبي بكر وجزءا من خلافة عمر. وصالح أهل فدك رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن له نصف أرضهم ونخيلهم ولهم النصف الآخر، فكان نصف فدك خالصا لرسول الله لأنه لم يزحف عليه بخيل ولا ركاب.

وكان يوزع ما يأتيه منه الى أبناء السبيل ثم صار بعده من صدقاته(٥) .

وفي سنة٧ هـ صالح الرسول أهل وادى القرى بعد أن فتح بلادهم،على أن يترك أرضهم في أيديهم مع نخيلهم ويقاسمهم كما قاسم أهل خيبر .

وما أن سمع أهل تيماء بذلك حتى صالحوا الرسول على الجزية (٦) .

ومنّ الله على أهل مكة بعد فتحها سنة٨ هـ على أهلها بالحرية والأموال ولم يقسم أموالها ولم يغنم منها شيء . وفي شوال من تلك السنة غنم الأموال من سكان الطائف بعد

---

(١) الماوردي : ص١٦١

(٢) سورة الحشر : آية٧

(٣) انظر : ابن الأثير : ج٢ ، ص٦٧

(٤) فتوح البلدان : ص٢٩

(٥) فتوح البلدان : ص٣٧

(٦) فتوح البلدان : ص٤١ - ٤٢

غزوة حنين،وعفا الرسول عن السبي وتأسى به المسلمون في العفو عما بأيديهم من السباء.(١)

وفي السنة التاسعة للهجرة وبعد غزوة تبوك صالح النبي (ص) أهل تبوك على دفع الجزية على كل رجل بأرضه دينار ، كما صالح أهل اذرح على مئة دينار كل رجب،وأهل جرباء على الجزيه،وصالح أكيدر وملك دومة الجندل على الجزية،(٢) وعقد الرسول (ص) في المدينة وفي السنة العاشرة مع أهل نجران العرب النصارى الذين كانوا من بني الحارث بن كعب،(٣) وكتب لهم عهدا بشروط الصلح(٤) ولقاء ذلك شرط أهل نجران على أنفسهم أن يدفعوا ألفي حلة من حلل الأواقي (اي الحلل التي يكون ثمن كل منها أوقية من الفضة وهي أربعون درهما) (٥) .

ولم يلحق الرسول (ص) بالرفيق الأعلى الابعد أن امتد سلطان الدولة الاسلامية الى شمال الجزيرة ووسطها ، والى شمال الحجاز حتى مشارف الشام .

وفي اثناء الفتح صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة على مئة ألف وتسعين درهم (٦)، فكانت أول جزية قدم بها هذا القائد من العراق (٧) . وكان قبل وفاة أبي بكر سنة ١٣ هـ، وفتح غربي الفرات من شمال الأبله الى الفراض (٨) وأعطى ذمة المسلمين لمن لم يحارب مقرا لهم على أرضهم ووضع عليهم الجزية كما أوصاه الرسول (٩) .

وفي عهد عمر بن الخطاب تم فتح بلاد الشام والعراق وبلاد فارس ومصر فكتب سعد

---

(١) الكامل : ج٢ ، ص٩٩ - ١٠٠

(٢) الطبري : ج٢ ، ص١٤٦-١٤٧- الكامل - ج٢ ، ص١٠٦

(٣) أبو عبيد : الأموال : ص٢٧

(٤) فتوح البلدان ، ص٧١-٧٢-الأموال ص٢٧-أحكام أهل الذمة : ص٦٩٨

(٥) الطبري : ١٤/٤ - فتوح البلدان : ص٢٥٢

(٦) الخضري : محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية : ج١ ، ص١٩٠

(٧) الكامل في التاريخ ج٢ ، ص٤٨

(٨) الريسي : الخراج : ص٢٤

(٩) المصدر نفسه : ص١٤٠

بن أبي وقاص الى عمر بقسمة الفيء والمغانم بين المسلمين(١) وكتب أبو عبيدة بن الجراح الى عمر بقسمة المدن وأهلها والأرض وما فيها من شجر وزرع (٢). ولكن عمر رفض ذلك واستشار الصحابة في أن تكون ارض وقف للأمة بجميع أجيالها لأنها في المحتوى لاملك موروث وبعد مناقشات شديدة وطويلة أخذ برأي عمر . فكتب الى سعد : (ان أنظر ما أجلب به المنال عليه من كراع أو مال فيقسمه بين من حضر من المسلمين ويترك الأرضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين (٣) وكتب بمثل هذا القرار لآخرين ليعرف الجميع أن الأراضي المفتوحة وقف للأمة والأجيال . وبذلك فان الخراج الذي ضرب على هذه الارض يؤدي من قبل المتصرفين فيها للمسلمين بوصفهم مجموع الأمة المالكين لتلك الأراضي .

بقي هذا المبدأ معمولا به في عهد عثمان وعلى الذي قال عندما حاول أصحابه أن يثنوا علياً عن الأخذ به (ان عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئا وضعه عمر) (٤) .

وقد وقع الخراج على الأراضي التي سميت السواد (٥)وكان عدد من وجبت عليهم الجزية (٥٥٠) ألف رجل (٦) تتراوح مقاديرها بين ١٢-٤٨ حسب فقر الرجل أو غناه .

لقد تدفق على بيت المال بعد الفتوحات الاسلامية من النفائس والأموال والمتاع والأنية والألطاف والأدهان ما لاتحصى قيمته (٧) : ولعل ذلك ما جعل عمر يفكر بتدوين الدواوين .

وقد وزع عمر الأموال على المسلمين بطريقة تخالف ما كان عليها أبو بكر الصديق فقال (لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه)(٨) وقال في الناس ما أحدكم الاوله

---

(١) انظر يحيي بن آدم : الخراج : ص١٨ - أبو عبيدة : الأموال : ص٥٩
(٢) انظر أحكام أهل الذمة ص٦٤٦ - وخراج يحيي بن آدم : ص٢٣
(٣) انظر : يحيى بن آدم : الخراج ص١٨- أبو عبيد : الأموال ك ص٥٩
(٤) انظر أحكام أهل الذمة ص٧٤٦-وخراج يحيي ابن آدم : ص٢٣-٢٤
(٥) الأموال : ص٢٧- الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٦٥-أحسن التقاسم ص
(٦) فتوح البلدان : ص٢٨
(٧) انظر الطبري : ج٤، ص١٧٧- الكامل في التاريخ ج٢، ص٢٠
(٨) الماوردي : الأحكام السلطانية : ص ١٩٠

في هذا المال حق .. وما أنا فيه الا كأحدكم ولكن على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله. فالرجل وتلاده في الاسلام والرجل وحاجته في الاسلام)(١) . فجعل الأنصبة للمسلمين متفاوتة على أسس اعتمدها متمشية مع قواعد الشريعة الاسلامية . وعلى اسس ذات علاقة بنصرة الدين والمسلمين (٢) .

ولم يفرق عمر بين المسلمين والموالي في العطاء فأشبه بهذا أبابكر الذي سوى حتى بين الحر والعبد في العطاء (٣) .

ومضى عثمان بن عفان على نهج عمر ورأيه لكن علي بن أبي طالب آثر الرجوع عند توليه الخلافة - الى رأى أبي بكر في فرض العطاء .

وقد أخذ الشافعي ومالك برأي أبي بكر وأخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق برأي عمر . ومضى على ذلك أتباع تلك المذاهب (٤) .

النظام المالي في الاسلام

النظم الاقتصادية:

أ - الزراعة :

نالت الزراعة اهتماما كبيرا من المسلمين منذ قيام الدولة الاسلامية فقد دعا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الى العناية بالزراعة والمزروعات ويتمثل ذلك في قوله :(ما من مؤمن يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طيرٌ أو بهيمة الا كان له صدقة) (٥) وقوله أيضا: (من كانت له أرض فليزرعها ، فان لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخاه المسلم ولا يؤجله اياها) (٦) وهذا جعل المسلمين يهتمون بأراضيهم

(١) أبو يوسف : الخراج : ص٤٦

(٢) انظر حول ذلك : فتوح البلدان : ص٤٥٦،٤٥، ٤٦٥-الماوردى : الأحكام السلطانية : ص١٩٢ : انظر أبو يوسف : الخراج : ص٤٣-٤٤

(٣) أبو يوسف : الخراج : ص٤٢

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص٣٥٣

(٥) الترغيب والترهيب (المنذري)

(٦) انظر تهذيب ابن القيم : سنن الى داوود : ج٥ ، ص٦-٧

الزراعية واستخراج خيراتها .

أما الدولة فكانت توجه أكبر عنايتها الى الري فعملت على بناء السدود وشق الترع والقنوات كما عملت على سد الصدوع في الأنهار. واستخدمت آلات بدائية لري السواد بشكل خاص ريا اصطناعيا،الى جانب الاستفادة من مياة القنوات كرى طبيعي. بالاضافة الى رفع مستوى المياه لتوزيعها بسهولة الى القنوات الفرعية بما أنشأته من سدود اصطلحوا على تسميتها بالنواظم .

ويظهر الاهتمام بالزراعة من استخدام الدورات الزراعية وطرق التسميد بالسماد الذي كانوا يتخذونه من فضلات الحيوانات وبقايا الرماد. وتفنن الناس في زراعة الاشجار والأزهار والرياحين. واشتهرت معظم المناطق العراقية بالحنطة، والشعير ، كما اشتهرت بانتاج الرز والقطن ولا سيما في منطقة الخابور،واشتهرت سنجار بزراعة الزيتون ، والبصرة بزراعة النخيل وقصب السكر. واشتهرت حلوان (١) بزراعة التين والبطيخ وانواع العنب. وأدخل البرتقال والليمون من الهند عن طريق عُمان،وعرف أفضل الرمان في سنجار واشتهرت مناطق العراق بزراعة القرنفل والياسمين والجوري والورد والبنفسج .

وبلغ من عناية الدولة الاسلامية بالزراعة والفلاحة أنها لم تتعرض للفلاحين بشيء من الضرر. فقد أوصى خالد بن الوليد بان لا يؤخذ من الفلاحين أي شيء من المال. وألغى عمر ضريبة النخل والكرم والرطاب لكل شيء من الأرض عونا للفلاحين،(٢) في أرض السواد .كما راعى في ذلك ما تحتمله (٣). وضم عمر بن الخطاب كثيرا من الاراضي التي جلا عنها أهلها في الشام والعراق،وبقيت دون مالكين الى بيت المال،(٤) ثم أخذ يقطعها لمن يتعهدها بالزراعة والفراسة فسميت بالقطائع.وذكر أبو يوسف (٥) ان القطائع من أرض العراق كانت كل ما كانت لكسرى،ومرازبته وأهل بيته مالم يكن في يد أحد،

(١) حلوان مدينة في أخر حدود السدود مما يلي الجبال من بغداد

(٢) أبو يوسف : الخراج : ص٣٨

(٣) الماوردي : ص١٤٢ - أحكام أهل الذمة ، ص١١٣

(٤) أبو يوسف : الخراج : ص٧

(٥) الخراج : ص٥٧

وانها كانت تسمى(صوافي الأثمار) .

ويظهر اهتمام الحكومة على تنمية الزراعة من خلال رغبتهم الشديدة استغلال الاراضي الزراعية وعدم تعطيلها (١) .

وفي العهد الأموي شجعت الظروف المواتية الناس على الاهتمام بزراعة الاراضي وغراستها . فكان معاوية يشترى من اليهود أراضيهم في وادي القرى وينمي ممتلكاته الزراعية عن طريق أحياء الموات (٢)، وولى معاوية أرض العراق المسماة بالبطائح عبدالله بن دراج فغلب الماء بالمسنيات (أي السدود) وقطع الخشب واستخرج من موات مرفوض ونقوض مياه ومغايض وآجام،ضياعا بلغت غلالها خمسة ملايين درهم (٣) وهذا يوضح مدى اهتمام الدولة بالاصلاح الزراعي.وذلك فيما بناه من السدود والمسنيات .

وفي العام السابع الهجري انفجر كثير من البثوق في البطائح وعجز الفرس عن اصلاحها فورثها العرب عظيمة الاتساع من كثرة ما انفجر فيها من البثوق (٤) فانشأوا لهذه الغاية السدود لحصر المياه وتنمية المزروعات حتى ان مساحة تلك البطائح قدرت بثلاثين فرسخا وهي مساحة عظيمة

وفي عهد هشام بن عبد الملك (٥, ١-١٢٥) اهتمت الدولة بالخراج واحصاء وارداته بدقة بالغة ، ففي مصر مثلا قام عبدالله بن الحبحاب بتقدير ما يتركه النيل من عامر وغامر (٥) بمساحة الاراضي وتحديد وظائفها .فبلغت مئة مليون فدان (٦) واهتم خالد القسري(والي هشام بن عبدالملك على العراق) بالزراعة كثيرا فحفر الأنهار وأصلح الجسور

---

(١) انظر الماوردي : ص١٨٣

(٢) فتوح البلدان : ص١٣٥

(٣) الوزراء والكتاب : ص٢٤

(٤) الماوردي : ص١٧١

(٥) خطط المقريزي : جـ١ ، ص٩٩

(٦) خطط المقريزي : ج١، ص٩٩ (الفدان أقل من نصف الهكتار بشيء قليل والهكتار يساوي عشر آلاف متر مربع

وأقام القناطر فهو الذي أقام قنطرة الكوفة التي كان عمر بن هبيرة انشأها أول الأمر (١) وحفر نهر الجامع (٢) وأنشأ السدود لمنع مياه دجلة من الفيضان وأقام قنطرة دجلة بعد أن استأذن في ذلك هشام بن عبدالملك (٣). فبلغت غلال الاراضي الزراعية في العراق في زمن خالد القسري عشرة ملايين(٤) . .

ولعل كثرة القطائع وتنوعها في عهد بني أمية هو من الظواهر في الحياة الاقتصادية اذ أمست الاراضي الزراعية ملكا أو كالملك لبعض الأشخاص والأسر بعد أن كانت ملكا للدولة أيام الفتوح، ذلك أن الديوان أحرق في ثورة ابن الأشعث سنة ٨٢هـ فاثر كل قوم أن يحتفظوا بما عليهم من القطائع لأنفسهم(٥) .

ويعتبر الايغار من الظواهر الاقتصادية في العصر الأموي : وهو أن يوغر الملكُ الرجل الأرض فيجعلها له من غير خراج أو أن يؤدي الخراج الى السلطان الأكبر فرارا من العمال (٦) .

ومن الظواهر الاقتصادية في هذا العصر الالجاء (٧)، ويقصد بها كتابة الرجل أرضه باسم أمير قوى يلجأ اليه ويحتمي به ، وعندها يقوم صاحب النفوذ بدفع الخراج ويتولى ما يتعلق بها من الناحية المالية حتى تصير في الغالب له ويصبح مالكها الوحيد. وعلى هذا فقد صارت المراغة ملكا لمروان بن محمد لأن أهلها ألجأوها اليه وكتبوها باسمه(٨)، وكذلك الجأت القرى المنتشرة في أرض البطائح الى مسلمة بن عبد الملك تقويا به واعتزازا واحتماء (٩) .

---

(١) فتوح البلدان : ص٢٩٥

(٢) المصدر نفسه : ص٢٩٤

(٣) الطبري ج٨ . ص٢٥٠

(٤) الطبري ج٨ ، ص ٢٥٠

(٥) الماوردي : الاحكام السلطانية : ص١٨٣

(٦) انظر القاموس المحيط : ماوعز

(٧) القاموس المحيط :مادة ل(جأ)

(٨) فتوح البلدان : ص٣٢٧

(٩) المصدر نفسه : ص٣٠٢

وكانت الكفالة أو الضمان (١) من تلك الظواهر الاقتصادية وذلك بأن يجعل الرجل بنفسه قبيلا فيحصل باسمه الخراج ويأخذه لنفسه لقاء الأجر المعلوم يدفعه اليه وغالبا ما كان الكفيل أو القبيل من العمال وذوي الجاهوالسلطان ولعل هذا هو السبب في قسوة نظرة الفقهاء الى التقبيل واعتبروه وسيلة لملك وأكل أموال الناس بالباطل (٢)، يقول الماوردي(٣): " فاما تضمين العمال لأموال العشر والخراج فباطل لا يتعلق به في الشرع حكم "وقال أبو يوسف في شأنه للرشيد: (ورأيت ألا تقبل شيئا من السواد ولا غير السواد من البلاد. فان المتقبل اذا كان في قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم ما لا يجب وظلمهم: وفي ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لا يبالي بهلاكهم بصلاح أمره في قبالته) (٤).

وفي العصر العباسي تطورت الزراعة وزاد اهتمام الخلفاء بها كثيرا . فقد كان عصر أبي جعفر المنصور حافلا بالاصلاح الزراعي الذي ساهم في التخفيف من الغلاء ونشر الرخاء . وتحولت الدولة من فساد في الأنظمة الى ضبط في المملكة وترتيب القواعد واقامة االناموس (٥) . ومنع المنصور اهتماما منه بالزراعة ، تحويل الاراضي الخراجية الى اراض عشرية، ففي سنة ١٤١هـأرسل عماله الى الشام يميزون بين أنواع الأراضي ويعيدون النظرفي وظائفها،التي لم تكن الا الضرائب المقدرة على كل منها (٦) .

وفي عهد المهدى حدث تطور في الاصلاح الزراعي . اذ استبدل نظام المقاسمة ونظام المساحة(٧).وقد أثنى أبو يوسف على نظام المقاسمة بقوله (لم أجد شيئا

(١) يعبر عنها التقبل والقبالة

(٢) اهل الذمة : ص١٠٨ (قال ابن عمر في القبالة : (ذلك الربا العجلان)

(٣) الأحكام السلطانية : ص١٦٨

(٤) أبو يوسف : الخراج، ص١٠٥- وانظر حول ذلك الأموال لابن عبيد ص٧٠- وأحكام أهل الذمة ص١٠٩

(٥) ابن طباطبا ؛ وفخري في الاداب السلطانية : ص١٤٢

(٦) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها : ص١٢٩٠

(٧) محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية : ص٤١٧ وما بعدها .

أوفرعلى بيت المال ، ولا أغنى بأهل الخراج عن التظالم فيما بينهم،وعظم أمر الخراج في عهد الرشيد،وازدهرت الزراعة وأجرى هذا الخليفة اصلاحات زراعية كبيرة فأمر وزيره يحي البرمكي بحفر نهر القاطول،واستخرج نهرا سماه أبا الجند كلفته عشرون مليون درهم وأجرى القمح على أهل الحرمين وزاد اعطيات الجند والقواد واتخذ كتاتيب لليتامى و أنشأ بيوتا لأهل الفتن والاداب والمروءات (١) وبلغت موارد الدولة في هذا العهد حوالي (٥٠٠) ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف (عشرة ملايين) دينار من الذهب في السنة (٢). وقد قيل أن الرشيد كان يستلقي على ظهره وينظر الى السحابة المارة ويقول : (اذهبي حيث شئت فان خراجك آت اليّ) .(٣)

وكان نظام الكبس الفارسي الأصل،من اهم الظواهر الاقتصادية في العصر العباسي وخلاصته : ان الفرس حددوا ميقات بدء جباية الخراج ليوم النيروز أول أيام السنة عندهم . وكانت السنة في تقويمهم ١٢ شهرا كاملة كل واحد منها يتألف من ثلاثين يوما فعدد أيام السنة عندهم ٣٦٠ يوما لكنهم زادوا خمسة أيام بين الشهر الثامن والشهر التاسع من سنتهم هذه،فأصبحت عدد ايام السنة الواحدة ٣٦٥ يوما (٤) فاذا علم ان السنة الشمسية ٣٦٥ يوما وربعا وخمس ساعة فانه اذا تعاقبت ١٢٠ سنة اجتمع من ربع اليوم شهر كامل ومن خمس الساعة يوم واحد فكان المجموع ٣١ يوما ولو تعاقبت ١١٦ سنة فقط اجتمع من ربع اليوم وخمس الساعة شهر تام من ثلاثين يوما ، فرأى الفرس كل ما تعقبت ١١٦ سنة أن يسموا سنتهم كبيسة لأنهم يكبسون عليها شهرا كاملا فتصبح السنة ١٣شهرا فكانوا في هذه الحالة يؤخرون نقاط النيروز شهرا كاملا .

وطبق هذا النظام منذ عهد المتوكل اذ أمر سنة ٢٤٢هـ باعادة ميقاته الى ما كان عليه فاخر الى ١٧ حزيران بعد أن تقدم حتى أضحى في نيسان.(٥)

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب : ص١٧٧ - ١٩١

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية : ص٢١٤

(٣) المرجع نفسه : ص٢١٤

(٤) البيروتي : الآثار الباقية عن القرون الخالية ك ص ٤٢-٤٤ .

(٥) حسن ابراهيم، النظم الاسلامية، مرجع سابق ص ٢١٤

فكان لعمل المتوكل أثر حسن على المزارعين والفلاحين فان ميعاد الخراج في شهر حزيران يتفق مع ادراك الغلات وجني المحصولات فلا يرهق الناس في دفع الضرائب .

ومن الظواهر في العصر العباسي كثرة الضياع. فكانت الضياع الخاصة والضياع العباسية والضياع الفراتية والضياع المستحدثة فكان على سبيل المثال للخيزران أم الرشيد من غلال ضياعها مئة وستون مليون درهم (١) .

وفي هذا العصر عرف نظام الالجاء والإيغار ، وفي مصادر التاريخ أمثلة كثيرة على هذين النظامين (٢) كما شاع أيضا نظام التقبل والقبالة (٣) وما ان انتصف القرن الثالث الهجري حتى كان هذا النظام سائدا في مختلف الأقاليم الاسلامية .

ب - الصناعة :

يشمل العمل في الاسلام أصناف العمل الدنيوي وجميع أنواع الصناعات والتصنيع. وقد دعا القرآن في آياته الى العمل ، قال تعالى : " وَقُلِ آعمَلُوا فَسَيَرى اللّهُ عَمَلَكُم وَرَسُولُهُ والْمومِنُونَ " (٤) ، وجعل العمل درجات وصنف الأجر على قدر العمل وأشاد الاسلام بالعمل اليدوي حتى عده نعمة كبيرة يجب حفظها والمداومة عليها "ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون" (٥) .

وأكد الاسلام حماية الدول لعمل العمال فقال الله :

" فَاستَجَابَ لَهُم رَبُّهُم أنّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ منكُم مِّن ذكَرٍ أو أنثَىٰ" (٦). وطلب الاسلام من المسلمين أن يخلصوا في العمل ويتقنوه فقال الرسول عليه السلام: " ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه" (٧) ، كما حث الاسلام على أن يأكل

---

(١) مروج الذهب : ج٢ ، ص١٨٨

(٢) فتوح البلدان:ص٣١٩-ص٣٣١- الوزراء والكتاب ص١١٨ خطط المقريزي -ج ١،ص٣٠٦

(٣) خطط المقريزي : ج١ ، ص ٣٠٦

(٤) سورة التوبة : اية ١٠٥

(٥) سورة يس : آية ٣٥

(٦) آل عمران : ص ١٩٥

(٧) رواه البيهقي

الانسان من كسب يده ، فيقول الرسول الكريم :" ما أكل احد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده" . وان نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده " (١)

وتطبيقا وتمثلا بما دعا اليه الاسلام فقد أقبل المسلمون على أنواع الصناعات وعملوا جاهدين على اتقانها والتفوق فيها على غيرهم من الشعوب وبخاصة بعد استقرار الأمور وبعد ان وجدوا فرص العمل والتصنيع متاحة للجميع انصب اهتمام المسلمين في صدر الاسلام على صناعة الأسلحة والآلات الحربية والعسكرية والسيوف والرماح والدروع والمغافر والرماح لأن حروبهم كانت تفرض عليهم الأهتمام بهذه الصناعة وكان لا بد لمن يستخدم الاسلحة من الألمام بصناعتها والتفنن فيها . والدلالة على انتشار هذه الصناعة الحربية ان الله يضيف للمسلمين خبرة داوود بصناعة الدروع السابغات التي قد سردها تقديرا كأنه لا يريد من اشادته بها وتمهله في عرضها الا أن يشيرهم الى ابداع نظائرها وابتكار غيرها أيضا ان استطاعوا الى ذلك سبيلا . كما في قوله : " وَلَقَد ءَاتَينَا دَاوُدَ مِنَّا فَضلا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أنِ اعمَل سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّر فِي السَّرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير"(٢)

وقوله :" وَعَلَّمنَٰهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لَّكُم لِتُحصِنَكُم مِّن بَأسِكُم " (٣)

وتعلم المسلمون في عصر الرسول صنع المنجنيق وهو آلة ترمى بها الحجارة على الأعداء . فكان النبي عليه السلام أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق(٤) وكان ذلك في حصار الطائف .

وصنع المسلمون في عهد الرسول دبابة سموها (الصنبور)،من الخشب المغطى بالجلد يختبىء فيها الجنود ليتقوا النبال الموجهة من العدو. كما كانوا يقربونها من الحصون يحاولون احداث الثقوب فيها وتقديحها. (٥) ولعل اختلاط العرب بالفرس والروم كان له أثر في تحسين وتطوير الاسلحة ،وكان الاستعداد للتفنن في الصناعة الحربية هو الذي أتاح

---

(١) انظر الترغيب والترهيب (المنذري)

(٢) سورة سبأ : آية ١٠-١١

(٣) سورة الأنبياء : اية ٨٠

(٤) سيرة ابن هشام : ج٤ ، ص١٢٦ - النظم الاسلامية : ص١٦٦ .

(٤) سيرة ابن هشام ج٤ : ص ١٢٦

لهم أن يكون لهم مركز مرموق ومشعل للحضارة .

وعرف العرب المسلمون صناعة الأزياء والحلي وأثاث المنازل . وفي القرآن آيات واشارات واضحة الى اتخاذ العرب أثاثا من أصواف النعام وأوبارها والى اعتنائهم بالأسرة والنمارق والبسط والأكواب والأباريق والموائد(١) وربما عرفت صناعة الزجاج ويستشف ذلك مما جاء في القرآن في وصف الآنية التي يشرب بها السعداء يوم القيامة قال تعالى " قَوارِيرَ من فضةٍ قَدَّرُوُها تقديراً"(٢) ونستنتج من الآية القرآنية : " وَلا تَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجَهْلِيَّةِ الاولى " (٣) " ان النساء العربيات استعملن الزينة وانواع التجميل . وكانت النساء يصنعن لأنفسهن ثوبا ذا شقوق كما كن يلبسن الجلابيب والخمور ويتخذن الخلاخيل في أرجلهن زينة لهن .

وتطورت الصناعة في العصر الأموي اذ وجدت مصانع للنسيج والتطريز تعرف بدور الطراز وكانت حواشي هذه المنسوجات تطرز بسطور يكتب فيها اسم الخليفة ولقبه . وفي دور الطراز كانت تصنع الأعلام وأزياء البلاط وخلع الخليفة على كبار القادة والموظفين.

ومن الصناعات في هذا العصر صناعة الأصباغ فكانوا يمزجون بين صبغتين فأكثر ليعملوا لونا جديدا. ومهر العراقيون بصناعة الفخار المنقوش وكان منها الجرار والقوارير والأسرجة وعرفت بغداد بشكل خاص صناعة الصحاف الزجاجية والأكواب والأباريق والأوزان والمصابيح الزجاجية .

وكثيرا ما كانوا يصنعون للشبابيك تصاميم رائعة فيها أشكال حيوانات ومناظر صيد وبعض الصور البشرية (٤).

ومن عجائب العصر العباسي : دار الشجرة التي كانت فيها شجرة من الذهب والفضة

---

(١) انظر ك الكهف ٣١، الزخرف ٧١، الرحمن٤ ، الواقعة ١٧، الانسان ١٢ ، ٢١ الغاشية ١٣-١٦، النخيل : ٨٠ و سبأ ١٣

(٢) سورة الانسان : ص ١٦

(٣) المائدة ١١٢

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٤

على اغصانها طيور فضية تصفر خلالها الريح كلما هبت(١).

ومن الصناعات في الدولة الاسلامية : صناعة الآلات الفلكية كالاصطرلاب الذي صنع من البرنز. وكانت حران مشهورة بهذه الصناعة كما صنعوا الموازين الدقيقة والمناضد الجميلة (٢) .

وتفنن العرب في صناعة الأدوات من العاج كالعلب النفيسة والاحقاق وصنع العراقيون السفن كما صنعوا القوارب التي تستخدم للنزهة حتى قيل أنه كان في بغداد وحدها حوالي ٣٠ ألف زورق (٣) .

وكانت صناعة الخشب مما برعت فيه مصر في عهد الفاطميين فصنعت المنابر والأضرحة الخشبية ونقشت عليها رسوم الحيوانات والطيور كما اشتهرت مصر بصناعة المنسوجات المزخرفة بالرسومات النباتية ، كما اشتهرت بصناعة الصابون والشمع وعرفوا كيف يستخرجون السكر وينشئون لذلك المعاصر السلطانية (٤) .

أما الشام فقد اشتهر أهلها بصناعة الورق والحرير والجلود،فكانوا ماهرين بتجليد المصاحف بأفضل أنواع الحرير والأطلس والديباج ولعل كثرة غابات البلوط والصنوبر في بلاد الأندلس هي التي ساعدت صناعة الأدوات المنزلية بشكل متميز . كما ساعدت على انتشار صناعة السفن أيضا .

ومن الصناعات التي عرفت في بلاد الأندلس في العصر الاسلامي صناعة استخراج زيت الزيتون،وصناعة الورق والجلود والخزف والفخار وصناعة الفرو التي بلغت درجة كبيرة من التفوق . كما عرفوا صناعة الحلي الثمينه وصناعة الأحجار الكريمة كالعقيق والزمرد والياقوت (٥) ولربما ان كثرة المعادن عندهم هي التي ساعدت على هذه الصناعات .

وفي المجال الطبي : اخترعوا حوالي ٢٨٠ آلة جراحية استخدمت في المستشفيات

---

(١) صبحي الصالح، النظم الاسلامية، مرجع سابق، ص ٤٠٦

(٢) أنظر : المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص ٧

(٣) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٤٠٦

(٤) المدخل في تاريخ الحضارة : ص ٧٨

(٥) المدخل في تاريخ الحضارة العربية : ص ٨٠

كالمخرط والمشرط والمحك والمسعط ومكبس اللسان والصنارة والمصبغ . كما برعوا في تحضير الأدوية وحاولوا مثلهم مثل اليونان اكتشاف الأكسير، لاعادة الشباب وإطالة العمر وهو الاكسير المسمى حجر الفلاسفة . ويعتبر العرب أول من أوجد الترشيح والتقطير والتحويل والتبخير كما حاولوا تحقيق حلم الانسان القديم بتحويل المعادن الرخيصة الى ذهب(١).

وبسبب اهتمام المسلمين بالفلك وترجمتهم لكتبه فقد استطاع ابراهيم الفزاري أحد حاشية المنصور أن يعمل اصطرلابا كان أول اصطرلاب في الاسلام، وفي عهد المأمون أنشئ مرصد للكواكب في بغداد وآخر في منطقة تبوك. وليس غريبا أن ينال الفلك هذا الاهتمام اذ أن المسلمين مرتبطين في كثير من المجالات بحركات الكواكب والأهلة والأفلاك. ولهذا الفوا الجداول الفلكية لحساب الأهلة وصنعوا آلات الرصد وعملوا على تطويرها .

ومما يدل على تطور الصناعة وتقدمها في بلاد العرب أن كثيرا منهم عرفوا الأصناف والنقابات ولا سيما في العصر العباسي فكان لكل حرفة شعارها ومراسيمها ،ولكل صناعة ممثلون . اذ كان لكل منهم ممثل لناحية برع فيها في ذلك على غرار ما ذكر عن النقباء في عصر الرسول (٢) .

ج - التجارة

يدل اشتغال الرسول بالتجارة على اهتمام الاسلام بهذا اللون من الوان النشاط الاقتصادي فقد عمل عليه السلام بالتجارة لخديجة بنت خويلد قبل الاسلام ووصف بالنشاط والأمانة . والجانب الاقتصادى منظم في القرآن الكريم أدق التنظيم فيقول الله تعالى : " وَأَحلَّ اللَّهُ البَيعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا " (٣)

ولا يمانع الاسلام من تكوين رؤوس أموال ما دامت حلالا : " وَإِن تُبتُم فَلَكُم رُءُوسُ

(١) المصدر نفسه : ص ١٥٦

(٢) انظر المرجع نفسه ، ص ٨١

(٣) سورة البقرة : آية ٢٧

أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون " (١) وحث الاسلام على امهال المدين المعسر يقول الله تعالى : " وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة(٢) كما يحث على القرض الحسن : "من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبصط وإليه ترجعون" (٣)

ويدعو الاسلام المتداينين الى أن يكتبوا صكوكا وعقودا خشية التناكر والتجاحد فيقول الله تعالى :

" يأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه " .(٤)

فليس مستغربا أن نرى معظم الصحابة قد اشتغلوا بالتجارة، ولولا انشغال المسلمين في الحروب لبقي المد التجاري ناشطاً ، ومع ذلك فان الروح التجارية بقيت ماثلة في الاوساط في اواخر العصر الراشدي وخلال العصر الاموي (٥) .

وفي العصر العباسي نمت التجارة وازدهرت. فكان الأعاجم ينافسون العرب في التجارة ، ولعل أهم العوامل التي شجعت المسلمين على العناية بشؤون التجارة انتقال الخلافة الى بغداد التي كانت تقع على ملتقى طرق العراق البرية والنهرية الداخلية، ويكفي أن نذكر أن حلة الكرخ كانت مهدا للتجارة ومحطة للقاءات التجار ، ومكانا لتصدير أنواع كثيرة من البضائع كالمنسوجات بأنواعها والأدوية والدهون والأواني المزخرفة والعطور مصنوعة من أنواع الزيت.

ويعتبر العراق بصفة عامة مركزا تجاريا متوسطا بين الشام والجزيرة العربية والشام من

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٧٩

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٠

(٣) سورة البقرة : ٢٤٥

(٤) سورة البقرة : آية ٢٨٣

(٥) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٣٩٤

ناحية وبين الصين وآسيا الوسطى من جهة ثم بين ايران والهند من جهة ثانية . ولهذه الاعتبارات كان تجار العراق وسطاء التجارة بين أطراف العالم . فكانت البصرة محطة التجارة الشرقية والبحرية وملتقى التجارة القادمة من الجزيرة العربية . ولذلك أطلق عليها (عين العراق) وكذلك كانت الموصل في شمال العراق ملتقى طبيعياً للقوافل القادمة من أرمينيا والشام وأذربيجان فكانت مخزنا يزود العراق بحاجته الغذائية عند الحاجة . فاشتهرت بتجارة الحبوب وبخاصة الحنطة كما عرفت بتجارة العسل والملح والستائر الصوفية والمسوح . وكانت الكوفة مركز التجارة المهة في أطراف الصحراء . وحران على طريق الموصل والشام ولم يقتصر الازدهار على اقليم العراق ، وانما كان الازدهار في جميع الاقطار الاسلامية .

فاشتهرت مصر بنسيج الصوف والكتان وورق البردي ، وعرفت الشام بالسكر والزيتون والزجاج والمنسوجات الحريرية . وفي سمرقند الورق الجيد الممتاز وفيما وراء النهر السيوف والقطن والفراء . واشتهرت اليمن بالعنبر والعطور ، وايران بالقلانس والجزيرة العربية بالقنا والرماح والجلود والخيل والابل (١) .

واستخدم التجار الطرق البرية والبحرية لنقل البضائع ، فكانت الدولة تؤمن الحماية بهذه الطرق من اللصوص والقراصنة . فكانت السفن بأنواعها وأحجامها تقوم بهذا الدور . وكانت البصرة أهم الطرق التي لعبت أكبر الدور في عالم التجارة والاقتصاد (٢) واستخدم التجار الحمام الزاجل لنقل الصكوك والعقود والرسائل (٣) وحلت البوصلة عندهم محل الاسترشاد بالشمس والقمر والنجوم . ونتيجة لنمو التجارة وازدهارها كبرت واتسعت المؤسسات الصيرفية ، فكان للتجار وكلاء أو عملاء في المدن الكبرى. ويرسلون للتجار الصكوك والشكوك لهم يوقع على كل منها شاهدان فأكثر،وكثيرا ما كان التجار يلجأون

---

(١) المصدر نفسه : ص٣٩٦

(٢) ناجي معروف : المدخل في تاريخ الحضارة ، ص ٦٧-٧٣

(٣) صبحي الصالح : ص٣٩٧

الى تصفية الديون بطريقة التحويل من شخص الى آخر داخل المدينة او بين مدينتين مختلفتين (١) .

وظهرت الشركات التجارية في شركات المفاوضة التي كانت تتكون من عدة أشخاص يتقاسمون الربح والخسارة ، كما عرفت شركة الضمان التي كانت تتألف من عدد من الأفراد يساهمون في رأس المال ويضامنون في الربح والخسارة .

وحدات الأطوال والمكاييل والأوزان والنقود :-

أ- وحدات الأطوال :

ورد في الأحاديث النبوية الشريفة قوله (صلى الله عليه وسلم) : (منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مديها ودينارها ، ومنعت أردبها وعدتم من حيث بدأتم(٢) .

اختلف المستشرقون في فهم هذا الحديث لدرجة أن فلها وزن اعتقد أن المقصود في هذا الحديث أن كل اقليم سيتشبث بمقاييسه ونقوده ، وان من العسير توحيد العملة في الدولة الاسلامية وان المسلمين سيعودون الى الانقسام الذي كان فيه كل اقليم ينفصل عن الأقاليم الأخرى .

(والحقيقة أن رسول الله - كما ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام - أخبر بما لم يكن ، وهو في علم الله كائن . فخرج لفظه على لفظ الماضي لانه ماض في علم الله . وفي اعلامه بهذا قبل وقوعه ما دل على اثبات نبوته (٣) .

وفي تفسير المنع وجهان : الأول أنهم سيسلمون ويسقط ما وظف عليهم فصاروا مانعين باسلامهم . والثاني: انهم يرجعون عن الطاعة والأول أحسن) . فهذا الحديث نبوءة

(١) ناجي معروف : ص٧٢ ، مرجع سابق

(٢) ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١١٢- يحيى بن آ ، الخراج : ص٧١-٧٢ من الحديث .

(٣) أبو عبيدة : الأموال ، ص - خراج يحيي : ص٧٢

بأن اهالي البلاد المذكور سيمنعون أداء الخراج اما بالاسلام أو بالخروج عن الطاعة (١) .

وتردد لفظ الجريب كثيرا مما يشير الى أنه ينبغي أن يكون هو وحدة المساحة الرسمية التي كانت تحدد على أساسها الأملاك ، وتقدر الوحدات المتعلقة بالضرائب وبخاصة قوائم الاراضي والخراج. ويكفي أن الخليفة عمر لما أمر بمسح السواد (٢) انما اقام المساحة على أساس وحدة الجريب . فقد أتفق المؤرخون على أن مساحة السواد بلغت حينئذ ستة ملايين جريب ، ثم استمر الناس يستخدمون بعد عمر الجريب وحدة للمساحات وتقدير المسافات.

ويقول الماوردي : (والخراج حق معلوم على مساحة معلومة . فاعتبر في العلم بها ثلاثة مقادير تنفي الجهالة عنها : أحدها : مقدار الجريب بالذراع الممسوح والثاني مقدار الدرهم المأخوذ به والثالث مقدار الكيل المستوفي به (٣) وبهذا أشار الماوردي الى المسافات والنقود والمكاييل . وفيما يتعلق بالجريب أشار الى ضرورة تقدير الذراع الذي يجوز أن تسمح به المسافات حتى يقدر هذا الجريب تقديرا صحيحا .

ويعرف الماوردي الجريب بقوله : (فأما الجريب فهو عشر قصبات في عشر قصبات) ثم يقول : (القصبة ستة أذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسره (٣٦٠٠) (٤).

ولعل الماوردي كان يقصدبالذراع الذراع الأسود وهو الذي كان شائع الاستعمال في عصره . وكان أول من وضعها الرشيد قدرها بذراع خادم أسود كان على رأسه وهي التي تعامل بها الناس فيقياس البز والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر (٥) .

على أنه وجد ان هناك عدة اذرع تختلف في مقاديرها : أقصرها القاضية ثم اليوسفية ثم السواد ثم الهاشمية الصغرى وهي البلالية ثم الهاشمية الكبرى وهي الزيادية

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤١٠

(٢) السواد : سمي بذلك لشدة خضرتة الضاربة الى السواد

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٦

(٤) المصدر نفسه : ص١٤٦ -١٤٧

(٥) المصدر نفسه : ص ١٤٦-١٤٧

ثم العمرانية ثم الميزانية (١) .

ويوضح المقريزي (٢) ان الذراع الهاشمية الكبرى هي ذراع الملك . واول من نقلها الى الهاشمية المنصور . وهي أطول من الذراع السوداء بخمس أصابع وثلثي اصبع . وتنقص عنها الهاشمية الصغرى بثلاثة أرباع عشر .

وسميت الزيادية كذلك لأن زيادا مسح بها ارض السواد. وهي التي تذرع بها أهل الأهواز واما الذراع العمرانية فهي ذراع عمر بن الخطاب التي مسح بها أرض السواد . وهي ذراع وقبضة وأبهام قائمة . وأما الذراع الميزانية فتكون بالذراع السوداء ذراعين وثلثي اصبع . وأول من وضعها المأمون وهي التي يتعامل الناس بها في ذرع البريد والمساكن والأسواق وكراء الأنهار والحفائر .

ويقول القلقشندي(٣) " وذراع اليد ست قبضات بقبضة انسان معتدل كل قبضة أربع أصابع بالخنصر والبنصر والوسطى والسبابة ، فتكون مساوية لـ ٢٤ اصبعاً ، أما الهاشمية فتساوي(٢٤ + ٨ = ٣٢ اصبعا) لأنهم نصبوا على أن الهاشمية تساوي ذراعا وثلثا بذراع اليد

وكان زياد بن أبيه عندما ولاه معاوية العراق وأراد قياس السواد جمع ثلاثة رجال : رجلا من طوال القوم ورجلا من قصارهم ورجلا متوسطا بين ذلك. وأخذ متوسط اطوال اذرعتهم جميعا وجعله ذراعا لقياس الأرض وهو المعروف بالذراع الزيادي . وبقي ذلك حتى جاء العباسيون فاتخذوا ذراعا مخالفاً لذلك كأنه أطول منه فسمى بالهاشمي لوقوعه في خلافة بني العباس ضرورة كونهم من بني هاشم . (٤)

ويقول الماوردي اثناء حديثه عن مساحة سواد العراق : ان الذراع الهاشمية هي التي مسح بها السواد ، فقد نقل عن قدامة بن جعفر قوله " يكون ذلك أي قدر مساحة العراق)-مكسرا- عشرة آلاف فرسخ وطول الفرسخ ١٢ ألف ذراع بالذراع المرسلة ويكون

(١) المصدر نفسه: ص ١٤٦ - أبي يعلى - الاحكام ص ١٧

(٢) خطط المقريزي : ج١ ص٩ .

(٣) صبح الأعشى : ج٣ ص ٤٤٦

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

بذراع المساحة - وهي الذراع الهاشمية - تسعة آلاف ذراع (١) .

وقد امكن تحديد الذراع الهاشمي لأنه ذراع مصري عتيق وثلث وتبين ان طول الذراع المصري العتيق (٢ر٤٦س) وهوالذراع الذي تفرعت عنه جميع الاقيسة في مصر وهو الذراع المستعمل في كتب الفقهاء وقدره (٢٤) اصبعا . اذ كان هذا الذراع المصري معروفا عند العرب . والمؤلفون يسمونه بأسماء متنوعة ، فيقولون : الذراع الصغير ، أو ذراع العامة أو ذراع القياس أو ذراع اليد أو ذراع الآدمي ، أو ذراع الصحيح (٢) .

ومن وحدات القياس القدم.وهو ثلث الذراع القديم أي (٨ر٣٠س) وان الذراع الهاشمي هو ذراع مصري عتيق وثلث أو هو قدمان بالمصري فصار معروفا ان الذراع الأصلي (٢٤ اصبعا) . وبما ان الذراع الهاشمي هو القياس ، وما دام الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقصبة ستة أذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع (٦١٤ر١٣٦٦) مترا مربعا .

وما دام الذراع المقصود ٦ر٦١س فالقصبه ٦ر٦١ × ٦ = ٦ر٣٦٩س أو ٦٩٦ر٣م وهذه هي القصبة الهاشمية ٦٩٦ر٣ .

فعشر قصبات = ٩٦ر٣٦×١٠ = ٩٦ر٣٦مكانت الناتج ٤١٦.ر١٣٦٦ م٢ وهذه هي مساحة الجريب (٣).

أما القفيز المستعمل في الأطوال والمساحات فهو عشر الجريب فتكون مساحته (١٣٦) مترا مربعا ولما كان العشر هو عشر القفيز كانت مساحته ٦٦ر١٣م٢ ومن الألفاظ المستعملة لقياس المسافات : الفلوة : وهي ٤٠٠ ذراع أو ١٨٤٨٠س) وتساوي ٨ر١٨٤م. ولتعيين مسافتها بالمتر نضرب ٢ر٤٦م وهو طول الذراع) بعدد ٤٠٠ فتكون مساحة الفلوة ٤٠٠×٢ر٤٦ = ١٨٤٨٠ وأما الميل فهو (٤٠٠٠) ذراع أو ١٨٤٨م (٤٠٠٠ ×٢ر٤٦=١٨٤٨م) وبما ان الفرسخ ثلاثة أميال فان طوله يكون ١٨٤٨×٣=٥٥٤٤ متراً

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ص ٤١

(٢) انظر كتاب الخراج والنظم المالية (الريس) ص ٢٩

(٣) انظر المرجع نفسه : ص ٢٩٨ - ٣٠٠

وبما ان البريد العربي(٤) فراسخ فلا بد ان يكون طوله : ٥٥٤٤×٤ = ٢٢١٧٦م أو ٢٢كم و ١٧٦م .

وحدات الاوزان والنقود :

كان الدرهم والدينار شائعين في العصر النبوي ، كما كان الناس يتعاملون بهما وبالذهب والفضة . فقد ورد ذكر الدرهم والدينار في القرآن الكريم بقوله تعالى : "وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا" (١) وقوله تعالى : " وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ " (٢) وقوله ايضا : " فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ " (٣) كما ورد في قوله تعالى في وصف أهل الجنه : " وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا " (٤)

ومن ذلك نستنتج ان التعامل بهذه النقود عرف في عصر الرسول اذ لو لم يكن استعمالها شائعا لما جاء القرآن بذكرهم ويقول الرسول أيضا : " تعس عبد الدرهم والدينار والدرهم والقطيفه : ان أعطيَّ منها رضي وان لم يعط لم يرض" (٥) ، كما ورد ذكر الذهب والفضة في الزكاة لتقدير المبالغ التي تجب فيها الزكاة .

ولا يعني ذلك ان الحجاز حوت دورا لضرب النقود. فما كان متداولا كان يسك في الدول الأجنبية فكانت الدنانير ترد من بلاد الروم والدراهم من بلاد فارس ومن اليمن احيانا(٦). وكان العرب يتعاملون بهذه النقود وزنا لا عددا ، فكانوا يسمون غير المسكوك منها تبرا لتمييزه عن العملة المتداولة (٧) .

---

(١) آل عمران : آية ٧٥ .

(٢) سورة يوسف : آية ٢٠

(٣) الزخرف : آية ٥٣

(٤) النسان : ٢١- محمد عزه : العصر النبوي : ص ٦٠-٦١

(٥) الترغيب والترهيب :

(٦) ابي يعلى : الأحكام السلطانية : ص ١٦٤

(٧) فتوح البلدان : ص ٤٧١ .

وكان للعرب أوزان خاصة بهم : فيذكر البلاذري " كانت لقريش أوزان في الجاهلية. فدخل الاسلام فأقرت على ما كانت عليه : كانت قريش تزن الفضة بوزن نسميه درهما وتزن الذهب بوزن نسميه دينارا " فكل عشرة من أوزان الدرهم تساوي سبعة من أوزان الدنانير. وكانت لهم الاوقية :وتزن اربعين درهما فلما جاء الرسول الى مكة اقرهم على ذلك" (١). واوضح ابو عبيد اقرار الرسول لهذه الأوزان بذكره حديث الرسول " المكيال مكيال المدينة والميزان ميزان مكة " (٢).

ولا ريب في ان العرب كانوا يعرفون منذ عهد الرسول قدر كل من الدرهم والدينار والا كيف يكلفون بأمر شرعي له علاقة بأحدهما من غير تحديد له وتوضيح لقيمته . وقد اهتم ابن خلدون بتحديد النقود وبخاصة الدرهم والدينار (أو المثقال) فقال : " أعلم ان الاجماع منعقد منذ صدر الاسلام وعهد الصحابة والتابعين ، ان الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل (دنانير) من الذهب ، والأوقية منه أربعون درهما وهو على هذا سبعة اعشار الدينار . ووزن المثقال من الذهب اثنان وسبعون حبة من الشعير . فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمس حبه وهذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع" (٣) .

ويذكر ان عمر بن الخطاب هو الذي حدد مقدار الدرهم الشرعي (٤) وان ما فعله عبد الملك بن مروان والحجاج انما جاء مبنيا على ما صنعه عمر .

وكان عمر قد ضرب الدراهم على نقش الكسروية واشكالها ولم يحاول ضرب سكة جديدة الا أنه اضاف لها نقش بعض العبارات الاسلامية وقد عثر علماء الآثار على نقود عديدة من العصور تبين من وزنها ان الدينار بوزن عبد الملك هو ٢ر٤ غرامات وما دام الدينار هو المثقال فهذا هو وزن المثقال بالغرامات .

وعلى ذلك يكون مقدار الحبة ٩.ر. غرام بتقسيم ٧٢ حبة على وزن المثقال.

---

(١) المصدر نفسه : ص ٤٧٢ .

(٢) الأموال : ص ٥٢٠

(٣) مقدمة ابن خلدون : ص ٢٢٠

(٤) الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ١٤٧

٢ر٤ - ٧٢ = ٩.و. غرام .

لأن المثقال ٧٢ حبه من حبات الشعير ، وما دام المثقال ٢٠ قيراطا فمقدار القيراط اذن ٢١٢ر. غرام. (٢ر٤ -٢٠= ٢١٢ر.) (١) . وبما ان نسبة الدرهم الى المثقال محددة وهي ٧ : ١٠ فيمكن استخراج وزن الدرهم بالدقة .

٢ر٤ × ٧
ـــــــــ = ٢,٩٧ غراما . وهذا الدرهم الذي وزن سبعة أعشار المثقال .
١٠

ولما كان الدرهم يساوى ٦ دوانق فأن الدونق يساوى ٩٧ر٢- ٦= ٤٩ر. من الغرام (أي الفضة). ولما كان الدانق قيراطين . فالقيراط يساوي ٤٩ر./٢ = ٢٤٧و، من الغرام. (آي قيراط العمله الفضية) . والقيراط = طسوجان فالطسوج يساوي٢٤٧ر. -٢= ١٢٣٧ر. من الغرام .

وبما ان الطسوج حبتين ساوت الحبة ٦.و. من الغرام والحبة تساوي فلسين والفلس = ٣..ر. من الغرام (٢) .

وكانت النقود تحدد احيانا بالقنطار ويساوي ٤ آلاف دينار (٣) .

ومن الاوزان الرطل : وهو بالبغدادي ١٢ أوقية والأوقية استار وثلثا استار اربعة مثاقيل ونصف مثقال (١/٢ ٤) والمثقال ٣/٧ ١ درهم . والدرهم ٦ دوانق. وعلى هذا فالرطل ٩٠ مثقال وهي ٤/٧ ١٢٨ درهم (٤)

---

(١) محمد ضيا الدين الريس : الخراج : ص ٣٦

(٢) المصدر نفسة : ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٣) لسان العرب : باب الراء فصل القاف .

(٤) المصباح المنير باب الراء والطاء .

الوحدة الرابعة
النظم الاجتماعية والحضارية

- المسئولية الاجتماعية .
- تحرير الرقيق في الاسلام.
- الحكام والعدل الاجتماعي.
- نظام الأسرة في الاسلام (الزواج، الطلاق ، الميراث، الوصية).

المسؤولية الاجتماعية

إننا نعيش في مجتمعات متعددة، وهذه المجتمعات تتكون من أفراد لهم أهواء ورغبات وميول،وبالتالي تتغلب عليهم النزعة الفردية، فيريد كل منهم ان يحقق لذاته اكبر قدر من الحرية، ويدفعه نهمه وغروره للحصول على ما يشتهيه،الى الاعتماد على القوة الجسدية او الفكرية او الصناعية الفائقة . واذا بالاسلام ينبهه الى حقه الطبيعي في أصول هذه الاشياء والى تبعته الاجتماعية في كل واحد منها (١).

يقول الله سبحانه وتعالى :

* زُيِّنَ للنَّاس حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النسَاءِ والبَنِينَ والقَنْطيرِ المقنطرةِ منَ الذَهبِ والفِضَّة وَالخَيلِ المُسوَّمَةِ وَالأنعَمِ والحَرثِ * (٢)

ويقول :* قُل مَن حَرمَ زِينَةَ اللّهِ التِي أخرجَ لعبادهِ والطيبات من الرزق *(٣)

ويقول : * ولاَ تنسَ نصيبَكَ مِن الدُنيا *(٤)

ثم يتسامى بالمؤمنين فوق هذه الشهوات بقوله :

* قُل إن كانَ ابآؤكُم وأبنآؤكُم وإخوانكم وأزواجُكُم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترَفتُمُوها وتجارةٌ تَخشون كسادَها ومَسَٰكنُ ترضونها أحبَّ اليكُم منَ اللّهِ ورسولهِ وجهادٍ في سبيلهِ فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره *(٥)

والجهاد الملقى على عاتق كل فرد ضروب و ألوان ، فهو جهاد الأعداء في الخارج وجهاد المستبدين في الداخل وجهاد النفس .

والجهاد بأنواعه ليس فرديا انما يكون ضمن الجماعة المسلمة فهو بذلك ينطلق بجميع طاقاته لخدمة أمته ورعاية مصالحها وحماية كيانها .

---

(١) صبحي الصالح : النظم ، ص ٤٣٦

(٢) آل عمران ١٢

(٣) سورة الأعراف ٣٢

(٤) سورة القصص آية ٧٧

(٥) سورة التوبة آية ٢٤

والفرد جزء من المجتمع ومصالحهما مرتبطة مع بعضها ، ولا يجوز أن يعمل الفرد ضد الجماعة تحت تأثير النزعة الفردية أو الحرية الشخصية ، فالحرية تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين ومصلحة الجماعة ، والمجتمع كما صوره الرسول مجموعة في سفينة ، فليس لأحد منهم حق خرق السفينة " فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وأن أخذوا على أيديهم نجوا ، ونجوا جميعا. " (١)

فالقاعدة العظمى التي تُعين المؤمنين على التعامل التام في تحمل التبعات :

هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي وان لم تشكل كل المسؤولية الاجتماعية، فهي تضمن استمرار التوازن الاجتماعي ، وهي قاعدة خارجية تتناول خارج الذات الفردية بشعبتيها الايجابية الآمرة بالمعروف والسلبية الناهية عن المنكر . (٢)

والمعروف كل ما تعرفه العقول الراجحة والفطرة السليمة بينما المنكر كل ما تنكره.

وهنا يتبين بوضوح مدى المسؤولية الاجتماعية للمؤمن الذي يقوم بالدور الايجابي المنتج آمرا بكل خير محاربا كل ضلال.

وتَحملُّ التبعات المسؤولية – في الحالة الايجابية والسلبية هو الأساس الذي يقوم عليه في التمييز بين المؤمن والمنافق ، فالمؤمن يتحمل كل تَبِعَةٍ ويخوض كل معركة " لقوله تعالى :

* إنما المؤمنونَ الذيْنَ امنوا باللهِ ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيبل الله اولئك هم الصادقون *(٢)

اما المنافقون فلا يتحملون تبعة ويفرون من كل معركة قال تعالى :

* كأنهم خشُبٌ مسندةٌ يحسبُون كُلَّ صيحةٍ عليهم * (٣)

ولتحديد المسؤولية الاجتماعية في الاسلام لا بد من ضبط الارادة ، فعنها ينشأ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) صبحي الصالح : النظم الاسلامية : ص ٤٣٨ .

(٣) سورة الحجرات : آية ١٥ .

الضمير الحي الواعي الذي يرسم السبيل الواضحة لنفسه نحو الهدف كما قال تعالى :* فمَن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً *(١)

وقال عليه السلام(لا تكونوا إمعة، تقولون : إن أحسن الناس أحسنا وان أساءوا ظلمنا، ولكن وطنوا انفسكم، ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا ألا تظلموا) .

والارادة هي التي تفرق بين الانسان والحيوان ، فهي التي تضبط النفوس المؤمنة على الخير ، وتوطنها على احسن الاعمال والأخلاق ، وتعين المؤمن على تحمل المشاق وتعصم نفسه من الشهوات .

وبناء على المعطيات السابقة نجد أن فهم المسؤولية الاجتماعية ، يعتمد على المنبع الأصيل لثقافتنا ، والتي تضعنا أمام المسئولية الشخصية والاجتماعية والانسانية : وهي الثقافة الاسلامية وفهمها فهما فكريا ، ودراستها دراسة عميقة شاملة ، ففيها سيجد الدارس علاجا شرعياً شافياً من القرآن والسنة بغض النظر اذا وافق أو ناقض عادات الآباء والأجداد وتقاليدهم.

فالشرع يحافظ ويقوى وينظم صلات التعاون بين أفراد المجتمع ، ويوجد الوئام والمحبة بين المؤمنين ، ويحافظ على العرض ويصونه من العبث والفساد ويضع الفرد المؤمن رجلاً كان أم امرأة أمام مسئوليته في العمل، ، وتحمل شئون الحياة ، ويضعهم وجها لوجه أمام مسئولية ووظائف الدولة العديدة ، ويحرم على المواطنين مباشرة أي عمل فيه خطر على الأخلاق أو فساد المجتمع (١) .

فالمسلم المؤمن المثقف ثقافة شرعية يزاول حقوقه الشرعية ، ويؤدي واجباته الدينية باخلاص وتفان ، فلا يقترب مما يخدش كرامته أو أخلاقه حفاظا على دينه ومجتمعه وأمته ووطنه .

---

(١) سورة المنافقين آية ٤

(٢) سورة المزمل : آية ١٩

(٣)سميح عاطف الزين : الثقافة ، والثقافة الاسلامية ، ص ٣٧٨ .

الاسلام والرق :

عرف العرب قبل الاسلام الرق عن طريق الحروب أو الغزو ، فكانت القبيلة المنتصرة تستولي على رجال ونساء خصومهم ويتخذونه أرقاء ، وكان هؤلاء في أحط منزلة اجتماعية يباعون في الأسواق .(١)

واذا استقرأنا التاريخ الاسلامي لمصادر الرق قبل الاسلام، نجدها كثيرة ، ولكن الاسلام- فيما بعد - حصرها في أسرى الحرب المشروعة لصد البغي والعدوان واعلاء كلمة الله بين المسلمين وغيرهم من الشعوب والأمم .(٢)

فأكد أن لارق لمسلم ولا ذمي يدفع الجزية ، علما بأن الاسلام اتبع باديء الأمر نظام الاسترقاق في بداية الاسلام كما كان في العهد الجاهلي ، فقد غزا النبي (ص) بني المصطلق ردا على استعدادهم لحربه ، فسبى نساءهم وأموالهم (٣) وكانت جويرية(احدى زوجاته) سبية . ولكن بعد ان تم ترسيخ الاسلام والقضاء على الشرك ، لم يعد يقبل من العرب الا الأسلام أو القتل .

وقد أعاد الخليفة العادل عمر بن الخطاب سبي بني تغلب الى عشائرهم وكذلك أموالهم (٤) ، وهكذا استبعد العرب من الاسترقاق ، ولم يكتف الاسلام بذلك بل حارب الرق ورغب في حربه، وفتح له كافة الأبواب والمسالك للتخلص من أغلال العبودية، كما هو الأحوال التالية :

١- جعل الاسلام تحرير الرقيق :

أ- كفارة للقتل غير المتعمد .

ب- الحنث باليمين لقوله تعالى :* ومَن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ (٥) .

---

(١) الشوكاني : نيل الأوتار ،ج٦، ص ٢٠٣ .

(٢) أحمد شفيق : الرق في الاسلام ، ص ٣٠(المطبعة الأهلية ، سنة ١٨٩١)

(٣) شحادة الناطور : دور الموالي في المجتمع الأموي ، ص ٣ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٣ ، ص٣٠٢ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٥٣٣ .

جـ- وكذلك كفارة لمن يرتكب الافطار بالعمد (١).

٢- بر الوالدين بعد وفاتهما اعترافا بفضلهما لقوله عليه السلام : (لا يجزى ولد عن والده الا أن يجزه مملوكا فيشتريه فيعتقه) . والتدبير (أي تعليق العتق بموقف أو حادث)، والوصية ، فيعتق العبد من ثلث المال . (٢)

ودعا الاسلام الى المعاملة الانسانية أثناء وجود العبد عند سيده قبل تحريره ، فحث على مشاركتهم في الأكل والملبس وعدم تكليفهم بما لا يطيقون،وتقديم المساعدة لهم . قال عليه السلام : (للمملوك طعامه وكسوته ، ولا يكلف من العمل مالا يطيق) وقال أيضا (اخوانكم خوالكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فاعينوهم عليه)(٣)

وأوجد الاسلام رابطة بين السيد والعبد تعرف بالولاء،وهذه الصلة تبقى بينهما ما داما احياء ، وأعطى الموالاة معنى المعاونة والمساعدة قال عليه السلام : (الولاء لمن أعتق وان اشترط مائة شرط) (٤) .

ونال الموالي (العبيد المتحررين) حقوقهم كاملة في فجر الاسلام وأدوا ما عليهم من التزامات نحو الدولة من تفان واخلاص ، فزيد بن حارثة أعتقه الرسول وزوجه بنت عمته زينب بنت جحش وولاه قيادة جيش مؤته (٥) ، واحتل صهيب الرومي منزلة كبيرة لدى عمر بن الخطاب وأوصى بأن يصلي بالناس عند اشتداد مرضه بعد طعنه ، وصلى عليه صلاة الجنازة (٦) مع وجود الصحابة .

---

(١) روى عن أبي هريرة انه قال : جاء رجل الى النبي (ص) فقال : هلكت يا رسول الله قال وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتي في رمضان (قال هل تجد ما تعتق رقبة.

(٢) الشوكاني : نيل الأوطار، ج٦ ، ص ٢١٧ .

(٣) الشوكاني :نيل الاوطار ج٧ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٤) الشوكاني : نيل الاوطار ج٢ ، ص ٢٨٤

(٥) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٦٣

(٦)ابن قتيبه : الامامة والسياسة ، ج١ ، ص ٢٥ .

أما سالم مولى أبي حذيفة فقد أمّ المسلمين ومعهم عمر بن الخطاب.العصبة (قرب قباء) قبل مقدم الرسول (ص) للمدينة .

٣- طلب الأجر والثواب والتقرب الى الله . قال النبي (ص) : (من أعتق رقبة ، أعتق الله بكل عضو من أعضائه من النار)(١)

٤- المكاتبة أي بيع مال بمال من أداء(٢) ، وذلك بأن يتفق المملوك مع سيده على مبلغ معين من المال مقابل حريته لقوله تعالى :

* والذينَ يبتغُون الكتبَ مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً *(٣)

ويقول النبي (ص) : المكاتب عبد ما بقي عليه من كتابته درهم) (٤) وممن نال حريته بالمكاتبه سلمان الفارسي (٥) وسيرين (٦) .

٥- المعاملة القاسية للرقيق من قبل السيد قال عليه السلام : (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه ، ومن مثل بعبده عتقه عليه)(٧)

٦- زواج الحرة بالرقيق فأولادها سيتبعونها في الحرية ، واذا كان العكس أي تزوج حر من عبدة ، فالزوج الحر لا يعدم الوسيلة لتحرير أولاده بعتق أمته فتصبح أم ولده . قال الرسول (ص) (اذا اعتق الرجل أمة ثم تزوجها بمهر جيد ، كان له أجران)(٨)

٧- ومنح الاسلام الحرية للأمة اذا مات زوجها بعد الانجاب اذا لم تكن قد اعتقت من قبل (٩).

---

(١) الشوكاني : نيل الأوطان ، ج٦ ، ص ١٩٩ .

(٢) الحصني : كفاية الأخبار ، ج٢ ، ص ١٧٩ .

(٣) سورة النور : آية ٣٣.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٦ ، ص ٣٣٤ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٧ ، ص ٨٦ .

(٦) الشوكاني : نيل الاوطار ، ج٦ ، ص ٨٠٦ .

(٧) الشوكاني : نيل الأوطار ، ج٦ ، ص ٢٩٥ .

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج٥ ، ص ١٥٥ .

(٩)ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ١٣٧ .

٨- الخروج من دار الكفر الى دار الاسلام يصبح حرا ، كما حصل أثناء حصار الطائف (١) .

وهناك وسائل أخرى لتحرير الرقيق كالنذر .

واحتل سلمان الفارسي مكانة كبيرة بين الصحابة ، فهو الذي أشار على الرسول بحفر الخندق وضحى باخلاص نادر فقال عنه الامام علي كرم الله وجهه (سلمان منا آل البيت(٢) وعمار بن ياسر نال ثقة وتقدير بن الخطاب فبعثه على صلاة الكوفة وجيوش المسلمين (٣) .

وهكذا دعا الاسلام لتحرير العبيد ، وأوجد السبل العديدة لذلك ، وقوى الروابط في المجتمع الاسلامي وجعل التميز البذل والتضحية في سبيل العقيدة القائمة على التقوى : لقوله تعالى : * إن أكرمكم عند الله أتقاكم * . صدق الله العظيم .

الحكام والعدل الاجتماعي :

١- الحاكم والدولة خادمان للرعية :

وضع الاسلام قواعد عامة للحكام تنمي شعور الارتباط الوثيق بالله عز وجل ، وتغرس فيه روح التناصح والتآزر والتعاون على البر والتقوى والتكافل في المسئولية ، باعتبار الحكم تعاقد بين الأمة وحاكمها ، ويتمثل بالبيعة على كتاب الله وسنة الرسول (ص) وصالح المؤمنين ، وتؤكد هذه المسئولية العامة جميع الأفراد القيام برعاية حدود الله. فالفرد ملك للجماعة والجماعة ملك الله ، وتصبح جهود الفرد استمرارا لحياة المجتمع ، والمجتمع كله يصير الى الله فهو واهب الحياة واليه يرجع الأمر كله ، قال تعالى .

* الذي خَلَقَ المَوتَ والحيَاةَ ليَبلُوكُم أيكُم أحسنُ عملاً،وهوَ العَزيزُ الغفُورُ* (٤)

والاسلام لايحابي الجماعة على حساب الفرد ولا الفرد على حساب الجماعة فيضع

---

(١) الحصني : كفاية الأخبار ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

(٢) المعرد : الكامل : ج٢ ، ص ٣١١ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٧٦ .

(٤) سورة الملك آية ٢ .

للدولة من نظم الحكم ومن ضمانات العدالة القضائية ومن ضمانات الأمن والسلام ومن ضمانات المعيشة الاقتصادية المعتدلة بحيث يصبح الحاكم والدولة في خدمة الفرد يأتمنهما على ماله وعرضه ودمه وفكره ومعتقده ، ويضمن ماله غير منقوص ودمه غير مستباح غير مهان .

٢- اقامة العدل المطلق بين الرعية :

ان قاعدة التوازن الاجتماعي في الاسلام عن طريق الدولة مبنية على نظام الحكم الذي يقوم على الرضى والاختيار عن طريق الشورى . قال تعالى :

* وأمرهم شُورى بينهم *(١) وقال تعالى * وشاورهم في الأمر * (٢)

واختيار الحاكم لا يتم حسب نسبه أو حسبه أو طبقته الاجتماعية انما يقوم على تقوى الله والاستعداد لاقامة العدل بين الناس لقوله (ص) : اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى (٣) .

ومن هنا الزم الله كل حاكم في الاسلام بالعدل المطلق بين الرعية لا فرق بين طبقاتهم وأجناسهم وأديانهم . قال تعالى :

* وإن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَينهُم بالقسطِ ان الله يحِبُّ المقِسطِينَ * وحذر الحكام من الميل أو الهوى وبخاصة مع الأقوياء ضد الضعفاء قال تعالى :

* يأيها الذين آمَنوا كُونوا قوامينَ بالقِسطِ شهداء للّه ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تَلوُا أو تعُرِضُوا فإن اللّه كان بما تَعملون خبيرًا *(٤)

والأمثلة كثير جدا للعدالة في الاسلام وانما نكتفي بالقصة المعروفة قصة ابن القبطي مع ابن عمرو بن العاص وعدل عمر بن الخطاب .

---

(١) سورة الشورى : آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٩

(٣) رواه البخاري

(٤) سورة النساء : آية ١٣٥ .

٣- اشتراط عدالة الشاهد :

ومما يساعد على استمرار التوازن الاجتماعي اشتراط عدالة الشاهد ، فالظن لايغني من الحق شيئا ، ولا يجوز أن تعرض كرامة الناس للأهانة بسبب الكيد أو الوشاية لقوله تعالى:

* يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا منَ الظن إنَ بعضَ الظّن إثمْ ولا تجسّسُوا *(١)

وقد شدد الاسلام على ضرورة الاحتراس من كلمات السوء المسموحة التي يقوم بنقلها الدساسون قال تعالى :

* يأَيهَا الذينءامنُوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنَبإٍ فتبيَنوُا أن تُصيبوُا قوما بجهلُه فتُصبحوُا على مُا فعلتُم نادمين * (٢)

٤ - صيانة الأعراض :

والاسلام لا يسمح لأحد ان يقذف الاعراض بل يصون الأعراض صيانة كاملة فليس لأحد أن يقتحم على أحد داره أو يتسورها عليه أو يدخلها بغير اذنه مهما كانت نيته قال تعالى :

* يأيها الذين امنوا لا تدخلوا بيوتاً غيرَ بيُوتِكم حتى تستأنسوا وتُسلموُا على اُهلها ذالكم خيرٌ لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليمٌ * (٣)

٥- تشدد الاسلام في فاحشة الزنى :

شدد الاسلام في فاحشة الزنى ليردع الزناة من الفاحشين والفاحشات وتوعدهم باقسى العقوبات.
قال تعالى * ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً * (٤)

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٢

(٢) سورة الحجرات : آية ٦

(٣) سورة النور : آية ٢٨

(٤) سورة الاسراء : آية ٣٢

قال تعالى

* الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدةٍ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر وليشهد عذابهما طائفةٌ من المؤمنين الزاني لا يَنكِحُ إلا زانيةً أو مشركة والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ وحُرِمَ ذلك على المؤمنين *(١)

ويهدف الاسلام من التشديد على الجريمة أن يتوازن البيت ويبقى متماسكا حتى لا تحطمه الفحشاء.

أما الذين يرمون المحصنات ولم يأتوا بأربعة شهداء فعاقب هؤلاء بالجلد عقوبة بدنية واسقاط شهادته لقوله تعالى :

* والذين يرمونَ المحصناتِ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدةً ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئِكَ هم الفاسقونَ إلا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيمٌ*(٢)

وباستطاعة الحكام لاقامة العدل الاجتماعي بجانب ما تقدم ضمانة العدالة الاجتماعية في توزيع ثروة الأمة على الطبقات كلها بالقسطاس بحيث لا تكون محصورة في طبقة معينة ولا اقليم معين ، لان هذا يخالف منطوق العقل الذي فرضه الله ، قال تعالى :

*واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً(٣) .

وكذلك تقديم معونة الزواج للشباب لمن يرغب فيه وكان لا يقدر عليه (٤) .

نظام الأسرة :

الأسرة مؤسسة اجتماعية تنبعث من ظروف الحياة والطبيعة الانسانية وهي ضرورة واجبة

(١) سورة النور : آية ٢ ، ٣

(٢) سورة النور : آية ٤-٥

(٣) سورة النساء : آية ٥٨

(٤) صبحي الصالح : ألنظم الاسلامية ، ص ٤٨١

لبقاء الجنس البشري ودوام الوجود الاجتماعي ، فقد أودع الله في الانسان هذه الضرورة على صورة فطرية ٠(١)

والأسرة انما هي اجتماع بين الرجل والمرأة واتحاد دائم مستمر بينهما ، وسكن كل واحد منهما الى الآخر على صورة يرضى عنها المجتمع ، لأنها المرتكز الذي تنهض عليه المجتمعات في مختلف العصور والبقاع ، وهي الملاذ للانسان يأوى اليه فيجد فيه من دفء العاطفة في حنان الأبوين وتجاذب الأخوة والأخوات ، ما يسكب في نفسه وضميره فيضا من الفرح والحبور والرضا (٢) ٠

وقد عنى الاسلام بالاسرة عناية كبيرة ، فجعلها أساس المجتمع ، فحض على الزواج ورغب فيه ونهى عن الرهبانية والفردية ، حفاظا على الفرد والأسرة والمجتمع ٠

وقد وردت في الشريعة الاسلامية نصوص كثيرة تدعو الشباب الى الزواج ٠

قال عليه السلام (من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع منكم فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء)(٣) ، وقال النبي (ص) يصف المرأة المؤمنة (ألا أخبركم بخير ما يكثر المرء : المرأة الصالحة اذا نظر اليها سرته ، واذا غاب عنها حفظته واذا أمرها أطاعته)

ونهج الاسلام للأسرة هو ما يلائم طبيعة الوجود ويتفق مع الحياة الاجتماعية اذا أريد تهذيبها والسير بها في طريق العدل والكمال ٠

وتتألف الأسرة عادة من الأبوين يرعون الأبناء والبنات ، وتجمع بينهم صدق العاطفة الحانية في حدود ما شرع الله لعباده من أحكام وتعاليم ، فهم أعضاء متشادون تضمهم أسرة واحدة مؤتلفة تقوم على الود والعطف في اخلاص وبر ٠

---

(١) عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الاسلامية ، ص ٢٥٩ ٠

(٢) أمير عبد العزيز : الانسان في الاسلام : ص ص ١٧٠ ٠

(٣) وجاء : يكسر حدة الشهوة ٠

وحتى تتحقق اقامة الأسرة على أساس متين عنيت الشريعة الاسلامية بأحكام الزواج وما ياترتب عليه من حقوق وواجبات :

الزواج :

وهو الرابطة التي تقوم بين الرجل والمرأة وتتم على صورة يرضى عنها المجتمع وينظمها تنظيما خاصا، فجعلت الزواج عقداً يتم بقبول الطرفين ففي عقد الزواج تعتبر العروس طرفاً فلا زواج بدون موافقتها ، والا كانت الخطوبة والزواج باطلين.

فهو عقد مشروع بقوله تعالى :

* فَانكِحُواْ ما طَابَ لكُم مِنَ النِساءِ مَثنَىٰ وثُلٰثَ ورُبٰعَ فَإن خِفتُمْ ألا تَعدِلُوا فواحِدَةً أو مَا مَلَكَتْ أيمانكم ذٰلك أدنى ألاّ تَعُولُوا (١)* وقوله تعالى : * وأنكحوا الأيٰمى منكم والصالحين من عِبادكُم وإمَائكُم *

قال النبي (ص) : (وتزوجوا الودود الولود ، فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة)

(روى البخاري عن امرأة تدعى خنساء بنت خدام الأنصارية) زوجها أبوها من رجل بدون رضاها ، فأتت رسول الله (ص) وشكت اليه أمرها ، فرد نكاحه. (٢)

وعن عائشة عن النبي (ص) (لا تنكح الأيم حتى تستأمر والبكر حتى تستأذن، فقالت عائشة : يا رسول الله : البكر تستحي قال رضاها صمتها)

أركان الزواج :

ولصحة الزواج يجب توافر أربعة أركان :-

١- الولي

وهو أبو الزوجة أو الوصي الأقرب فالأقرب من عصبتها لقول النبي (ص) :

(لانكاح إلا بولي) (٣) وقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) (لا تنكح

---

(١) سورة النساء : آية ٣

(٢) وهناك أحاديث كثيرة حرم فيها تزويج المرأة بدون ارادتها رواها أبو داوود ، والنسائي وابن ماجه ، وأحمد .

(٣) أصحاب السنن / انظر المذاهب الأربعة ج٤ ، ص ٢٦ .

المرأة الا باذن وليها أوذى الرأي من أهلها أو السلطان)(١) ويشترط في الولي أن يكون ذكرا عاقلا رشيدا حرا بالغا ، وأن يستأذن وليته في زواجها ممن أراد تزويجها ان كانت بكرا وكانالوليوالدها ، ويستأمرها ان لم يكن غير أبيها لقوله (ص) (الأيم أحق لنفسها من وليها ، والبكر تستأذن ، واذنها صمتها)(٢).

ولا تصح ولاية القريب مع وجود الأقرب منه (٣) ، واذا أذنت المرأة لاثنين من أقربائها في تزويجها ، فزوجها كل منهما رجلاً فهي للأول منهما ، وان وقع العقد " في وقت واحد " بطل زواجها منهما معا ".(٤)

٢ - الشاهدان :

والمقصود ان يحضر عقد الزواج اثنان فأكثر من الرجال العدول من المسلمين لقوله تعالى : * واشهدوا ذوي عدل منكم *(٥)

وقول الرسول (ص) : (لا نكاح الا بولي وشاهدي عدل) (٦) ويشترط في الشاهدين :

أن يكونا عدلين (٧) ،(والعدالة تتحقق باجتناب الكبائر وترك غالب الصغائر فالفاسق الذي يزني أو يشرب خمر أو يأكل الربا لا تصح شهادته) ، وبالغين ، عاقلين.

٣- العقد :

وهي قول الزوج أو وكيله في العقد زوجني ابنتك أو وصيتك فلانه ، وقول الولي :

---

(١) رواها الامام مالك في الموطأ .

(٢) رواه الامام مالك في الموطأ .

(٣) لا تصح ولاية الأخ لأب مع وجود الشقيق ولا ولاية ابن الأخ مع وجود الأخ .

(٤) أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم ، ص ٤٠٦ .

(٥) الآية وان كانت في الرجعة والطلاق غير أن الزواج مقيس عليها ..

(٦) رواه البيهقي والدار قطني ورواه الشافعي عن طريق آخر .

(٧) الفقه على المذاهب الأربعة / الأحوال الشخصية ، ج٤ ، ص ٨ .

لقد زوجتك ابنتي أو موكلتي فلانه ، فهي ايجاب وقبول هما مرتبطان معا (١) وفي مجلس واحد .

٤- أما المهر او الصداق وهو ما يدفعه الرجل لخطيبته ، فهو هبة أو هدية من الطرف الأول للثاني ، وهو حقها ، ولا يجوز التصرف به كما كان في الجاهلية، قال تعالى :

* وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً * (٢) .

والمغالاة في المهور عادة جاهلية ، كان العرب قبل الاسلام يصرون عليها لأنها تعود إلى جيوبهم، فلما جاء الاسلام قلل من اهمية المهر ولم يعتبره شيئاً أساسياً في الزواج فقد قال النبي (ص) لرجل لم يكن لديه ما يدفعه (التمس ولو خاتما من حديد) (٣)

وعن جابر بن عبد الله عن النبي (ص) أنه قال لو أن رجلا أعطى صداقا ملء يده طعاما كانت حلالاً له (٤).

وحض الرسول على المهر اليسير : فقال : (اعظم النكاح بركة أيسره مؤونه) وفي حديث آخر قال (خير الصداق أيسره)

وما يتم في مجتمعاتنا من المهور الخيالية انما هي عودة للعصر الجاهلي،حيث كان المهر ثمنا للمرأة ، وعلامة للتباهي والتفاخر ، وهذا ما حاربه الاسلام،واعتبر المهر هدية أي رمزاً للمحبة والوئام : قال النبي (ص) (تهادوا وتحابوا) (٥)

ولعل من دواعي الزواج :

أ- المحافظة عى الجنس البشري بالتناسل في هذا الكون ليذكروا الله ويسبحوه بكرة وأصيلا .

ب - حاجة الانسان لقضاء غريزة فطرية ، وهي بالتالي تحافظ على نفسه ونسله من

---

(١) الفقه على المذاهب الأربعة / الأحوال الشخصية ج٤ ، ص١٢ .

(٢) سورة النساء : آية ٤ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) سنن أبي داوود: مسند أحمد .

(٥) رواه البخاري .

الأمراض الفتاكه في حالة مزاولتها بالطرق غير الشرعية .
ج- تعاون الأبوين على تربية ابنائهما التربية الصالحة .
(يموت ابن آدم الا من ولد صالح يذكره بالخير) .
- تنظيم العلاقة بين الجنسين :

تقوم العلاقة بين طرفي الزواج، الرجل والمرأة على أساس من تبادل الحقوق والتعاون المثمر في دائرة المودة والمحبة والاحترام والتقدير المتبادل (١).

آداب الزواج في الاسلام :

١- الخطبة : وتتم عادة بعقد مجلس خاص للاتفاق على المهر والصداق ، وهي الطريقة التي كان يجري بها الاعلان عن الزواج في عصر النبي (ص) والصحابة ، وتتم بالاشهار والعلنية ، ويرى الامام مالك أن الزواج اذا اقتصر على شاهدين وبقي سرا هو زواج باطل .
ومن الأمور الواجبة ما روى عن النبي (ص) قوله (اذا أراد احدكم أن يخطب لحاجة من نكاح أو غيره فليقل الحمد لله)(٢)

٢- الوليمة :

وهي طعام العرس ، ويجب حضور من يدعى اليها ، لقول النبي (ص) من دعي الى عرس أو نحوه فليجب)(٣) والوليمة محببة في الاسلام لقوله عليه السلام لعبد الرحمن بن عوف لما تزوج (أولِمْ ولو بشاة) (٤) ، ويجب أن يدعى للوليمة الأغنياء والفقراء فلا تكون مقصودة على أهل الثراء لقوله (ص) (شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى من يأباها)(٥).

٣- اعلان الزواج :بدف وغناء مباح . قال النبي (ص) (فصل ما بين الحلال والحرام

(١) المذاهب الأربعة ، ج٤ ، ص ٩٦ .
(٢) أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم ، ص ٤٠٦.
(٣) رواه الترمذي .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه مسلم .

الدف والصوت)(١).

وروى البخاري عن السيدة عائشة أنها زفت امرأة الى رجل من الأنصار . وسارت معها في موكب زفافها الى بيت زوجها ، فقال النبي (ص) يا عائشة أما كان معكم لهو فان الأنصار يعجبهم اللهو).

٤- الدعاء للزوجين بالسعادة والتوفيق والهناء ، فكان النبي (ص) اذا رفأ الانسان تزوج - قال : (بارك الله لك ، وبارك عليك ، وجمع بينكما في الخير)(٢) كما يجب من الرجل ان يقتدي بالنبي (ص) فيقول (اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما جبلتها عليه،وأعوذ بك من شرها ، وشر ما جبلتها عليه (٣) .

٥- وعندما يرغب المعاشرة الزوجية ، أن يبدأ بقوله : (بسم الله ، اللهم جنبني الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا) .

٦- المحافظة على اسرار المعاشرة الزوجيه والحياة الزوجية لقو ل النبي (ص) : (ان من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : الرجل يفضي الى المرأة وتفضي اليه ثم ينشر سرهما (٤).

٧- ومن آداب الزواج أن لا تتزوج الابنة الصغيرة الشابة شيخا كبيرا ولا رجلاً دميما ، واختيار المرأة الزوج المتمسك بدينه ، الموسر ، صاحب الخلق الحسن ، فلا تتزوج معسراً لا يستطيع الانفاق عليها أو موسرا شحيحا فتقع في الفاقه والبلاء .(٥).

الحقوق الزوجية :

بينت الشريعة الاسلامية حقوق الزوجين قال تعالى (* وَلَهُنَّ مثل الذي عليهنَّ بالمعروف *) (٦) ، وقال النبي (ص) ان لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم

(١) رواه أصحاب السنن الا أبو داوود .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .
(٥) الفقه على المذاهب أربعة .
(٦) سورة البقرة : آية ٢٢٨.

حقا (١).

١- حقوق الزوجة على زوجها :

١- الانفاق عليها من طعام وشراب وكسوة وسكن بالمعروف ، وعدم ضربها واهانتها أو هجرها ، لقول النبي (ص) لمن سأله عن حق المرأة على الزوج (تطعمها اذا طعمت ، وتكسوها اذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح (٢)، ولا تهجر الا في البيت) - اي لا يحولها الى بيت آخر يهجرها فيه (٣) وهكذا وبموجب النظام الاسلامي يترتب على الزوجالانفاق على زوجته مهما كانت غنية ، فهي غير مجبرة على المشاركه في النفقات بالبيت ، ولكنها في الوقت نفسه لا يحق لها العمل الا برضاه وبموافقته ، حيث يرى بعض الأزواج أن تربية الأطفال والعناية بالبيت والاعداد لحاجات الأسرة يتفق مع السعادة الزوجية أكثر مما قد تدخله من راتب اذا كان وضع الزوج ميسورا .

٢- المعاشرة الزوجية ولو مرة كل أربعة اشهر اذا عجز على قدر كفايتها لقوله تعالى: * للذين يؤلون من نسآئهم تربص أربعة أشهر فان فاءوا فان الله غفوررحيم* (٤).

٣- العدل في المعاملة وبخاصة اذا كان متزوجا بأكثر من واحدة ، العدل في المعاملة حتى المبيت لقول النبي (ص) (من كانت له امرأتان يميل لاحداهما عن الأخرى ، جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطا أو مائلا)(٥).

٤- السماح لها بزيارة أقاربها زيارة لا تضر بمصالح الزوج ، أو تمريض أحدمحارمها ،أو شهود جنازة أحد أقاربها .

---

(١)رواه الترمذي .

(٢) لا يتلفظ بألفاظ جارحة كأن يقول (قبح الله وجهك) .

(٣) رواه أحمد ، وابو داوود وابن حيان .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٢٦.

(٥) رواه الترمذي .

حقوق الزوج على زوجته :

١- الطاعة بالمعروف في غير معصية الله ، والطاعة في الأمور التي تقدر عليها ولا يشق عليها ذلك . لقوله تعالى : .

* فَلاَ تَبْغُوا عليهِنَ سَبِيلاً *(١) وقول الرسول (ص) : لو كنت آمرا أحدا ان يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) (٢).

٢- المحافظة على زوجها وصون عرضه ، فلا تخرج من بيته الا بإذنه لقوله تعالى :

* حَفِظتٌ للغيب بما حفظ الله * (٣) وقال الرسول (ص) :

(خير النساء التي اذا نظرت اليها سرتك ، وان أمرتها أطاعتك ، وان غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)(٤).

٣- تسليم نفسها له متى طلبها للمعاشرة الزوجية ، فالمعاشرة من حقوقه عليها لقول النبي (اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فابت أن تجيء فبات غضبانا عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح)(٥) .

٣- استئذانه في الصوم في النوافل اذا كان حاضرا غير مسافر لقوله (ص) :

(لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد الا باذنه)(٦)

تعدد الزوجات :

كان تعدد الزوجات من العادات الشائعة في الجاهلية ، جاء في كتاب المحبر لابن حبيب ذكر ستة رجال جاء الاسلام وعند كل واحد منهم عشرة نسوه وهم من بني ثقيف في الطائف ، وأمر النبي (ص) غيلان بن سلمة (أحدهم) أن يختار أربعا

---

(١) سورة النساء : آية ٣٤ .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) سورة النساء : آية ٣٤.

(٤) رواه ابو داوود .

(٥) متفق عليه .

(٦) متفق عليه .

ويطلق بقيتهن ، وكذلك فعل سفيان بن عبد الله وأبو عقيل مسعود بن عامر متعب (١) وكذلك أسلم قيس بن الحارث وعنده ثمان ،فأمرهما الرسول (ص) أن يختارا أربعة ويطلق الباقي .(٢).

فقد كان العرب ينظرون الى تعدد الزوجات كنوع من الرق الذي يمارسه الرجل على المرأة ، فكما يحق له أن يمتلك ما يشاء من الرقيق كان يحق له أن يمتلك ما شاء من النساء وكان يعتق المرأة بارادته المنفردة بنفس الطريقة التي يعتق بها عبده وأَمَته (٣) .

وجاء الاسلام فاباح التعدد فحصره بأربعة نساء وجعل العدل بينهن شرطاً لاباحته، واوجبت الشريعة الاكتفاء بواحدة اذا خيف عدم العدل بينهن على النحو الذي نصت عليه الآية *فانكِحُوا مَا طَابَ لكُم مِنَ النسآءِ مَثْنَى وثُلَٰثَ ورباع فإن خفتم ألا تعدِلوا فواحدَةً*(٤). ثم استطردت وقالت باستحالة العدل بين الناس ولو حرص عليه الرجل كما جاء في الآية ، قال تعالى :* ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم* (٥) ، وبذلك ربط القرآن اباحة التعدد على شرط شبه مستحيل ، ولكن رجال الفقه الاسلامي فسروا (العدل) في الآية الأولى بالمسائل المادية كنفقة الطعام والملبس والمسكن والمعاشرة الزوجية ، وقالوا ان عدم العدل فيها حرام ويحاسب عليه عند الله في الآخرة ، وفسروا العدل في الآية . قال تعالى :

* ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم* (٦) بالحب والميل النفسي، وهذا الشيء لا يمكن العدل فيه لانه ليس بارادة الانسان فلا يستطيع التحكم بعواطفه وغرائزه ، فعندما تكون أحدى زوجاته فتية جميلة والأخرى

---

(١) ابن حبيب : المحبر ، ص ١٥٧.
(٢) رواه ابن ماجه وأبو داوود .
(٣) انظر تقسيم الطبري : ج٤ ، ص ١٥٧ .
(٤) سورة النساء آية ٣
(٥) سورة النساء آية ١٢٩ .
(٦)سورة النساء : آية ١٢٩ .

عجوز كبيرة السن فعدم العدل فيه ليس بحرام (١) ، وقد ورد بالحديث الشريف قول النبي (ص) من كانت له امرأتان يميل لاحداهما على الأخرى ، جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطا أو مائلا).

وحين أباح الاسلام التعدد في الزواج فقد عالج اسبابا كثيرة تدعو اليه أبرزها :

١- عدم صلاحية المرأة للانجاب كأن تكون عقيما ، ورغبة الرجل في الذرية والخلف ، وهنا لا يكون أمام الرجل الا الطلاق اذا لم يكن يسمح له بالزواج من أخرى ، وفي طلاقه لزوجته إساءة لها ، فهي تفضل البقاء في بيتها ولو شاركتها امرأة اخرى .

٢- مرض الزوجة بحيث لا تستطيع القيام بواجباتها الزوجية ، فبقاؤها في بيتها الى جانب امرأة أخرى أصون لكرامتها وأحفظ لحقوقها .

٣- وضع حد للمرأة النشاز التي تكثر من المشاكل لزوجها فتقضي معظم وقتها في بيت أهلها أكثر من بيت الزوجية ، فلعل الزواج يعيد لها عقلها ويجعلها تصحو ، وتصبح زوجة مطواعة ومخلصة لبيتها واولادها .

٤- تصحيح لخطأ وقع بين رجل وامرأة وكانت المرأة فريسة لهذا الغلط الذي يؤذي سمعتها وكرامتها ، والدافع للأذى هو الزواج ولو كان متزوجا .

٥- وقد يكون ضرورة مهمة بعد الحروب وبعد فناء عدد كبير من الرجال ، فتصبح النساء الغالبية الكبرى في المجتمع ، وهنا تصبح الحاجة ماسة لذلك للمحافظة على تماسك المجتمع وصيانة الأخلاق العامة ، وبقاء العلاقات بين الرجال والنساء مشروعة ، فالتعدد يرمم كيان الأمة من جديد (٢) .

وهناك من يلصق بالشريعة تعليلات وهمية أخرى وجميعها تهتم بغرائز الرجل دون الاهتمام بالمرأة ودون أن يعير مشاعرها وكرامتها أي اهتمام، فللمرأة نفس مشاعر الرجل في اخلاص كل منهما للآخر، فكل امرأة يسؤوها أن ترى امرأة أخرى تشاركها في زوجها . وما المشاحنات والتباغض بين الضرائر الا التعبير الصارخ والضمني لكراهيتها (٣)، لتصرف الزوج الذي يؤذي

---

(١) ابراهيم فوزي : احكام الأسرة في الجاهلية والاسلام ، ص ٩٩ .

(٢) عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الاسلامية ، ص ٢٦٩ .

(٣) ابراهيم فوزي : أحكام الأسرة في الجاهلية والاسلام ، ص ١٠٠ .

مشاعرها بالزواج عليها وقد روى البخاري عن (المسور بن مخرمة) أن علي بن أبي طالب أراد الزواج على فاطمة بامرأة من بني المغيرة فاستأذنوا النبي (ص) فلم يأذن لهم وقال من على المنبر (ان بني هشام بن المغيرة استأذنوا مني أن ينكحوا ابنتهم علي بن ابي طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ...)(١)

الزواج الفاسد :

نهى النبي (ص) عن الأنواع التالية من الزواج :

١- زواج المتعة :

وهو الزواج الذي يتم الى أجل مسمى بعيدا كان أم قريبا سواء أكان شهرا أو سنة أو أكثر ، وذلك للحديث المتفق عليه عن علي رضي الله عنه أن رسول الله (ص) نهى عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر).

فحكم الزواج باطل ويجب فسخه متى وقع ، ويثبت فيه المهر ان كان دخل بالمرأة وإلاّ فلا (٢).

٢- زواج الشغار :

زواج البدل بدون مهر لقول النبي (ص)، لاشغار في الاسلام (٣) وقول ابن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) (ان رسول الله (ص) نهى عن الشغار ، والشغار أن يزوج الرجل ابنته على ان يزوجه ابنته وليس بينهما صداق (٤)وأما اذا أعطى صداق فهو جائز .

٣- زواج المحلل :

وهو زواج احد الرجال من امرأة مطلقة ثلاثا وهدفه أن يحللها لزوجها الأول ، فهذا الزواج باطل ، ولا تحل الزوجة لمطلقها الأول ، ويثبت المهر للزوجة وان وطئت ثم يفرقها : قال ابن مسعود : (لعن رسول الله (ص) المحلل والمحلل له) (٥)

---

(١) رواه البخاري .
(٢) أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم ، ص ٤١٦ .
(٣) رواه مسلم .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه الترمذي .

٤- زواج المُحْرِم

فمن كان محرما في حج أو عمره ، وتزوج قبل أن يتحلل كان زواجه باطلا ، وبعد انقضاء حجه أو عمرته جدد عقد الزواج لقوله (ص) (لا يَنْكِح المُحْرِم ولا يُنْكَح) (١).

٥- الزواج قبل انقضاء العدة للمرأة :

فاذا طلقت امرأة أو مات زوجها فيجب قضاء العدة الشرعية ، فاذا تزوج امرأة قبل قضاء العدة يعتبر العقد باطلا ويفرق بينهما ، ويثبت المهر للمرأة ان كان قد خلا بها ويحرم عليه أن يتزوجها (٢) بعد انقضاء عدتها عقوبة له وذلك لقوله تعالى : * ولاَ تعزمُوا عُقْدَةَ النِكَاحِ حتى يَبلُغَ الكِتٰبُ أَجَلَهُ *(٣).

٦- الزواج بلا ولي الأمر :

فلا زواج من المرأة بدون اذن وليها، واذا تم فهو باطل لنقصان ركن من الأركان يقول النبي (ص) : " لا نكاح الاّ بولي" . والحكم الشرعي أن يفرق بينهما ويثبت للعروس المهر ان مسها ، وبعد الاستبراء ، له أن يتزوجها بعقد وصداق بموافقة وليها .

٧- نكاح الكافرة غير الكتابية :

فلا يجوز للمسلم أن يتزوج مجوسية أو وثنية أو شيوعية ان كانت لا تؤمن بالله ، وكذلك المسلمة ان كان كافرا . لقوله تعالى :* ولاَ تنكحوا المشركٰت حتى يؤمنّ *(٤)وقوله تعالى : لا هن حلٌ لهم ولا هم يحلون لهن* (٥)

المحرمات

١- التحريم المطلق :

١- التحريم بالنسب وَهُنَّ الأم والجدة من جهة الأب والأم (البنت) وبنتها ، وبنت الابن وبنتها ، والأخت وما تناسل منها ، والعمة والخالة ، وبنت الأخ وبنت الأبن وبنت الآبنة

---

(١) رواه مسلم .

(٢) أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم ، ص ٤١٦ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣٥.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٢١.

(٥) سورة الممتحنة : آية ١٠.

وذلك لقوله تعالى : * حُرِمَتْ عَليكُمْ أُمهتُكُمْ وبَنَاتُكُمْ وأَخواتُكمْ وعَماتُكمْ وخَالتُكمْ وبنات الأخ وبناتُ الأختِ *(١)

٢- التحريم بالمصاهرة : زوجة الأب وزوجة الجد ، وأم الزوجة ، وجدتا وبنت الزوجة وبنت بنت الزوجة ، أو بنت ابنتها ، لقوله تعالى :

* ولاَ تنكحوا ما نكحَ ءَابَاؤكم من النساء(٢) وقوله تعالى * وأمهت نسئكم وَرَبٰئِبكُمْ التي في حجوركم من نسائكم الّتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم(٣) . *

وكذلك زوجة الابن أو ابن الابن لقوله تعالى : * وَحَلَئِلُ أَبْنَآئِكُمُ الذين من اصلبكم *.

٣- المحرمات بالرضاع :

والرضاع المحرم ما كان دون الحولين وتحقق معه وصول لبن الى جوف الرضيع مما يعتبر ارضاعا لقوله(ص) (لا تحرم المصه والمصتان)(٤)

والمحرمات هن من حرمن بالنسب من الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت ، وجميع أولاد المرضعة هم أخوة للرضيع .

٤- الملاعنة :

فيحرم على الرجل أن يتزوج امرأته التي لاعنها أي قذفها بجرم الزنى لقوله (ص) المتلاعنان اذا تفرقا لا يجتمعان أبدا)(٥)وهو مشروع لقوله تعالى :

* والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداءَ إلا انفسهم فشهٰدة احدهم أربع شهادات إنه لمن الصادقين والخٰمسةُ أنّ لعنتَ اللهِ عَليهِ إن كان من الكاذبين ويدرؤا عنها العذاب أن تشهدَ ا أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخٰمسة أنَ غضب الله عليها إن كان

(١) سورة النساء : آية ٢٣

(٢) سورة النساء : آية ٢٢

(٣) سورة النساء : آية ٢٣

(٤) متفق عليه .

(٥)رواه أبو داوود .

من الصادقين *(١)

ب- التحريم المؤقت : أي أنه تحريم لوجود سبب معين ، فاذا زال السبب أصبح الزواج حلالا.

١- أخت الزوجة : فاذا ماتت الزوجة أو طلقت أصبحت حلالا قال تعالى (وان تجمعوا بين الأختين) .

٢- وكذلك الحال لعمة الزوجة أو خالتها ، فاذا توفيت أو طلقت وانقضت عدتها أصبحت محللة .

٣- المرأة المتزوجة محرمة على غير زوجها حتى تطلق وتقضي عدتها لقوله تعالى (المحصنات من النساء).

٤- المرأة المطلقة ولم تنه العدة وكذلك الأرملة التي توفي زوجها ولم تنه عدتها . لقوله تعالى : * ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتُبُ أجله*(٢).

٥- المطلقة ثلاثا ، فهي محرمة على زوجها حتى تنكح زوجا آخر وتفارقه لطلاق أو موت وتنقضي عدتها لقوله تعالى : * فلا تحلُّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره(٣).

الطلاق :

معناه في اللغة حل القيد ويكون القيد ماديا كقيد الاسر ، أو معنويا كقيد النكاح وهو الارتباط الحاصل بين الزوجين، وكانوا يستعملون الطلاق في الجاهلية في الفرقة، فلما جاء الاسلام أمر استعماله فى هذا المعنى بخصومة مع تفاوت فى بعض الأحكام ولهذا عرف في الاصطلاح الشرعي بأنه ازالة النكاح أي رفع العقد بحيث لا تحل له الزوجة بعد ذلك إذا طلقها ثلاثا (٤) .

(١) سورة النور : آية ٦-٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٣٥ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٣٠ .

(٤) المذاهب الأربعة : ج٤/ كتاب الطلاق ص ٢٧٨ .

أركان الطلاق :

١- الزوج المكلف : فلا يقع طلاق الأجنبي الذي لا يملك عقدة النكاح لقوله عليه السلام (انما الطلاق لمن أخذ بالساق) (١) ويجب أن يكون المسلم بالغا عاقلا مختارا غير مكره .

٢- الزوجة التي تربطها بالزوج رابطة الزوجية بأن تكون في عصمته ولم تخرج عنه بفسخ أو طلاق أو حكم (كالمعتدة من طلاق رجعي أو بائنة بينونة صغرى .... الخ . لقوله (ص) : (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا عتق له فيما لا يملك .(٢) .

٣- صيغة الطلاق : اللفظ الدال على الطلاق صريحا كان أو كفاية ، فالنية وحدها بدون تلفظ بالطلاق لا تكفي ولا يطلق بها الزوجة لقول النبي (ص) (ان الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به (٣) .

٤- القصد : وهي أن يقصد الزوج لفظة الطلاق ، أما اذا أراد أن ينادي امرأته باسمها طاهرة فقال لها بالخطأ يا طالقة ، فلا يعتبر ذلك لانه لم يقصدولم تكن نيته الطلاق (٤) .

شروط الطلاق :

أ- الزوج المطلق : أن يكون عاقلا ، أي أن لا يكون مجنونا بلوثه عقلية أما اذا تناول مخدراً (حشيش ، أفيون ، كوكايين) فان طلاقه يقع . وأن يكون بالغا فلا يقع الطلاق الصغير الذي لم يبلغ ولو كان مراهقا ، وان يكون الطلاق برغبته وليس مكرها ، فلا يصح طلاق المكره ، ويحذر الهزل في الطلاق فطلاق الهازل واقع لقول النبي (ص) ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد ، النكاح والطلاق والعتاق) في رواية ثانية (النكاح

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) متفق عليه .

(٤) المذاهب الأربعة : كتاب الطلاق ، ص ٢٨١ .

والطلاق والرجعة) .(١)

الزوجة المطلقة :

ان تكون في عصمة زوجها ، فاذا بانت منه وطلقها وهي في العدة فلا يقع طلاقه لانها كانت زوجته باعتبار كونها في العدة ، ولكن لما طلقها بائنا لم يكن له عليها ولاية.

وان لا تكون الزوجة موطوءة بملك اليمين ، فاذا عقد على معتدة او عقد على أخت امرأته او نحو ذلك من العقود الباطلة فانه لا يقع عليه طلاقها لانها ليست زوجة له .

الخيار في الطلاق :

هناك خيار لكل من الزوجين في البقاء على عصمة الزوجية أو طلب الطلاق في الحالات التالية :(٢)

١- وجود عيب في أحد الزوجين يؤثر على الحياة الزوجية ، ولا يعلمه الطرف الآخر، كالجنون أو الجذام أو أن يكون الزوج خصيا .

وفي حالة الرغبة في الطلاق يتم التأكد من وقوع الخلوة فاذا لم تتم فانه يستعيد الصداق، أما اذا كان الطلاق بعد ذلك فلا يأخذ شيئا من الصداق.

٢- في حالة التغرير والخداع : فاذا تم خداع رجل بامرأة بأنها مسلمة فتظهر أنها كتابية ، أو حرة فتظهر أنها أمة ، أو صحيحة فتظهر بأنها مريضة بمرض مزمن بعور أو عرج أو داء ... فللزوج الحق في الطلاق وكذلك الزوجة لقول عمر بن الخطاب (أيما امرأة غر بها رجل فلها مهرها بما اصاب منها وصداق الرجل على من غره).

٣- عدم القدرة على دفع المهر ، فاذا وقعت امرأة في حبائل نصاب ولم يستطع دفع المهر ، فلها الحق في طلب الطلاق قبل الزواج ، فاذا تزوجها يصبح الصداق دينا عليه .

٤- عدم القدرة على الانفاق : فاذا أعسر رجل ولم يستطيع دفع نفقات زوجته انتظرته ما استطاعت من الوقت ، فللزوجة الحق في طلب الفسخ بواسطة القضاء

---

(١) رواه أحمد وابو داوود والترمذي وابن ماجه .

(٢) المذاهب الأربعة : ج٤ ، ص ٣١٣ .

الشرعي .(١).

- غياب الزوج وعدم معرفة مكانه ، ولم يترك للزوجة نفقة كما لم يوص أحدا بالانفاق عليها ، ولم يقم غيره بالانفاق عليها ، ولم يبق لديها ما تنفقه على نفسها فان لها الحق في طلب الطلاق بواسطة القاضي الشرعي .

أنواع الطلاق :

١- الطلاق النسبي : وهو الطلاق الذي يجري وفقا لأحكام الشريعة من السنة النبوية والذي يقع في العدة (اي في الطهر) وحرّم ايقاعه في الحيض ، وجعل الطلاق ثلاث مرات متفرقات .

ودرجات الطلاق النسبي :

أ- الدرجة الأولى : الطلاق الرجعي ، وهو ما يقع في الطهر للمرة الأولى ، وحكمه أن لا يزيل الزوجية ، ولكنه يحسب واحداً من ثلاث ، ويحق للرجل أن يعيد المرأة قبل انتهاء عدتها وبدون عقد ولا مهر ، ولو بدون رضاها .

ب - الدرجة الثانية : الطلاق البائن بينونة صغرى :

فاذا انتهت عدة المرأة في الطلقة الأولى وحاضت منه دون أن يرجعها زوجها بانت منه، وانحل عقد الزواج بينهما وصارت حرة بالزواج من غيره ، ويجوز أن يعود الى زوجته بعقد جديد ، وليس له أن يجبرها .

وكذلك الأمر اذا طلق الرجل زوجته للمرة الثانية في عدة ثانية بانت منه ، وله أن يعيدها قبل انتهاء العدة بمهر وصداق جديد .

ج-الدرجة الثالثة : الطلاق البائن بينونة كبرى :

وهو الطلاق الذي يقع للمرة الثالثة في العدة ، وهو يزيل الزوجية ولا يحل للرجل أن يعود الى زوجته حتى تنكح زوجا غيره فيدخل بها ثم يطلقها ثلاثا أو يتوفى عنها كما قال تعالى :

---

(١) المذاهب الأربعة : ج٤ ، ص ٣١٣ .

* فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله *

٢- الطلاق البدعي :

وهو الطلاق في الحيض ، أو في طهر جامعها فيه ، كما اعتبروا الطلاق الثلاثي جمعاً وفي مجلس واحد هو طلاق بدعي ، فقد روى أن رجلا طلق امرأته ثلاثا في كلمة واحدة فقال النبي : (أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم وبدا عليه انه غضب غضباً شديداً) (١) .

الخلع :

مصدر الفعل خلع ، ويعني في اللغة الازالة والنزع أما معناه اصطلاحا من الناحية الشرعية :

فهو ازالة ملك النكاح المتوقفة على قيود المرأة (٢) ، وبمعنى آخر افتداء المرأة الكارهة من زوجها له بمال تدفعه اليه ليتخلى عنها ، وهو اتفاق يتم بالتراضي بين الرجل والمرأة على مفارقة بعضهما بعضا .

والخلع جائز شرعا فقد جاءت امرأة ثابت بن قيس الى رسول الله (ص) وكانت تكره زوجها لدمامته فقالت : يا رسول الله لا أعتب عليه في خلق ولا دين ، ولكني أكره الكفر بعد الاسلام ، فقال النبي (ص) : أتردين عليه حديقته قالت نعم . فقال رسول الله لزوجها (إقبل الحديقة وطلقها)(٣) .

شروط الخلع :

١- أن تكون الزوجة هي الكارهة اي ناشزة وتظهر البغض والكراهية لزوجها أما اذا كان الزوج هو الكاره فليس له أن يأخذ من صداقها شيئا لان هذا مخالف للشرع.

٢- على الزوجة أن لا تطالب بالخلع الا بعد ان تستنفذ كل المحاولات ، وان تخاف

(١) رواه الترمذي .

(٢) المذاهب الأربعة ، ج٤/ كتاب الطلاق ، ص ٢٨٧ .

(٣) رواه البخاري .

الله بعملها ، وعندما تصبح تخاف على نفسها من اقامة حدود الله في نفسها او في الحقوق الزوجية تلجأ الى الخلع .

٣- يجب على الزوج أن يخاف الله في معاملة زوجته ، فلا يتعمد اهانة وايذاء زوجته حتى يجبرها على طلب الطلاق ، فان فعل ذلك فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا وان أخذ فهو مال حرام ، والخلع هو طلاق بائن فاذا اعادها الى ذمته فهو بحاجة الى عقد زواج جديد .

العدة :

لغة مأخوذة من العدد ، وهي مصدر سماعي بمعنى أحصى والمعنى الشرعي هو انتظار المرأة انقضاء الأيام المطلوبة شرعا بعد طلاقها أو وفاة زوجها بدون زواج .(١)

انواع العدة :

١- عدة الوفاة :

فاذا توفي رجل ، فعلى زوجته أن تنتظر أربعة اشهر وعشرة أيام وذلك لانقضاء ما بقي من آثار الزواج المادية والأدبية ، فاذا كانت غير حامل حق لها الزواج ، اما اذا كانت حامل فعدتها وضع الحمل . لقوله تعالى :

والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا (٢)

٢- عدة المطلقة :

أما المرأة المتزوجة اذا طلقها زوجها فعليها أن تنتظر حتى تحيض ثلاث حيضات لقوله تعالى :* والمطلقاتُ يتربصنَ بأنفسهنَ ثلثةَ قروء *(٣)

واذا حصل الطلاق بعد الخطبة ولم يحدث زواج فلا عدة للخطيبة طالما لم يحدث بينهما خلوة شرعية .

---

(١) المذاهب الأربعة : كتاب الطلاق ، ج٤ ، ص ٥١٢ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٣٤.

(٣) سورة البقرة : آية ٢٢٨ (القروء : الطهر) .

اما النساء الكبيرات في السن وانقطع حيضهن فعدتهن ثلاثة اشهر وكذلك الصغيرات اللاءى لم يدركن سن البلوغ ، قال تعالى :* واللائي يئسنَ منَ المحيضِ مِنَ نِسائِكُم إن إرتبتم فعدتهن ثلثةُ أشهر واللائي لم يحضنَ * (١)

٣- عدة من غاب عنها زوجها ولم يعرف مصيره حيا او ميتا ، فانها تنتظر أربع سنوات من انقطاع خبره ثم تعتدعدة وفاة أربعة اشهر وعشرا .

والحكمة المشروعة من العدة التأكد من براءة الرحم وذلك محافظة على الأنساب من الاختلاط ، هذا الى جانب اعطاء فرصة الى الزوج لمراجعة نفسه لاعادة زوجته ، وفي حالة وفاة الزوج مشاركة الزوجة مواساة أهل زوجها لما أصابها وأصابهم .

الحضانة :

ايواء الصغير وكفالته الى سن البلوغ . وهي واجبة للمحافظة على الأطفال وعقولهم وصحتهم وديانتهم ورعايتها .

وهي تجب على الأبوين فان فقدا فالأقرب من ذوي القربى وان انعدمت فعلى الحكومة القيام بذلك .

أما اذا حصل الفراق بين الزوج وزوجته فالأولى بالحضانة هي الأم مالم تتزوج لقول النبي (ص) لمن شكت اليه انتزاع ولدها (أنت أحق به مالم تنكحي) واذا تزوجت الأم يعهد لأمها (الجدة) فان لم تكن فالخالة ، لأنهما بمنزلة الأم لقول النبي (ص) (الخالة بمنزلة الأم)(٢) فان لم تكن فالجدة من ناحية الأب فان لم تكن فالأخت ، فان لم تكن فالعمة ، فان لم تكن فبنت الأخ ، فان لم يوجد من المذكورات انتقلت الحضانة الى ابيه ثم جده ، ثم أخيه ثم عمه)(٣) ويسقط حق الحضانة ممن لا يحقق للطفل أغراض الحضانة وأهدافها .

وحضانة الطفل سبع سنوات واذا بلغ الطفل سن السابعة خير بين امه ووالده فأيهما

---

(١) سورة الطلاق : آية ٤

(٢) متفق عليه .

(٣) منهاج المسلم ص ٤٣٧ .

يختار انتقلت اليه الحضانة وان تردد ولم يختر ، يذهب الى أمه ليلا وعند ابيه نهارا .

واذا اختار والده فلا يجوز أن يمنعه عن أمه متى رغب زيارتها .

وعلى والد الطفل أن يدفع نفقة لمطلقته أجرة الحضانة وهذا حق شرعا فالحضانة كالمرضعة قال تعالى : * فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن *

وتقدر نفقة الولد وأجرة الحاضنة بحسب يسار والد الطفل .

اما اذا رفضت الأم أي مبلغ وتطوعت بخدماتها لابنها فلها ذلك .والطفل المحضون أمانة فلا بد من العناية بها والمحافظة عليها وتقديم كل ما يحتاجه الطفل ، واذا شعرت الحاضنة انها عاجزة ولا تستطيع رعاية الطفل كما يجب فالأولى أن ترد الأمانة الى أصحابها .

المیراث :

واجب بالكتاب والسنة .

قال تعالى : * للرجال نصيبٌ مما ترك الوٰلدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوٰلدان والأقربون مما قلّ منه أو كَثُر نصيبا مفروضا * .

وقال تعالى : * يوصيكم اللهُ في أولٰدكم للذكر مثل حظ الأنثيين * (١)

وقال النبي(ص) (الحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فلأولى رجل ذكر (٢) وقال أيضا(ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلاوصية لوارث)(٣) .

الحقوق المتعلقة بالتركة

وهناك حقوق متعلقة بالتركة :

١- اكرام الميت صاحب التركة تكفينه وتجهيزه ، وما قد يحتاج .

٢- قضاء دينه للعباد النقدية او العينية .

(١) سورة النساء : آية ١١

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه أبو داوود .

٣- المورث : وهو التركة او الميراث وهو المال المنقول او غير المنقول الذي يتركه الميت .

أسباب الارث:(١)

لا يستحق أحد ارثا من آخر الا بأحد الأسباب التالية :

١- النسب الحقيقي اي القرابة ، بأن يكون الوارث يخص الميت ، من ابنائه أو اخوانه ، أو أبنائه أو بناته لقوله تعالى :* وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله*

٢- الزواج الصحيح : فالزوجة ترث زوجها وكذلك الزوج يرث زوجته وهما يرثان بعضهما في الطلاق الرجعي والطلاق البائن .

قال تعالى : * ولكم نصف ما ترك أزواجكم *

٣- الولاء ، وهو ان يعتق امرؤ رقيقا عبدا أو جارية ، فيكون له بذلك ولاؤه ، فاذا مات العتيق ولم يترك وارثا ورثه من أعتقه لقول النبي(ص) : الولاء لمن أعتق)(٣)

موانع الارث :

والممنوع من الارث هو من توفر له سبب فحرمه من الارث :

١- اختلاف الدين : فلا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر مهما كانت صلته لقول النبي (ص) : (لا يرث الكافر المسلم ، ولا المسلم الكافر)(٤).

٢- القتل : لا يرث القاتل من قتله عقوبه له على جنايته . ان كان القتل عمدا لقول النبي (ص) : (ليس للقاتل من تركة المقتول شيء)(٥).

---

(١) انظر : السيد سابق : فقه السنه ،ج٣، ص ٦٠٦ .

أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم : ص ٤٤٠ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٧٥ .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

٣- الرق : فالرقيق لا يرث ولا يورث سواء أكان تاما أو ناقصا .

٤- ابن الحرام : لا يرث والده ولا يرثه والده وانما يرث أمه وترثه دون ابيه لقول النبي : (الولد للفراش وللعاهر الحجر) وينطبق هذا على ابن المتلاعنين .

الوارث من الذكور :

١- الزوج : يرث زوجته اذا ماتت حتى ولو كانت مطلقة ولم تنقض عدتها ، فاذا انقضت عدتها فلا ارث له .

٢- المعتق : أو عصبته الذكور عند فقده .

٣- الأقارب : وهم أصول وفروع حواش . فالأصول : الأب والجد وان علا . والفرع : الابن وابن الابن مهما نزل . والحواشي القريبة وهم الأخوة وابناؤهم وان نزلوا والاخوة لأم . والحواشي البعيدة وهم العم وابن العم وان نزلوا أشقاء أو لأب .... ولا يتصور وجودهم مجتمعين في تركة واحدة ، وذلك لأن بعضهم يحجب البعض الآخر ، فلو اجتمعوا كلهم في تركة فلا يرث منهم الا ثلاثة الزوج والابن والأب فقط .

الوارثون من الاناث :

١- الزوجة .

٢- المعتقة .

٣- ذوات القرابة : الأصول الأم والجدة لأم ، ولأب والفروع وهن البنت وبنت الابن وان نزلت والحاشية قريبة وهي الأخت .

ولا ترث العمة ولا الخالة ولا بنت البنت ولا ولدهما ولا بنت الأخ ولا بنت العم مطلقا.

أما مقدار نصيب كل واحد فيختلف باختلاف الحالات ، وهو واضح في سورة النساء يمكن الرجوع اليها .

الوصية :

لغة من أوصى بمعنى عهد ، وصى بمعنى وصل .(١)

---

(١) انظر لسان العرب .

ومن الناحية الشرعية : تمليك مضاف الى ما بعد الموت بطريق التبرع .(١)

مشروعية الوصية :

الوصية مشروعة في القرآن والسنة النبوية .

قال تعالى :

* يٰأَيها الذينَ امنُوا شَهٰدةُ بينكم إِذاحَضر اَحدكُمُ الموَتَ حِينَ الوصيّةِ اثنان ذَوَا عَدْلٍ منكم * (٢) .

وقوله تعالى : * من بعد وصيةٍ يوصي بها أو دينٍ *(٣)

وقال النبي (ص) (ما حق امريء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين ووصيته مكتوبة عنده)(٤) وقال النبي (ص) لسعد بن وقاص حينما سأله عن الوصية (الثلث ، والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)(٥)

شروط الوصية

١- يشترط في الموصي أن يكون أهلا للتمليك مسلما عاقلا رشيدا ، حتى لا يضيع ما أسند اليه .

٢- يشترط في الموصي ان يكون عاقلا مميزا مالكا لما يوصي فيه .

٣- يشترط أن يكون الموصي والموصى له حيين وقت الوصية ، وفيها يجوز الوصاية للجنين الذي في بطن امه ، فهو موجود وقت الوصية .

٤- يشترط في الموصىٰ أن يكون مباحا شرعا فلا تنفذ وصية في محرم كأن يوصي المرء ببدعة مكروهة أو معصية .

---

(١) المذاهب الأربعة / مباحث الوصية ، ج٣ ، ص ٣١٥ .

(٢) سورة المائده : آية ١٠٦ .

(٣) سورة النساء : آية ١١

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

٥- يشترط فيمن أوصى له بشيء أن يقبله ، فان رفضه بطلت الوصية ولا حق له بعد ذلك .

أحكام الوصية :

١- لا يجوز لمن له ورثة أن يوصي بأكثر من ثلث أمواله لقول النبي (ص) لسعد ابن أبي وقاص الثلث والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس) (١)

٢- لا تجوز الوصية لوارث وان قلّت الا اذا وافق عليها جميع الورثة بعد وفاة الموصي وذلك لقول النبي (ص) (ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث الا أن يشاء الورثة)(٢) .

٣- اذا لم يف الثلث الموصي به بكافة الوصايا قسم على الجهات الموصى له بالسوية كالمحاصصة للغرماء .

٤- سداد الديون أول المهمات وقبل تنفيذ الوصية ، لان الدين واجب والوصية تبرع والواجب مقدم على التطوع .(٣)

٥- يجوز الوصية بالمجهول ، بمعنى بالانتاج القادم ، فهي تبرع واحسان .

٦- يحق لمن أوصى بشيء بعد موته أن يرجع عن وصيته أو يعدلها لقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) (يغير الرجل من وصيته ما يشاء) .

٧- الموصي يتصرف فيما أوصى به ولا يجوز له التصرف في حقوق الناس بغير اذنهم.

٨- اذا أوصى المرء بشيء معين ثم تلف هذا الشيء الموصى به ، بطلت الوصية ، ولا يلزم الموصي غيره .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الترمذي .

(٣) أبو بكر الجزائري : منهاج المسلم ، ص ٣٩٦ .

٩- اذا أوصى رجل بوصيته ، ثم ظهر دين بعد اخراج وصيته ، فليس على الوصي ضمان ذلك الدين لانه لم يكن قد علمه وأغفله ، ويعتبر هذا تفريطا فيما عهد اليه .

١٠- اذا أوصى رجل لأحد الورثة ، فأجازها بعضهم ، ورفضها البعض الآخر ، تنفذ في نصيب من أجازها من الورثة .

١١- اذا أوصى رجل وصيته وخصها بالذكور فالوصية تقسم عليهم وكذلك اذا كانت للاناث اما اذا كانت تخص لأولاد فلان فتقسم بين الأولاد والبنات ويأخذ الذكر ضعف الأنثى .

١٢- من كتب وصية،تنفذ وجائزة ما لم يتراجع عنها حتى وان لم يشهد عليها أحد.

الوحدة الخامسة
النظم الدفاعية والحربية

- نظام التجنيد (النفير أو التعبئة العامة)
  حالاته وأشكاله.
- بناء الجيش الاسلامي.
  الاستعداد المادي والمعنوي
- النظام الدولة في الاسلام.
  الهدنة ، المعاهدات، الصلح والسلم.

نظام التجنيد

مر التجنيد في الاسلام بمراحل عدة أبرزها :

١- ففي مكة أنزل المشركون بالمسلمين أشد الأذى ، واضطهدوا المؤمنين علهم يعيدونهم الى الكفر ، وكذبوا رسالة الله سبحانه وتعالى ، وشكا المؤمنون للرسول (ص) ما يلقون من الأذى ويسألونه الترخيص برد العدوان ، ولكن النبي كان يرى جهاد الكفار ودعوتهم إلى دين الله، وبيان فساد عقائدهم ومناهجهم وبيان مخاطر ما هم فيه من البعد عن منهج الخالق ، ولذلك كان يطلب من المسلمين الصبر والثبات امام ما يلاقون من الأذى والفتنة لقوله تعالى :

* كُفُّوا أيديكُم وأقيمُوا الصلوٰةَ وءاتُوا الزكوٰةَ* (١)

وتعتبر هذه المرحلة مرحلة التربية والاعداد الفكري والاخلاقي والعقائدي ، والجهاد بالدعوة والبيان وقد استغرقت الفترة المكية من نزول الوحي الى الهجرة (٢)

٢- مرحلة التميز المادي بالهجرة الى المدينة : وتعتبر الهجرة مرحلة في طريق الجهاد ،وهي لم تكن اعتزالا أوردة فعل لما لاقاه النبي (ص) وصحابته من أذى الكفار ، وأنما كانت تنفيذا لخطة ربانية هدفها كسر شوكة الكفار وازالة العقبات من وجه الدعوة ، فقد أصبحت المدينة بيئة صالحة مؤهلة للتكليف الشرعي ومواجهة الكفار باعداد المسلمين وتوثيق رابطتهم والقضاء على الخلافات وعقد المعاهدات ، فنزلت الآية التي تبيح للمسلمين مقابلة العدوان والظلم بقوله تعالى :* أذنَ للذينَ يُقاتلون بأنهُم ظُلمُوا وإنَ اللهَ علىَ نَصرهِم لقديرُ الذينَ أخرجُوا من ديٰرِهِم بغير حقٍ إلاَ أن يقولُوا ربنا اللهُ * (٣)

وقد تدرجت توجهات الرسول (ص) حسب المقتضيات السياسية، وان كان يرى الحاجة

---

(١) سورة النساء آية ٧٧

وأساليبه ، ص ٦٥

(٢) محمد نعيم ياسين : الجهاد ميادينه.

(٣) سورة الحج آية ٣٩ .

الى جنود يحمون الدعوة ويردون عنها كيد المعتدين ، وتدل وقائع سيرته الطاهرة على عدم الزام أي نفر من أصحابه بالتجنيد ولكنه كان يحض المؤمنين على القتال، ويؤله تخلف القادرين الذين وصف القرآن بعضهم :

* لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة* (١)

وكان يؤثر (عليه السلام) أن يصحبه في المعركة من أقبل على القتال عن رضى وطوعية ، وأما المتثاقل فكان يقول لأصحابه اذا ذكروه : (دعوه فان يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وان يك غير ذلك ، فقد أراحكم الله منه)(٢) وكثيرا ما كان يقول للمؤمنين قبل المعركة : (لا يخرجن معنا الا راغب في الجهاد).(٣)

وبعد فتح مكة حدث تطور جديد في عملية التهيئة والاستنفار للمقاتلين ، فقد ازداد عددهم وقويت شوكة المسلمين ، وبات ممكنا اعداد جماعة تعنى بأمر القتال وتكاد تستقل فيه لخبراتها به وبراعتها فيه فاستنفر عليه السلام تلك الجماعة لتكون على الاستعداد التام للحرب يوم النفير (٤) عملا بقوله تعالى :

* فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين *(٥) وهذه الطائفة التي عنتها الآية الكريمة تقوم بأمر الحرب وتقوم بحراسة الدين ، وهذه طبيعة الاسلام حيث تمتزج فيه الشئون الدينية بالدنيوية في وحدة مثالية .

والجدير بالذكر أن غالبية الجندية في الاسلام لم تأخذ طابع الالزام بل تمثلت فيها ملامح التطوع في أغلب الأحيان طلبا للأجر والثواب ومحبة لله .

---

(١) سورة التوبة آية ٤٣ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج٣ ، ص ١٤٥ .

(٣) ابن سعد: الطبقات ، ج٢ ص ٢٧ .

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤٨٧ الجنابي : تنظيمات الجيش ص٩.

(٥) سورة التوبة : آية ١٢٢ .

اختيار أمراء الجيش

ويبدو أن اختيار أمراء الجيش في عهد الرسول قد تأثر باسلوب اختيار النقباء في بيعة العقبة الثانية (بيعة الحرب) ، فقد كانت الخطوة الأولى في تهيئة واعداد المقاتلين الذين سيتولون الدفاع عن الكيان الجديد ، فقد أراد الرسول (ص) من هؤلاء نشر دعوته الجديدة وفي الوقت نفسه يكونون نواة صالحة لجيشه المرتقب،(١) هؤلاء النقباء الذين عينهم كانوا مسؤولين عن استدعاء وتهيئة المقاتلين عند الضرورة .(٢)

ويبدو أن امارة الجيش قد نالت حظا من التنظيم أكبر من حظ التجنيد ، فقد كان الرسول حريصا على تأمير أمير على السرية أو الجيش ويختاره حذراً وخبيرا بالحروب ، فقد ورد عنه أنه كان (يؤمر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عينا وأبصر بالحرب).(٣)

وبهذا نفسر اختيار حمزة بن عبد المطلب وخالد بن الوليد ، وسعد بن ابي وقاص وامثالهم لقيادة السرايا ، كما نفسر اسرار انتصارات المسلمين .(٤)

الاستنفار في عهد الخليفة أبي بكر :

وسار الخليفة ابو بكر على منهج الرسول (ص) في دعوة الناس الى الجهاد عند الحاجة ، وظل يستنفر الراغبين ولا يكره المتخلفين ، ويقوم على مبدأ التطوع ، فلا يلزم من لا يرغب،مما دفعه للكتابة الى خالد بن الوليد وعياض بن غنم حين بعثهما الى العراق : (وأذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمتكاره)(٥)

---

(١) خالد الجناني : تنظيمات الجيش العربي ، ص٥٩ ، عبد الرؤوف عون : الفن العربي في صدر الاسلام ، ص ١١٠ .

(٢) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٣ ، ص ٤٨٨ .

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤١ .

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤٨٧ .

(٥)الطبري : تاريخ الطبري ، ج٣ ، ص ٣٤٦ .

التجنيد الإلزامي وعمر بن الخطاب :

تولى عمر بن الخطاب (رضي) الخلافة ، والمسلمون في مواجهة الفرس والروم وكلا الدولتين تعدان العدة للقضاء على المسلمين فكانت الحاجة ماسة الى ارسال أعداد كبيرة لمواجهة قواتهما ، وقد انسحبت قوات المسلمين بقيادة المثنى الشيباني الى ذى قار على حدود الصحراء (١) مما دفع الخليفة عمر الى استنفار الناس ، فكان أبو عبيد الثقفي أول من استجاب .(٢)

وكان الناس يفضلون جبهة الشام حتى قال لهم عمر (رضي) (بل العراق فان الشام فيه كفاية ،(٣) ومع ذلك لم يجد له بدا من استنفار المرتدين والاستعانة بهم (٤) علما أن الخليفة أبا بكر قال (لا يغزون منكم أحدا حتى أرى رأيي).(٥)

واذا كان الظرف جعل عمر (رضي) يستعين بالمرتدين فقد جعلته يكتب الى عماله بارسال كل ما يستطيعون من مال وسلاح على وجه السرعة (٦) ، وان يطلب من سعد وهو في طريقه الى العراق أن يستنفر ذوي القوة والنجدة والرياسة (٧)

وبذلك يكون الخليفة عمر بن الخطاب قد أعطى في كتبه الى القواد والعمال صيغة الأمر والالزام فوضع القاعدة الجديدة في التجنيد الالزامي الى جانب التطوع ؛ لأنه لم يكن يرضيه تطوع المتطوعين (٨) وبخاصة في الحالات الملحة ، مما جعله يتجه بالتجنيد الطوعي نحو الحزم الألزامي ، وأخذت كتبه صيغة الأمر الواجبة التنفيذ.(٩)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ص٤٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٦٢

(٤) المصدر نفسه ص ٤٤٨

(٥) المصدر نفسه ص ٣٤٧

(٦) المصدر نفسه ص ٤٧٩

(٧) المصدر نفسه ص ١٢

(٨) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤٨٧

(٩) وفيق الدقوقي : الجندية في عهد الدولة الأموية ص ١٢٨ .

واذا كان عمر (رضي) قد أوجد التجنيد الالزامي الموقوف للجهاد ، فلا بد من توفير الأموال اللازمة والدائمة للانفاق عليهم فكان ديوان الجند .

اصبح ديوان الجند في الأمصار الاسلامية مراكز لتجنيد المقاتلين ، وفيه تسجل اسماؤهم وأنسابهم وأوصافهم ومقدار أعطياتهم وأرزاقهم السنوية .

وهكذا اقترنت نشأة الديوان بنشأة التجنيد النظامي الرسمي وحددت للجنود النظاميين عطاياهم ورواتبهم من بيت مال المسلمين .

واستمر تجنيد المقاتلين في عهد الخليفة عثمان (رضي) بالسير على الأسس التي وضعها الخليفة عمر ، فيما يتعلق بالبر فهو الزامي للمجندين ، أما فيما يتعلق بغزوة البحر التي أذن فيها عثمان لمعاوية فقد طلب منه ان يخير الناس .

وفي عهد الامام علي كرم الله وجهه ، ضعفت روح الجندية ، ووهنت عزائم الناس في القتال لان الناس لم يكونوا مقتنعين بالحروب التي يخوضونها ويريقون في ساحاتها الدماء.

وازداد الأمر سوءا في عهد بني أمية حتى أصبح الخلفاء يدفعون الى الجنود العطايا والأموال قبل اشتراكهم في القتال (١).

ولم يبق من نظام التجنيد الذي وضعه عمر في عصر بني عباس الا اسم الديوان تدوين اسماء المرتزقة من الجنود النظاميين وأمست الجندية تجارة وارتزاقا ، يطالب أصحابها الدولة بصرف رواتبهم مقدما قبل ثلاث سنين .(٢)

---

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤٩٠ .

(٢)ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ، ص ٣١ .

الجيش الاسلامي

بعد بيعة العقبة الثانية، ونزول الآية الكريمة

* أُذن للذينَ يُقتَلُونَ بأنهم ظُلِموُا وإنَّ اللّهَ على نصرهم لقدير*(١) . أصبح الجهاد فريضة على كل مسلم حماية للدين وصيانة لأرواح المسلمين ودفعا للظلم . وبهذا اصبح القتال واجبا ملزما لكل مسلم قادر على حمل السلاح ، فأصبحت الأمة كلها أمة مقاتلة ، وكان الرسول (ص) يحرص على الاعداد المنظم والمفيد للحرب والاستعداد الدائم حتى لا يؤخذ على حين غرة.(٢)

وهذا الاعداد انما هو تهيئة الجند واعدادهم بدنيا وخلقيا وروحيا ، ليكونوا على أهبة الاستعداد لتلبية داعي الجهاد ، وبفضل الأعداد تحقق النصر في غزوات الرسول .

سن المجند :

تقوم الحرب منذ وجدت على عواتق الشباب ، فهم أصبر على مقاساة أهوالها ، وأكثر ميلا لاظهار بطولاتهم لعدم ارتباطهم بالأبناء والأزواج .

ولكن الاسلام اشترط من المجاهد الاسلام والبلوغ والعقل ، والخلو من الأمراض(٣)

وفي بداية الاسلام كان الرسول(ص) لا يشترط في المجاهد سوى الرغبة في الجهاد لاعلاء كلمة الله لا للشهرة ولا للمغنم ، وانما كان المدار عنده على الطاقة البدنية والقدرة على اجادة القتال، واللياقة التامة للجهاد .

ويفهم من النصوص التاريخية ان الرسول (ص) يوم أحد أجاز سمرة بن جنذب ورافع بن حديج في الرماةوسنهماخمسة عشر عاما،ورد يومها أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر في نفر وعير وعمرهما يومئذ أربعة عشر عاما ، واجاز بن عمر في رواية الشيخين في

(١) سورة الحج : آية ٣٩ .

(٢) خالد الجنابي : تنظيمات الجيش العربي ج٢ ، ص ٥٧.

(٣) الماوردي : الاحكام السلطانية : ص ٤٠٢ .

غزوة الخندق عندما أصبح عمره خمس عشرة سنة (١) وقد حضر الرسول (ص) حرب الفجار ينبل أعمامه وهو في الرابعة عشرة من عمره .

هكذا نجد ان الرسول (ص) اعتبر أول مراحل البلوغ صالحاً للجندية ، ولعل طبيعة الطقس والمناخ في الجزيرة تنشط الغدد فتجعل البلوغ مبكرا .

كما ان المرحلة التي تمر بها الدولة واعداد الجند تلعب دورا مهما في اختيار السن ، فاذا كان هناك نفير عام دعت الحاجة لاختيار صغار السن أما اذا كان الوضع حالة سلم وهناك متسع للاختيار يمكن رفع السن الى العمر المناسب الذي يراه الامام .

وتبقى القاعدة الرئيسية للتجنيد البلوغ والاسلام والعقل والسلامة من الأمراض ، وظل هذا المبدأ معمولا به في العهد الراشدي وما بعده .

الرتب العسكرية :

ظهر الرسول (ص) في عصر عرف بالكفاءة القتالية والقدرة على تعبئة الجيوش وتسليحها ، فالجزيرة العربية تقع على تخوم دولتي الفرس والروم .

ويعد الرسول صلى الله عليه وسلم واضع اساس التنظيم العسكري في الاسلام فهو الذي يختار القادة والجنود ، ويشرف على تدريبهم وتمويلهم واعدادهم ماديا ومعنويا لمواجهة اعداء الله .

١- امير الجيش (القائد العام)

وكان يختاره الرسول من الصحابة بعد ان يجتمع اليه فيعقدوا له اللواء او الراية البيضاء ، ويقوم هذا القائد فيركز الرمح الذي تعلوه الراية في المسجد النبوي لينضوى حوله الراغبون في الجهاد (٢) .

وعقد اللواء دلالة على اعطاء الأمير الصفة الرسمية لاختياره على السرية (٣)، وقد عقد الرسول (ص) في السنة الاولى ثلاثة ألوية بيض لحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعد بن ابي وقاص .

وسار الخلفاء الراشدون على سنة النبي (ص) بعقد الألوية للقواد ويبعثوا بأمر تولي القيادة بوساطة البريد ان كان خارج المدينة .

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج٢ ص٢٤٧

(٢) صبحي الصلح : النظم الاسلامية ، ص ٤٩٥

(٣) خالد الجنابي : تنظيمات الجيش العربي ، ص ٢٢٦ .

ويعتبر اللواء والراية رمزا للقيادة وامارة الجيش ، فكان الجيش يلتف حولهما ، ويقاتل حتى تبقى كل منهما مرفوعة ، ولا تسلم الواحدة منهما الا للجنود الأبطال .

واللواء يكون كبيرا ويكون لونه ابيض بينما الراية مختلفة الألوان تدل على الوحدات والفرق المختلفة ، ويستطيع القائد مراقبة المعركة بمراقبة الرايات (١) .

٢- امير الكردوس : ويقوم على الف ، وقد ظهرت واضحة في معركة اليرموك سنة ١٣هـ عندما قسم خالدبن الوليد الجيش الاسلامي الى ٣٦ كردوسا في كل كردوس ألف جندي (٢) .

٣- قائد (قائد السرية)

ويقوم على مئة ومهمته مساعدة أمير الجيش ، ويعهد اليهم بتولي الحملات الفرعية أو قيادة الحاميات ، بحكم الظروف القائمة آنذاك ، وكان الأمراء يختارونهم من ذوي المكانة في عشائرهم الأمر الذي منحهم القوة فيما بعد .(٣)

٤- الخليفة : ويقوم على خمسين جنديا ، يختاره القائد العام لبعض المهمات الخاصة.

٥- العرفاء : والرسول (ص) هو الذي اختار لراية العقبة الثانية اثنى عشر نقيبا ، وجعلهم كفلاء على الناس مشرفين على العرفاء ، وهو الذي قسم أصحابه الى عرافات وجعل لكل عشرة عريفا(٤) .

ولم تعد مقتصرة مهمة العرفاء على قيادة عشرة جنود في القتال بل أصبحوا مسئولين عن الأمن والنظام ومراقبة مثيري الفتن في الداخل، وحلقة اتصال بين السلطات الادارية والشعب فيما يتعلق بتثبيت اسماء الجند في الدواوين وتوزيع العطاء واستدعائهم وقت الحاجة ، وكان يتم اختيارهم من أصحاب النفوذ والوجاهة (٥) .

(١) خالد الجنابي : تنظيمات الجيش العربي ، ص ٢٢٧.

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج٣ ، ص ٢٩٩.

(٣) وفيق الدقوقي : الجندية في عهد الدولة الاموية ، ص ١٢١ .

(٤) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٢ ، ص ٣٦٢

(٥) الجنابي : تنظيمات الجيش العربي الاسلامي ، ص ٢٢٣ ، الدقوقي : الجندية في عهد الدولة الأموية ، ص ١٢١.

وكان الرسول (ص) يشرف على التدريب على القتال بقدر ما تسمح له الظروف وكذلك الخليفة أبو بكر .

ونال الإشراف على تدريب الفرسان عند الخليفة عمر بن الخطاب اهتماما زائدا ، فكان يشهد التمرينات اليومية ويختار خيرة المدربين لهذا الأمر ، كما كان يصحب معه العارفين في الخيول وأمراضها للاشراف عليها ، وقد عين على خيل جيش الكوفة : سلمان بن ربيعة الباهلي لحذقه وخبرته .(١)

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج١ ، ص١٥٥ .
صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٤٩٤ .

الاستعداد المادي والمعنوي

الاعداد في اللغة الاحضار ، والاستعداد هو التهيؤ له ، والتهيئة ليست لحالة طارئة في الاسلام وانما هي حالة دائمة لا يجوز أن تنقطع ليلا أو نهارا الا اذا كان مخالفا لمفهوم فعل الأمر في الآية :

* وأعدوا لهُم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون* (١)

والاعداد يحتاج للترقي والتقدم المتناسب مع العصر من حيث الكمية والكيفية لدفع العدوان ورعاية الحق والفضيلة .(٢)

والواجب الديني يتطلب من المسلمين حسب النص القرآني في الاستعداد صناعة جميع آلات الحرب الحديثة ولا يعتمدون على غيرهم ، كما لا يتم الواجب المطلق الا به فهو واجب ، فقد ورد عن الصحابة استعمال المنجنيق في غزوة خيبر مع الرسول (ص) .

والاعداد شاق عسير الا على اصحاب العزائم وأولي البصائر ، ولا يتم الا بالصبر والبذل والايمان بالحق والحكمة في التدبير والثقة في النتيجة (٣) .

وبهذه المناسبة يصح أن نطلق على الاستعداد المادي والمعنوي الاصطلاح الحديث ، "التعبئة" . وهي تعني حصر كل القوى الموجودة في الدولة وعمل مقارنة بين الجيش المقاتل وكفاية الموادالازمة له سواء كانت تدريبيه او تسليحية او غيرها ، استعدادا للقتال ، وتوفيراً لمستلزماته كلها وذلك بحصر الكفايات بحيث لاينقص الجيش المحارب شيء(٤)

(١) سورة الأنفال آية ٦٠

(٢) ظافر القاسمي : الجهاد والحقوق الدولية العامة في الاسلام ، ص ٢٣٣

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٧

(٤)عون : الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٢٠٦

الاستعداد المعنوي :

وهي شحذ الوسائل الفكرية الى جهود الانسان وطبع الصراع ودوافعه والاسباب التي تحركه لوضع الخطط المناسبة لتحقيق النصر .

وهي تحتاج الى الأمور التالية :

١- الاعداد النفسي للمجاهدين والمواطنين :

وهي ان تشعر المسلم بالايمان بالحق الذي يدافع عنه وبالخير الذي يدافع عنه والشوق الى لقاء الله ،وهذا يثير في نفوس المجاهدين الحمية والقوة والاقدام ويدفع عنه عوارض الخوف والخور ودواعي الجبن والفرار (١).

فالنفس المطمئنة بالايمان تكون مشبعة بروح الفداء والتضحية وعلى موعد مع النصر مهما كان عدد الأعداء ، فالقران الكريم يجعل المؤمن الواحد بعشرة من عدوّهم .

٢- الدعاية :

وهي نشر الآراء ووجهات النظر التي تؤثر على الأفكار أو السلوك مما يقنع المستمع بما تطرحه قيادة الجيش . فاذا كانت موجهة للعدو فالهدف منها نشر التخاذل وتثبيط المعنويات وتحطم الدوافع والبواعث للقتال لديه،وفي الوقت نفسه ما هو موجه نحو الجيش والأمة ، فيهدف الى رفع المعنوية وتوحيد الصفوف وايجاد الدوافع والبواعث على الجهاد(٢) .

والدعاية تقسم الى قسمين :

أ- استراتيجية (بعيدة المدى) Strategy

وتوجه الى قوات العدو والشعوب المعادية والى خططه الحربية التي تستهدف اغراضا موضوعية مدروسه في فترات قد تمتد الى سنوات .

ب - تكتيكية (مؤقته) Tactics

وهي توجه الى العدو والى عدد من المستمعين محدودي العدد في الغالب ، وهي

(١) عو ن : الفن الحربي في صدر الاسلام ، ص ٢٠٦

(٢) احمد نوف : الحرب النفسية ، ج١ ، ص٨٢ .

موضوعة تدعيما لتعليمات حربية محلية (١) .

وتعتمد الدعاية على وسائل الاعلام في الدرجة الاولى من صحف واذاعة ومطبوعات ونشرات ، ولعل اخطرها واكثرها اهمية الآن التلفزيون فهو اكثر من ينقل الدعاية عن طريق العين والاذن وكلاهما تصبان في الدماغ .

٣- الشعر :

والشعر من الأسلحة المعنوية الفاعلة في وقت الحرب لما له من أثر في التضحية والفداء ، فهو يبرز شجاعة وبطولات المجاهدين ضمن صور فنية ادبية محببة تتردد على الألسن .

فشعر الحرب والاناشيد الوطنية سجل لبطولات الأمة وعزها وخلودها .

وكان رسول الله (ص) عربيا قرشيا قبل ان يكون نبيا ، وكان يعرف اثر الشعر في النفوس ، ومقامه بين الناس ، فلما لجأت قريش الى هذا السلاح قابله بمثله ، فكان شعر الدعوة الاسلامية ، وشعر الجهاد والكفاح والنصرة الذي تناول التهديد والوعيد للكفار ، ومعارك المسلمين ، وبطولاتهم ونصرتهم .(٢)

وكرم الرسول شعراء الدعوة الاسلامية وحثهم على الدفاع عن المسلمين ومبادئهم وعقائدهم ، وكان حسان بن ثابت (٣) شاعر الرسول . وأوس بن مغراء (٤) من شعراء الدعوة.

٤- الاشاعة :

وهي الترويج لخبر مختلق لا اساس له من الواقع ، او مبالغ فيه او مشوه في سرد خبره بهدف التأثير في الرأي العام تحقيقا لاهداف سياسية او عسكرية .

وقد تكون الاشاعة اختلاقاً لخبر ليس له اساس من الواقع او هي مجرد التحريف

(١) احمد نوفل : الحرب النفسية ، ج١ ، ص٨٦ .
حامد زهران : علم النفس الاجتماعي ، ص ٣٣٩ .

(٢) ظافر القاسمي : الجهاد ، ص ٣٨٢.

(٣)عفيف عبد الرحمن : معجم الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، ص ١٣٦.

(٤) المرجع نفسه ، ص ٤٩ .

بالزيادة او النقصان في سرد خبر يحتوي على جزء ضئيل من الحقيقة (١)

ولعل من اهداف الاشاعات تدمير القوى المعنوية وبث الفرقة والشقاق وايجاد الرعب والارهاب بين صفوف الأعداء وهي تستخدم كستارة دخان لاخفاء الحقيقة ، والشائعات ضمن أهم الأسلحة في اوقات الحروب لأنها تثير عواطف الجماهير وتعمل على بلبلة الأفكار.

وقد ابتلي المسلمون بها منذ الايام الاولى للاسلام ، فكان المنافقون ينشرون الأراجيف بين المسلمين ويذيعون الشائعات في محيطهم وبخاصة حين يكون المسلمون في حرب مع العدو وذلك بملء هؤلاء المنافقين قلوب المسلمين حزنا قبل عودة المسلمين (٢).

ولعب اليهود دورا فاعلا قبل اجلائهم في نشر الاراجيف في المدينة، اذ كانوا ألسنة خبيثة تطلق الشائعات علهم يجعلون الجبهة الداخلية مضطربة وقد حذر الله المؤمنين من الاصغاء الى تلك الشائعات بقوله : * يأيها الذين امنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهٰلة فتصبحوا على ما فعلتم نٰدمين * (٣) وتوعد جل جلاله المفسدين * لئن لم ينته المنٰفقون والذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفُون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين اينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتيلاً *(٤) .

٥- توحيد الجبهة الداخلية :

وذلك بترك النزاع والخلاف ، ودخول المعركة صفا واحدا بقلوب مترابطة واجساد متراصة كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا ، فالمؤمنون اخوة ، وصدق رسول الله (ص): " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

٦- التزود بالصبر :

فالمؤمن يجد في الصبر رصيداً ينفق منه لقهر نوازع الضعف والوهن اذا تعرض لها

(١) احمد نوفل : الحرب النفسية ، ج١ ، ص ٩٩.

(٢) عبد الكريم الخطيب : الحرب والسلام في الاسلام ، ص ٥٤.

(٣) سورة الحجرات ، آية ٦ .

(٤) سورة الاحزاب ، آية ٦٠ ، ٦١ .

فلا تحدثه نفسه بالفرار من المعركة او الاستسلام ، فالمسلمون في غزوة بدر لم يؤسر منهم رجل واحد على حين اسر من المشركين سبعون وفي غزوة احد استشهد من المسلمين سبعون في سبيل الله ولم يؤسر رجل واحد ، وهذا يعني ان المؤمن اذا دخل الحرب مع العدو ألزم نفسه الثبات في الميدان حتى النصر او الاستشهاد .

والمسلم لا يلقي العدو الا وهو راغب في احدى الحسنيين الشهادة او النصر . قال تعالى * قل هل تربصون بنا الا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون *(١) .

٧- الصمود :

ولما كانت الحرب امتحانا وابتلاء شديدا ولا يقوى على احتمالها الاولوا العزم من الرجال الذين ينذرون انفسهم لحمل الأعباء ، ويهبون انفسهم للاستشهاد في سبيل الغاية النبيلة والمقصد الشريف ، كان الصمود ضرورة لاصحابهم العزائم في مواقف البلاء والشدة قال تعالى : * ولنبلونكم حتى نعلم المجهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم *(٢)

واذا تسلح المؤمن بالصبر فقد كمل ايمانه ، كان خليقا به ان يجني أطيب الثمر من كل أمر يحاوله ، وان قصرت عنه أيدي الرجال وخارت دونه عزائمهم(٣) قال تعالى : *يٰأيُّها الذينَ أٰمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحونَ *(٤) فالفلاح الذي يحققه الايمان رهن بالصبر والمصابرة والمرابطة على الصبر والتقوى ، وهو الضمان الوثيق للنصر بعد التوكل على الله .

وتدريب الجندي على الصبر قبل الحرب هو تعويده على الحياة القاسية والتدريب الصعب اي اعداد جسدي شديد يتحصن صاحبها بقوة الصمود فتقيه من المكاره (٥).

---

(١) سورة التوبة ، آية ٥٢ .

(٢) سورة محمد ، آية ٣١ .

(٣) عبد الكريم الخطيب : الحرب والسلام في الاسلام ، ص ٥٠.

(٤) سورة آل عمران ، آية ٢٠٠ .

(٥) الخطيب : الحرب والسلام في الاسلام ، ص ٥٢ .

الاستعداد المادي :

لا شك ان الاعداد عمل شاق وعسير ويحتاج الى اصحاب العزائم ، ولا يتم الا بالصبر والبذل والتضحية ، ولا يقوم بذلك الا المؤمن الملتزم بقضايا الأمة . والاستعداد المادي يقوم على أساس التدريب العسكري بفئاته على انواع الحرب والتدريب على جميع انواع الاسلحة واحدثها وما تتناسب مع العصر .

والى جانب ما تقدم ، فنحن بحاجة الى القوى المساعدة للجيش التي تقدم له يد المساعدة اثناء القتال من شرطة ومخابرات ووسائل نقل . كما لا يستغني المجاهدون عن القسم الطبي والعمال والوعاظ . وسنتناول ذلك بشيء من التفصيل : الاستعداد العسكري والاستعداد بالقوة :

عندما شرع الجهاد في الاسلام فقد اعتبر فرضا من فروض الكفاية ، فهو واجب عام على كل مسلم بالغ سليم الجسم والعقل من أجل الدفاع عن الدين ، وقد وضع الرسول(ص)الأسس الراسخة لنظام التجنيد وتكوين الجيوش الاسلامية وتدريبها بما يحقق اهداف الجهاد في الاسلام ، وكان المسلمون في عهد الرسول (ص) جميعهم يدعون للجهاد . وقد مر معنا ان " الخليفة العادل عمر بن الخطاب " هو الذي أوجد نظام التجنيد الالزامي في الاسلام ، وهو الذي اوجد نظام البدل والمرابطة ، فكان الغازي لا يمكث في الغزو اكثر من اربعة اشهر ثم يستبدل ويرسل مكانه آخر (١) .

تنظيم الجيش :

كان الجيش الاسلامي ابان الخدمة العسكرية الفعلية يتألف من طبقتين :

أ- الجنود : وهم المحترفون (المرتزقة) ، ويتناولون المرتبات .

ب - المتطوعون : وهم الذين كان يدفعهم شعورهم بالواجب نحو الجهاد فينخرطون للقتال ، وكانوا لا يتناولون اثناء تطوعهم سوى الارزاق اي المؤونة .

صفوف الجيش :

كان الجيش الاسلامي يتألف من :

(١) محمد حسين هيكل : الفاروق عمر، ص ٩٦

عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الاسلام، ص ٨٩

١- الخيالة (الفرسان)
٢- المشاة (الرحالة)
٣- الرماة (النشابون)

الخيالة (الفرسان) :

عرف العرب أهمية الخيل ، فقد كانت عدتهم في الحرب والغارات والكر والفر مما جعلهم يعتنون بها وبنسلها وحفظ انسابها حتى عرفت الخيول العربية بانها أجود خيول العالم .

وقد اشار القران الكريم الى اقتران القوة بالخيل بقوله :" واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون " وكان الرسول (ص) يحث اصحابه على اقتناء الخيل بقوله: " الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة (٢)وخصص النقيع لخيل المهاجرين والأنصار (٣).

ولم يجد المسلمون صعوبة في اعداد الخيول للفرسان ، فقد كان المقاتل ينفر للحرب مع فرسه الذي عوده على شظف العيش وتتبع العشب ، وقد جعل الاسلام نصيب الفارس ثلاثة أسهم بينما الراجل سهم واحد ، واذا كان الفارس يقاتل على اكثر من فرس فيسهم لفرسين من أفراسه (٤) ، وادى هذا لتشجيع الجند على اقتناء الخيول .

واستمر الخلفاء الراشدون في الاعتناء في تهيئة كتائب الخيالة نظرا للاهمية البالغة في المعارك ، فاقطعوا اراضي معينة لراعي الخيول والماشية ، فقد اقطع الخليفة عمر بن الخطاب نافع بن عبد الله ارضا بالبصرة لزراعتها ولرعي خيله .وخصص في كل مصر من الامصار أربعة آلاف فرس وعين عليها من يعتني بها ، ويرعاها لتكون جاهزة للطواريء،

(١) سورة الانفال : آية ٦٠.
(٢) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج١ ، ص ١٥٣ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣ .
والنقيع : موضع قرب المدينة كان للرسول (ص) ولخيله ولخيل المسلمين .
ياقوت : معجم البلدان ، ص ٣٠
(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج٥ ص ٣٥٣ .

ينطلق عليها الفرسان لمواجهة العدو الى ان تستعد بقية القوات (١)، كما كان يعطي المحتاجين او من كان عطاؤه قليلا من الفرسان فرسا على ان يضمن رعايته واطعامه(٢).

وبذل عمرو بن العاص جهودا كبيرة للعناية والاهتمام بالخيالة لكي يستطيع مواجهة جيوش الروم في مصر، فكان يخرج جنده إلى الريف في وقت الربيع ليربعوا دوابهم ويسمنوها(٣)، وكان اذا وجد أحدا من الجند قد أهزل فرسه أو أهمل العناية به انقص من عطائه (٤) وكذلك كان يفعل قتيبة بن مسلم وعمرو بن عبد العزيز (٥).

ولأهمية الفرسان عمل الرسول على زيادة عددهم **فقد بلغت في غزوة تبوك عشرة آلاف فارس أي ثلث قوة الجيش بينما كانت في بدر لا تصل الى ١٪ وهذا يفسر سر اهتمام الرسول (ص)** بها لأهميتها.

وأهم واجبات الفرسان : هو الهجوم ، وكانت القوات العربية تستخدم قوات الفرسان على الأجنحة لحرية الحركة والمناورة والمرونة في الاستخدام (٦).

فالفرسان يحملون على جناحي العدو عند بدء المعركة لضعضعة صفوفه.

ومن واجبات الفرسان الالتفاف والمطاردة للعدو لتطويقه من الخلف لارباك صفوفه ليتسنى للقوة الرئيسة مهاجمته وتوجيه الضربات له ، واذا ما حلت الهزيمة بالعدو يقوم الفرسان بمطاردة العدو والسيطرة على معسكره ومعداته(٧).

ويكلف الفرسان بواجب الاستطلاع ، فترسل مجموعة منهم في مقدمة الجيش لمعرفة خبر العدو والسيطرة على المناطق الحيوية والمرتفعات المحيطة بميدان المعركة وكشف كمائنه ، وحماية القطعات أثناء التعسكر وحماية الساقة عند المسير (٨).

(١) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص٥٣ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ، ص ٤٧

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٨٩

(٤) المصدر نفسه ص ١٩٥

(٥) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٦ ، ص ٤٤٤

(٦) ابن سعد : الطبقات ، ج٥ ، ص ٣٥٣ .

(٧) خالد الجنابي : تنظيمات الجيش العربي ، ص ١١٨

(٨) عبد الحميد الكاتب : رسالته / رسائل البلغاء ، ص ٢٠٦

واجاد فرسان الاسلام استخدام الأسلحة الرئيسة من سيف ورمح وقوس وببراعة فائقة وكانت الخيول تدرع بدروع من الجلد او الحديد لتحميها من اسلحة العدو وسهامه ويسمى التجفاف ، ويطلق على الخيول التي تجلل بهذه التجافيف بالمجردة. (١)

٢- المشاة : الرجالة :

وهم الجنود الذين يقاتلون راجلين ويكون الرجالة القسم الأكبر من القوات ويقع عليهم عبء الاصطدام المباشر مع العدو وجها لوجه ، وقد تميز المقاتلون العرب بجرأتهم وثباتهم في القتال تحت كل الظروف ، فكانوا يتقدمون الصفوف متراصة وفي هيئة تلقي الرعب في جنود العدو وقد لزموا الصمت واجتنبوا التلفت (٢) .

وللرجالة واجب وهو التصدي لفرسان العدو وابطال فاعليتهم بعقر خيولهم او تشريدها وتنفيرها (٣)

والى جانب ما تقدم ، يقوم الجنود المشاة بالحراسات ورعاية المناطق الحيوية من أرض المعركة . ويخصص لقائدهم فرس أو دابة لكي تمكنه من سرعة الانتقال للاشراف عى جنوده واعطائهم الأوامر .

٣- الرماة (النشابون)

وهم حملة الأقواس ويرمون بها السهام او النشاب ، وقد برع العرب في استخدام هذا السلاح وشكلوا الفرق والسرايا المستقلة من الرماة التي كانت تجيد فن الرماية الى درجة كبيرة . وقد كان مع خالد بن الوليد فرقة من الرماة وعند حصاره لأهل الأنبار طلب من الرماة أن يتوخوا عيون الأعداء فرموا رشقا واحدا ، فاصيبت ألف عين وسميت الوقعة ذات العيون (٤)

وقد لعب الرماة دورا كبيرا في المعارك ، وغالبا ما كانت المعارك تبدأ بالتراشق بالنبل

---

(١) الطبري : تاريخ الطبري ج٧ ، ص ٢٧٣

(٢) الكاتب : رسائل البلغاء ، ص ٢٠٦ ، ابن قتيبة : عيون الأطيار ، ج١ ، ص١٠٨

(٣) عون : الفن الحربي ، ص ٢٤٧. الحنبلي : تنظيمات الجيش العربي ، ص ١٢٣

(٤) الطبري : تاريخ إلطبري ، ج١ ، ص ٣٧٤ .

لأيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو ، وهم في حالة رميهم يكونون مستعدين للدفاع أكثر منه في الهجوم لأن الواحد منهم يكون واقفا والثبات أكثر دقة في الاصابة منه في حالة المهاجم المندفع (١)

التدريب العسكري وابعاد كل ما يضر بالقوات المحاربة

تقام صلاة الجماعة في الاسلام وراء الامام في صفوف متراصة ، يركع المصلون ويسجدون في تناسق وفي نظام ووقار ، ولا شك أن للصلاة قيمة تربوية وعسكرية في نفوس المسلمين منذ أن فرضها الله ، فالخضوع والشعور بالطاعة دليل على ما لهذه الصلاة من أهمية في ايقاظ روح النظام العسكري والمحافظة على اللياقة البدنية ، (ولذا فقد غدا مكان الصلاة اول ميدان حقيقي للتدريب العسكري عند المسلمين)(٢)

وحث الاسلام على تعلم السباحة وركوب الخيل ، والسباق بين الفرسان ويمدح الاسلام المؤمن القوى . فيقول رسول (ص) (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف)

وقد حث الاسلام على التدريب على أنواع الأسلحة كافة الهجومية والدفاعية ، وكذلك أسلحة الحصار .

الأسلحة الهجومية :

عرف العرب انواعا عديدة من الأسلحة وبرعوا في استخدامها لأنها كانت عدتهم في الدفاع عن انفسهم عند مواجهة اعدائهم ، وبذل الرسول (ص) عناية خاصة وبذل كل جهده في سبيل اعداده وتوفيره وتطويره وفقا لمتطلبات الأمة واحتياجات الدولة .

وعرف المسلمون الأسلحة الدفاعية الفردية والرمح والترس والقوس والدرع ولكن هناك اسلحة هجومية لا يستغني عنها المهاجم وهي اما أن تكون فردية او جماعية ،

---

(١) خالد الجنابي : تنظيمات الجيش العربي الاسلامي ، ص ١٢٤ .

(٢) هل : الحضارة العربية ، ص ٢٢.

فالفردية كالسيف والرمح والقوس والسهم اما الجماعية فابرزها المنجنيق والدبابة ورأس الكبش وسلالم الحصار .

الأسلحة الهجومية الخفيفة :

وهي التي تستخدم من قبل شخص واحد وأهمها :

١- السيف : ويعد اشهر الأسلحة وأقدمها وأكثرها شيوعا وأعظمها شأنا عند العرب بحيث جاوزت أوصافه وأسماءه المائة اسم(١) وحسبنا قول الرسول (ص) " الجنة تحت ظلال السيوف" (٢) وكان يصنع من الحديد ويسمى (السيف الأنيث) (٣) وقد يصنع من الحديد والصلب والفولاذ وهو أقوى السيوف وأقصاها ويسمى(السيف الفولاذ) (٤)، وقد اشتهرت السيوف اليمانية بأنها اشهر انواع السيوف التي استخدمها الجيش العربي الاسلامي(٥) مستقيمة الشكل وظلت تستخدم حتى نهاية الدولة العباسية.

الرمح :

وهو من أسلحة العرب المعروفة ويتسلح به الفرسان والرجالة ويسمى بالقناة ايضا (٦).

والرمح عبارة عن قناة من خشب الزان او الشوحط ركب فيها سنان من الحديد . وأحسنها ما كان متينا ومرنا لضمان عدم انكساره عند الطعن به .

---

(١) محمد فرج: المدرسة العسكرية الاسلامية ص ٢٤٤ (القاهرة : دار الفكر العربي) .
(٢) شرح العبني علي البخاري ج١٤، ص١٩٢.
(٣) الجاحظ : البيان والتبين ، ج٣ ، ص٢٧ .
(٤) النويري : نهاية الأرب ، ج٦ ، ص٢٠٢ .
(٥) الجنابي : تنظيمات الجيش العربي ، ص ١٤٤.
(٦) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص ٥٢ .

وهو يتألف من ثلاثة اجزاء :

أ- المتن : جسم الرمح الخشبي .

ب- السنان :ويؤلف القسم العلوي، وهو رأس من حديد مدبب الطرف حاد الجانبين

ج- المزج : حديدة مستديرة ومدببة الطرف قليلا تركب في الطرف الثاني من الرمح وتساعد على تثبيته في الأرض او الطعن به عند الحاجة .

والرمح اذا كان طويلا سمي (الخطل) اما اذا كان قصيرا فيسمى (المطرد).

ولأهمية الرمح قال النبي (ص) " بهذه وبرماح القنا تفتحون البلاد "(١)

القوس والسهم :

من الأسلحة القديمة التي استخدمها العرب ببراعة واستطاعوا ان ينتزعوا من خصومهم ميزة التفوق في استخدامه ، وهو السلاح الرئيس لصنف الرماة (النشابة) ، وكان يتسلح به الخيالة ايضا .

ومنذ ان اهتم العرب بالرماية وصناعة الأقواس صارت لهم قسي عربية معروفة بصلابتها وشدة جفافها وينسب العرب صناعتها الى ناسخة وهو أول من صنعها فلذلك قيل لها : ناسخية .(٢)

واهتم المسلمون بهذا السلاح ، منذ روى ان النبي (ص) لما تلا قوله تعالى :

* واعدوا لهم ما استطعتم من قوة *(٣)

فسر القوة بالرمي قائلا ثلاث مرات : " الا ان القوة الرمي " (٤)

والقوس في الأصل عود من شجر جبلي صلب، وتحنى طرفيه بقوة ، ويشد فبينهما وتر من الجلد او العصب الذي يكون في عنق البعير .

---

(١) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ج١ ، ص ٥٢.

(٢) ابن سيده : المخصص : ج١ ، ص ٣٧.

(٣) سورة الأنفال : آية ٦٠

(٤) ابن القيم الجوزي : الفروسية ، ص ١٠

والقوس يحتاج الى سهام يحتفظ بها الجندي في كنانته الجلدية ليرمي بها عن قوسه حين يريد .

وقد تطورت صناعة القسي والسهام ، فبعد ان كانت القوس متصلة الأجزاء فصلوا بعض أجزائها عن بعض ثم ركبوها والصقوها بالغراء وجعلوا لها مقبضا وسيتين (١) . وبعد ان كان السهم مجرد عود رفيع من شجر صلب في رأسه فصل من حديد مدبب سقوا نصله بالسم . فأمسى سلاحا فتاكا .

الأسلحة الهجومية الثقيلة :

وهي الأسلحة التي يتولى العمل بها واستخدامها عدد من الجنود ، وهي ذات اثر فاعل اثناء القتال لما تسببه من تخريب وهدم في صفوف العدو .

المنجنيق :

سلاح فعال ذو تأثير بالغ في تهديم الحصون واشعال الحرائق بوساطة المقذوفات من الحجارة او كرات النار التي يرميها لمسافات بعيدة(٢) والمنجنيق عبارة عن قاعدة من الخشب السميك يرتكز عليها عمود خشبي سميك في رأسه كفة لوضع المقذوفات ، ويشد هذا العمود بأقواس او لوالب متينة ، فاذا اريد الرمي سحب العمود الى الأسفل بواسطة اللولب او الأقواس ثم يفلت فجأة ويصطدم بعارضة خشبية قوية امامه فيرمي ما بداخل الكفه الى مسافات بعيدة (٣) .

وقد عرف المسلمون أهمية هذا السلاح، منذ استعمله النبي (ص). في قتال اهل الطائف، وانه اول من رمى في الاسلام بالمنجنيق (٤) .

(١) مثنى : سية : وهي ما انعطف من طرفي القوس وركب فيه الوتر.

(٢) الحسن بن عبد الله : اثار الأول ، ص ١٩١، ١٩٢

(٣) عون : الفن الحربي ، ص ١٥٦

(٤) الطبري : تاريخ ،ج٣ ،ص١٣٣، ابن هشام : السيرة النبيوة ، ج٤ ، ص ١٢٦

واستخدم المنجنيق في الفتوحات الاسلامية بعد ان ادخل عليه بعض التحسينات ، وقد استعمل في حصار المدائن عشرين منجنيقا كما حاصر ابو عبيدة وخالد بن الوليد دمشق ورموها بالمنجنيق (١) .

العرادة :

آلة صغيرة يمكن حملها على مركب او قارب ، وكانت تستخدم هذه الآلة عندما يصعب وضع الآلة الكبرى (المنجنيق) بالقرب من الجدار بسبب امتلاء الخندق بالماء (٢).

والعرادة اصغر من المنجنيق ، وكانت تستخدم لرمي السهام الكبار دفعة واحدة الى المسافات البعيدة والأهداف النائية التي لا تصل اليها رميات الأقواس (٣) .

الدبابة (الضبر):

اسم الدبابة لغة مشتقة من دب اذا مشى على مهل ، فسميت الدبابة بهذا الاسم لانها تدب حتى تتصل الى حصون الأعداء .

والدبابة عبارة عن هيكل ضخم من الخشب السميك ، قاعدته مربعة الشكل وجوانبه مغطاة بقطع من الجلد او اللبود لحماية الجنود الذين يعملون داخل الدبابة ، وكان الجلد او اللبود ينقع بالخل لمنع احتراقه .

وتتم حركة الدبابة بدفعها من قبل الجند على بكرات او اسطوانات خشبيه ، بواسطة وضع اعمدة حديدية بين عجلاتها بصورة مائلة يدفعونها الى الأمام فتتحرك وتدب على الأرض .(٤)

وتنحصر مهمة الدبابة بتقدمها الى أسوار الحصون المعادية وعند التصاقها يتولى

---

(١) الطبري : تاريخ الطبري ، ج٤ ، ص١٦٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاديخ ، ج٧ ، ص ٩٨.

(٣) جرجي زيدان : التمدن الاسلامي ج١ ، ص ١٥٦ .

(٤) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص ١٩٢ .

الجنود والفعلة من حملة الرؤوس بفتح ثغرة فيه (١) .

تعلم المسلمون في القرن الأول للهجرة صناعة الدبابات (٢)، وفي حصار الطائف كانت الدبابة مصنوعة من جلد البقر ومن الخشب ولكن المدافعين أحرقوها.

والدبابة والمنجنيق سلاحان يعاون كل منهما الآخر كما تتعاون المدفعية مع الدبابات في الحروب الحديثة(٣) .

رأس الكبش :

وعرف المسلمون في عمليات الحصار سلاحا حديديا سموه رأس الكبش ، وهو عبارة عن هيكل خشبي يشبه الدبابة ، فيه عمود افقي يركب فيه رأس من الحديد او الفولاذ يشبه رأس الكبش ، ويتدلى هذا العمود من سطح الدبابة من موضعين بسلاسل حديدية وحبال قوية ويتم العمل به بتعاون الرجال داخل الهيكل على دفع العمود باتجاه السور مرات عديدة لتهشيم حجارته (٤) ، وقد استعمله خالد بن الوليد يوم فتح اسوار دمشق وكان الناس حوله يكبرون(٥) واستخدمه الجنيد بن عبد الرحمن في هدم حصون الهند عام ١٠٧هـ/ ٧٢٥ م في خلافة هشام بن عبد الملك (٦)

سلالم الحصار :.

السلم من آلات الحصار ايضا ، وهو يساعد المحاصر على اعتلاء الأسواروفتح مغاليق الحصون .

---

(١) الحسن بن عبد الله : آثار الأول ص ١٩٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٤ ، ص ٢٣ .

(٣) عون : المرجع السابق ١٦٩.

(٤) عون : المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

(٥) ابن الأثير :الكامل : ج٢ ، ص ١٨٠

(٦) ابن الأثير: ج٤، ص ٥٩٠ .

والسلالم تصنع من الخشب عريضة وعالية توضع على الأسوار التي يتسلقها الجند ويعبرون الى داخل الحصون (١) ، وكانت السلالم التي استخدمها الجيش العربي الاسلامي في العصر الراشدي عبارة عن حبال متينة على شكل سلم وتشد من أحد طرفي الحبل كلاليب حديدية تسمى الأوهاق (٢) ، فيرمى الحبل على السور فتعلق هذه الكلاليب بشرفاته ثم يصعد عليها الجند.

وقد استخدم السلالم خالد بن الوليد عند حصار القوات العربية الاسلامية مدينة دمشق سنة ٦٣٥م (٣) وكذلك في اقتحام حصن بابليون في سنة ٦٤٠م(٤).

ونتيجة للتطور فقد اصبحت السلالم تصنع من الخشب في العهد الأموي فقد استخدم هذا النوع محمد بن القاسم الثقفي سنة ٧٠٧ م (٥) .

الأسلحة الدفاعية

والأسلحة الدفاعية قد تكون خفيفة أو وسائط دفاعية.

الأسلحة الدفاعية الخفيفة الفردية

١- الدرع:

وهو قميص منسوج من حلق حديدية رفيعة يسمونها (سايقة) اذا غطت البدن وحاشيتها التي تصل الى نصف الساق، وفيها المغفر الذي يغطي الوجه والبيضة التي تغطي الرأس والقفا، واذا كانت قصيرة بلا أكمام ولا تصل الركبة فهي الدرع البتراء.

وقد استهان الشجعان من فرسان المسلمين من لبس الدرع، اعتدادا بشجاعتهم واستهانة بالموت، فكان الامام علي (كرم الله وجهه) يكتفي بدرع لا ظهر لها، وكان

(١) الحسن بن عبد الله : آثار الأول، ص ١٩٣

(٢) الطبري : تاريخ الطبري جـ٣، ص ٤٣٩

(٣) الطبري : تاريخ الطبري، حـ٣، ص ٤٣٩

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢١

(٥) ابن الأثير : الكامل ، حـ٤، ٣٧

ضرار بن الأزور ينزع الدرع اذا حمي الوطيس ويقتحم المعركة حاسرا غير هياب(١) .

وكان المسلمون يقدمون الدارعين في الصفوف الامامية، ولأهمية الدروع استعار النبي صلى الله عليه وسلم من صفوان بن أمية يوم حنين مئة درع تحصينا لأصحابه (٢).

٢- **الترس** :

وهي آلة دفاعية تتكون من صفيحة من الجلد أو الخشب أو الحديد يحملها الفارس أو الرحالة لحمايتهم من سيوف الأعداء أو رماحهم أو سهامهم.

في معركة القادسية حمل المجاهدون تروسا من جلود البقر على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف عرفت باسم " الجحفة" (٣)

ومع انتصارات المسلمين في معاركهم ضد الفرس والروم اصبحت تروسهم من الحديد وتوسعوا الى استخدامها، فمنها المدور والمستطيل (٤).

الاسلحة الدفاعية الثقيلة (التحصينات الدفاعية)

وهي كل ما يتخذ من التحصينات حول أسوار المدن او المعسكرات لتأمين الحماية اللازمة لصد هجمات الاعداء، وتشمل القلاع والمدن المسورة والخنادق، وقد يتجمع في الحصن الواحد عدد من هذه التحصينات كأن يكون قلعة على جبل ولها سور ومحاطة بخندق.

الخنادق

ويعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم اول من حفر الخندق من العرب وذلك في غزوة الأحزاب سنة ٦٢٦ م (٥)

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، جـ٤، ص٨٣

(٢) الطبري : تاريخ الطبري جـ٣، ص ٩٩

(٣) الجنابي : تنظيمات الجنس العربي، ص ١٥٥

(٤) الطبري : تاريخ الطبري، جـ٢، ص ٦٦

(٥) المصدر نفسه جـ٣، ص ٢٠٨

واستخدمت في العصر الراشد على نطاق ضيق فقد اتخذها العلاء ابن الحضرمي عند قتاله للمشركين في البحرين سنة ٦٣٢م (١)

أما في العصر الاموي فقد استعملت كثيرا لقد استعملها المهلب ابن ابي صفرة في حربه مع الخوارج (٢) والحجاج في حربه مع ابن الأشعث (٣) .

الحسك الشائك

وهو قطع حديدية صغيرة لها شوكات كيفما وقعت على الأرض برزت منا شوكة واحدة، وكان الحسك ينثر حول المعسكرات والمدن والمسالك والخنادق ليكون مانعا، فاذا هجم جنود العدو وساروا عليه تعلقت سلك الشوكات في حوافر الخيل وأرجل المشاة فتعيقهم عن الحركة (٤).

وقد عرف الرسول اهمية الحسك كوسيلة دفاعية، فاستخدمه في حصاره للطائف، وكان عبارة عن خشبتين مسمرتين تتألف منها اربع شعب فإذا رمى في الأرض بقيت منه شعبة بارزة، تقطب بها أقدام الخيل والمشاة (٥).

أعداد القوى المساندة

والجيش لا بد له من قوى تدعمه وتسانده أثناء المعركة حتى يبقى عطاؤه مستمرا ونجاحه متفوقا، وهذه القوى تعد وتشارك في المعركة سواء في الخطوط الأمامية أم الخلفية وهم :

١- المرأة :

وهي تقوم بخدمات مهمة، فقد أمدت المقاتلين بالماء والطعام، وقامت بالخدمات الطبية كالاسعاف والتمريض واخلاء الجرحى والشهداء من ميدان المعركة بجانب ضرب

(١) المصدر نفسه جـ٣، ص ٣٠٨

(٢) المصدر نفسه جـ٦، ص ١٧٣، ١٩٧، ٢١١

(٣) المصدر نفسه جـ٦، ص ٣٤٧، ٣٦٦

(٤) عون:الفن الحربي في الاسلام، ص ١٩، الجنابي تنظيمات الجيش العربي، ص ١٨.

(٥) ابن سعد : الطبقات ق٢، جـ١، ص ١١٤ .

الدفوف وقرع الطبول لاثارة حماس الجنود.

فقد حملت السيدة عائشة الماء لتسقي المقاتلين في بدر، وكانت تساعدها في ذلك زوج ابي طلحة وأم أنس بن مالك ووقفت النساء خلف الرجال يشجعنهم بالأناشيد والخطب. وشاركت أم سليم وأم عطية ونسوة من الأنصار بعدد من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وكن يسقين الماء ويداوين الجرحى.

وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أحد ترد السهام عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقاتلت المرأة يوم اليرموك قتالا شديدا، فقاتلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان وأم حكيم بنت الحارث بن هشام (١).

وهكذا لعبت المرأة دورا في القتال والعلاج والمساعدة وبإمكانها القيام بذلك في كل زمان ومكان.

٢- العيون :

وهي ما تعرف الآن بالمخابرات العسكرية، وهي عناصر قتالية فاعلة وان لم تباشر القتال الفعلي، فهي تقاتل العدو داخل صفوفه من خلال كشف نواياه وخططه، ويتوقف وضع الخطط الحربية الهجومية او الدفاعيةعلى المعلومات التي يقدمها العيون، فهم بذلك عناصر عسكرية لا غنى للقيادة عنها.

وقد قدر الرسول صلى الله عليه وسلم أهمية العيون في النواحي العسكرية والأمور الحربية فكان يكثير من بث العيون والأرصاد للحصول على أكبر قدر من المعلومات عن تحركات العدو، ففي غزوة الخندق بعث الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ليعرفوا خبر نقض بني قريظة للعهد الذي بينهم وبين المسلمين وطلب اليهم أن يتكتموا ولا يظهروا للناس أية معلومات قد تؤثر على معنوياتهم (٢) ، ثم بعث الصحابي حذيفة بن اليمان ليتعرف ما صار اليه أمر قريش وحلفائها في غزوة الخندق

(١) محمد كرد علي : خطط الشام، جـ١، ص ١٢٦

(٢) الطبري : تاريخ الطبري ،جـ٢، ص ٥٧١، ٥٧.

فخرج اليهم متنكرا وعرف انخذالهم وعزمهم على الرحيل عن المدينة (١).

وقد عرف الخليفة عمر بن الخطاب قيمة العيون في الحصول على المعلومات، ويظهر ذلك واضحا في الرسالة التي وجهها الى سعد بن أبي وقاص (٢).

وقد استطاع القواد العرب من وضع الخطط العسكرية المبنية على المعلومات الدقيقة التي كان يقدمها العيون، فكان موسى بن نصير ناجحا في تحركاته العسكرية واغارته على مناطق البربر (٣).

وكذلك الأمر بالنسبة للقائد قتيبة بن مسلم الباهلي في حصاره لسمرقند سنة ٧١١ م (٤).

وهكذا يتبين لنا قيمة الدور الذي تلعبه العيون في تقديم المعلومات للقيادة العامة وللجيش التي بدورها تضع الخطط الكفيلة بتحقيق الأهداف المرجوة من المعركة ألا وهو النصر.

٣- الشرطة :

وهي مسؤولة عن أرواح الناس وممتلكاتهم، وكانت تطوف ليلا برئاسة ضابطها، وكان للشرطي مقام عسكري، وكان أفرادها يتناولون مرتبات حسنة، لذلك كانوا يقومون بواجباتهم بأمانة واندفاع (٥).

وكان لكل مدينة شرطتها الخاصة برئاسة صاحب الشرطة، الذي كان بدوره تابعا لأميرها الذي بيده الادارة العسكرية، غير أن الشرطة في أوائل حكم هشام بن عبد الملك ألفّت قوّة جديدة أطلقت عليها اسم " الأحداث وهي خطوة وسطى بين الشرطة والجندية النظامية (٦).

---

(١) المصدر نفسه ٥٧٩. (٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد، جـ١ ، ص ١٣٢

(٣) الامامة والسياسة، جـ٢، ص ٦٦.

(٤) الطبري : تاريخ الطبري، جـ٦، ص ٤٧.

(٥) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب، ص ٣٦٢.

(٦) الدقدقي : الجندية في عهد الدولة الأموية ، ص ١٤٧.

والشرطة تقوم بدور فاعل في حماية الجبهة الداخلية ليوفر الاستقرار والأمن لحماية المواطن حتى يستطيع أن يقدم للجبهة كل ما بطاقته.

٤- الحرس :

كان معاوية بن أبي سفيان واليا على الشام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكان أول من ابتدع نظام الحراسة في الاسلام، وتكونت القوة من عرب مختارين من رجال القبائل الذين يثق فيهم تماما حتى لا تصل اليه أيدي خصومه (١).

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجد ٣٠٠ من الحراس ومثلهم من الشرطة فقال عمر للحرس : " ان لي عنكم بالقدر حاجزا وبالأجل حارسا، من أقام منكم فله عشرة دنانير، ومن شاء فليلحق بأهله " (٢) .

والحراس قد يقومون بحراسة القادة المخططين، فعليهم حراسة المؤسسات والمصانع الحيوية التي هي عماد البلاد في السلم والحرب.

٥- الوحدات الطبية :

تلعب الوحدات الطبية دورا فاعلا في الاستعداد المادي والمعنوي للقوات المسلمة، فهي تقدم الخدمات لأفراد القوات المسلمة في وقت السلم والحرب، والقوات المقاتلة في أمس حاجتها أثناء المعركة.

وقد كانت النساء المسلمات يقمن بهذا العمل الجليل ، فكانت فاطمة مضمدة جراح والدها النبي يوم أحد، وكان للسيدة رفيدة، خيمة بمسجد المدينة يوم الخندق لتداوي به الجرحي، وقد عالجت سعد بن معاذ

ومع اتساع الفتوحات صار المسلمون يصحبون معهم نساءهم للعناية بهم في حالة الجرح، ونقلهم الى الأماكن الأمينة لعلاجهم (٣) ، وتقديم الماء وتحريض الرجال على القتال وقت المعركة.

---

(١) الطبري : تاريخ الطبري، جـ٢، ص ٥٧٢

(٢) الواقدي : المغازي، جـ٢، ١، ٦٨.

(٣) عون : الفن الحربي في صدر الاسلام، ص ١١٩.

وقد روى الجاحظ (١) أن الحجاج بن يوسف الثقفي أول من عمل المحامل (النقالات). ثم صار الأطباء يرافقون الجيش عند خروجه، وتخصص لهم خيامهم في المعسكرات.

وكان العباسيون اذا جهزوا جيشا زودوه بالأطباء والصيادلة لتركيب الأدوية واعدادها، ولا عجب فقد كان في بغداد في أول القرن الرابع الهجري ٨٦٠ طبيبا (٢) .

٦- القراء والقصاص :

لقد قام القراء بدور مهم في رفع الروح المعنوية للمجاهدين منذ بداية الاسلام، فبعد أن كان المسلمون يترنمون بالشعر الحماسي في معاركهم جريا على عادة العرب، أخذوا يكثرون من تلاوة القرآن وذكر الله بعد نزول قوله تعالى : " يأَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُواْ إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (٣) .

فكان المجاهدون يتلمظون به بلا صوت، ثم عُرف جماعة منهم بحفظ القرآن ، يسمون القراء.

وكان القراء يخرجون مع الجيش ويتفرقون بين صفوفه يسمعون المجاهدين سورة الأنفال لما فيها من ذكر الثواب الأخروي على الجهاد، والثواب الدنيوي بذكر المغانم، وقد قتل عدد كبير من القراء في الردة وفي واقعة اليمامة مما دفع الخليفة أبا بكر لجمع القرآن الكريم.

وفي معركة اليرموك كان أبو سفيان بن حرب قاصا والمقداد بن الأسود مقرىء(٤)، وفي القادسية كان القاص فارسا من الأبطال قيس بن هبيرة الأسدي وعاصم بن عمر التميمي وربيع بن الميلاد السعدي وربعي بن عامر (٥).

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين، جـ٢، ص ٢٤٣

(٢) انظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

(٣) سورة الانفال : آية ٤٥.

(٤) الطبري . تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٣٩٧

(٥) الطبري . تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٣٦

وظهر في العصر الأموي طائفة القصاص الذين كانوا يقصون على الجند أمجاد أسلافهم، ويلقون عليهم الشعر الحماسي، وفي أوقات سمرهم يكون موقعا على نغمات الناي أو القيثار (١)

وفي أواخر العصر الأموي أصبح القراء والقصاص من أهل العلم والفقه والدين وهم الذين يتولون مهمة حث الجند على الجهاد وإثارة حماسهم وحميتهم (٢).

النظام الدولي في الاسلام

لم يكن ثمة ميثاق أو قانون ينظم علاقات الدول والقبائل بعضها مع بعض قبل الاسلام فكل دولة تبغي على الأخرى ولا ترقب فيها إلاً ولا ذمة ، فالاحترام بين القوى قائم طالما أن القوى متعادلة.

وجاء الاسلام هاديا للعالم كله، وأضاء النور لمن جاء بعده، فقرر أن العلاقة بين الدول هو السلام (السلم) ، وحتى لا يقوم الاعداء بالاعتداء على الدولة الاسلامية فعلا أو بفتنة المسلمين عن دينهم، فالحرب حينئذ تكون ضرورة أوجبها قانون الدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن الحرية الدينية (٣) .

وقد شرع الاسلام السلم الدائم في العلاقات، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم : يـأَيُّهـا الَّذيـنَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فـي الـسِّلْمِ كَآفَةً وَلاَ تَتَّبِعـوُا خُطُواتِ الـشَّيْطـانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(٤) وقال تعالى " فإِنِ اعتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقواْ إِلَيْكُمْ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُم عَلَيْهِمْ سَبِيلاً " (٥) .

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم المشركين الى التوحيد في العبادة وأمرهم

(١) عبد الرؤوف عون . الفن الحربي في الاسلام، ص ١١٨.

(٢) الجنابي : تنظيمات الجيش العربي الاسلامي، ص ١٣٥

(٣) محمد أبو زهرة : العلاقات الدولية في الاسلام، ص ٤٨.

(٤) سورة البقرة : آية ٢٠٨.

(٥) سورة النساء : آية ٩٠

بالفضائل ونهاهم عن الرذائل، واعتبر السلام شعارا ولكن المشركين قاوموه وآذوه وأخرجوه، وحتى يمنع الاضطهاد عن أتباعه ويحمي حرية العقيدة، دعا الاسلام الى السلام وليس للاستسلام للباطل ولا سلام في الخضوع للباطل.

وقد وضع الاسلام قواعد للحرب تحد منها وتقيدها، طالما أن الجماعات الانسانية لا تستطيع أن تتحرر منها. فقال الاسلام بنبذ الاعتداء على الغير بلا مبرر ولا سبب، وإنما نادى بالرحمة والإخاء وشرع من القواعد، ما ينظم تلك القواعد ويقمع النزعة البشرية للعدوان، فقال بتهذيبها ففرض منها ما تقتضيه ضروب الدفاع عن النفس والمال وحرية العقيدة، وأنكر ما عدا ذلك من أسباب وحوافز، وشرع لها من القواعد والأصول ما يهذبها ويسوي من نزعتها الأصلية للخراب والدمار (١) ، ففرض ألا تكون الحرب عدوانية بقوله تعالى : " وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " (٢) وسمح بالقتال لرد الظلم عن المستضعفين : " وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ والْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلْدانِ " (٣) .

وان بغت طائفة على طائفة من المؤمنين فعلى المسلمين قتال التي تبغي حتى تعود الظالمة عن ظلمها قال تعالى : " وَإِن طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَت إِحْداهُمَا عَلَى الأُخْرى فَقَاتِلوا الَّتي تَبْغي حَتَّى تَفيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحوا بَيْنَهُما بِالعَدْلِ وَأَقْسِطوا إِنَّ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطينَ " (٤) .

وفي غير ذلك نهى الاسلام عن الحرب ودعا الى السلم حماية للفضيلة والحرية والعدالة.

إن الأصل في العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو الأمان وهو ثابت على أساس أن

(١) حسين فوزي النجار : الاسلام والسياسة ص ٢٨١

(٢) سورة البقرة : آية ١٩٠

(٣) سورة النساء : آية ٧

(٤) سورة الحجرات : آية ٩

الأصل السلم لا يطرأ ما يهدم من الأساس (١) ، فالحرب أمر طارئ على البشرية وعلى المسلمين لدفع الشر والعدوان لا للغلب أو المخالفة في الدين.

فالدعوة الى الاسلام تكون بالحجة والبرهان لا بالسيف والسنان، لأن الاسلام يجنح دائما للسلم لا للحرب، فالحالة الطبيعية هي السلام بين الدول، بينما الحرب حالة وقتية عارضة مهما كان سببها (٢).

وقد نص القرآن على أن السلم هو أصل العلاقة بين المسلمين وغيرهم حتى يكون اعتداء، فتكون الحرب حينئذ ضرورة دفاعا عن النفس وحق البقاء أو اتقاء الهجوم ضربا من الدفاع.

وأعلن القرآن الكريم مبدأ التزام المسلمين بالسلام والأمن والود والطمأنينة (٣) ، والسلام نفسه مشتق من الاسلام، وتحية المسلمين هي السلام والله هو السلام، والجنة دار السلام والحياة لا تزدهر الا بالسلام (٤)

وعلى الرغم من أن السلم ثابت عند المسلمين، ولكنه كثيرا ما يطرأ طارئ فيهدم هذا الاساس من عدوان على المسلمين، ومن هنا رأى ابن خلدون الحرب ضرورة اجتماعية لا مفر منها لا تخلو عنه أمة ولا جيل، فتقوم احدى الطوائف بالانتقام بينما الأخرى تدافع مما يشعل الحرب (٥) .

وهكذا يترتب على قيام الحرب في الاسلام تقسيم البلاد من حيث علاقتها بالحرب القائمة الى ثلاثة : دار للاسلام، وأخرى للحرب وثالثة للعهد.

١- دار الاسلام :

فهي التي تحكم وتطبق فيها نظم الاسلام الدينية والسياسية، وتكون المنعة والقوة

(١) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٥٢٠

(٢) وهبة الزحيلي : العلاقات الدولية في الاسلام ، ص ٩٤.

(٣) انظر سورة النسا آية ٩٠، الممتحنة ٨٠.

(٤) الزحيلي : العلاقات الدولية، ص ١٠٢

(٥) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٦.

فيه للمسلمين والجهاد (دونها فرض كفاية اذا لم يدخل العدو الديار والا كان الجهاد فرض عينٍ على المسلمين استطاعوا الى ذلك سبيلا) (١)

٢- دار الحرب :

فهي الدار الاجنبية التي لا تسود فيها أحكام الاسلام، ولا يكون عهد بينهم وبين المسلمين يرتبط به المسلمون ويقيدهم، ما دامت الدار خارجة عن منعة المسلمين من غير عهد ويتوقع الاعتداء منها دائما، والله سبحانه أمر المسلمين بأن يكونوا دائما على أهبة الاستعداد لدفع الاعتداء ويسمى رعاياها حربيين (٢) .

٣- دار العهد :

هي الدول التي لا تخضع خضوعا تاما للمسلمين، وليس للمسلمين فيها حكم ولكن لها عهد محترم وسيادة أرضها، ولم تكن كاملة في بعض الأحوال، وهذه البلاد هي التي كان بينها وبين المسلمين عهد، فأهلها يعقدون صلحا مع الحاكم الاسلامي على شروط تشترط بين الفريقين تختلف قوة وضعفا على حسب ما يتراضى عليه الطرفان وعلى مقدار حاجتها الى مناصرة الدولة الاسلامية كما حصل بين الرسول صلى الله عليه وسلم مع نصارى نجران، وأبي عبيدة مع أهل حمص (٣)

ولما كان الاسلام نظاماً كاملا ينظم أنواع السلوك الانساني كافة، فعلاقة الأفراد بعضهم مع بعض، وعلاقة الحاكم مع الأفراد، وكذلك علاقة الدولة الاسلامية مع الدول الأخرى في السلم والحرب.

وتنظيم العلاقات الدولية في الاسلام ليس نظاما منفصلا عن الشرع الاسلامي بل هي امتداد له والغاية منها تنظيم علاقات المسلمين بغير المسلمين سواء كان ضمن البلاد الاسلامية أو خارجها. (٤)

---

(١) أبو زهرة : العلاقات الدولية في الاسلام، ص ٥٣. الزحيلي : العلاقات ، ص ١٠٠٤.

(٢) الزحيلي : العلاقات الدولية في الاسلام ص ١٠.

(٣) محمد أبو زهرة . العلاقات الدولية في الاسلام ص ٥٦

(٤) صبحي الصالح : النظم الاسلامية ، ص ٢١.

الهدنة :

ذكر ابن منظور عن ابن سيده : أن الهُدْنة والهدانة المصالحة بعد الحرب.

وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : " يكون بعدها هدنة على دخن جماعة على اقذاء " وتفسير الحديث، لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه.

وأصل الهُدنة السكون بعد الهيج، كما تطلق على الصلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفار. وبين كل متحاربين هدنة ، وربما جعلت للهدنة مدة معلومة، فإذا انقضت المدة عادوا الى القتال (١) .

والهدنة احدى المعاهدات السياسية المؤقتة بمدة معلومة مع عدد غير محصور لغاية محدودة، والأصل منها قوله " فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ " (٢) ، " وَإِنْ جَنَحوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" (٣) .

أي مالوا الى المسالمة، وهي طلب السلامة من الحرب (٤) .

والهدنة يقصد منها ايقاف القتال بين الدول المتحاربة مؤقتا أو بصورة دائمة. ومحليا أو بشكل شامل دون إنهاء الحرب من الناحية القانونية، ويتم وقف القتال ابتداء من تاريخ معين وخلال مدة محدودة مسبقا، وقابلة للتجديد أو غير محددة قطعا، وتعتبر الهدنة غالبا اجراء مؤقتا لحين الدخول في مفاوضات لاقرار سلم دائم تمهيدا لعقد معاهدات صلح.

وينص اتفاق الهدنة عادة، على وضع خطوط فاصلة، وتعيين منطقة مجردة من السلاح وحظر ارسال الامدادات، واباحة تنقل المحاربين خلف خطوطهم وتموين الموانع المحاصرة، وتبادل الأسرى والانسحاب من المناطق التي خسرها أحد المتحاربين، وحظر

---

(١) ابن منظور : لسان العرب، هدن

(٢) سورة التوبة ، آية ٤

(٣) سورة الأنفال، آية ٦١

(٤) وهبه الزحيلي : العلاقات الدولية في الاسلام، ص ١٥٧

الاتصال بين المدنيين من رعايا الطرفين وتتولى مراقبة الهدنة في العصر الحاضر هيئة دولية ينتمي أعضاؤها الى ضباط من الدول المحايدة.

وقد أجمع رأي الفقهاء على أن الهدنة تسمح للدول المؤقتة ما يلي :

١- اجراء ما يحق لها اجراؤه أثناء السلم.

٢- ابقاء الحالة الراهنة بحيث تحتفظ كل منهما بالذي كانت فيه عند اعلان الهدنة.

٣- تمتعها بحق تقوية مراكزها.

٤- تمتعها بحرية التصرف الكامل باستثناء ازهاق الأرواح وإبادة الأموال.

والهدنة اتفاقية سياسية وعسكرية في آن واحد يوقعها مندوبون مفوضون وتستلزم الإبرام.

وإذا كانت الهدنة محدودة الفترة الزمنية، فيحق لأي من المتحاربين استئناف القتال، أما إذا قام أحد الطرفين بتصرفات غير مسموح بها أثناء قيام الاتفاق فإن ذلك يعتبر خرقا للهدنة (١) .

وقد وضع الفقهاء شروطا شرعية لعقد الهدنة في الاسلام، فخصت بعقد الامام (الخليفة) أو نائبه ، واشترطوا أن تكون الهدنة في مصلحة المسلمين والا فلا يهادنون بل يقاتلون.

واشترطوا كذلك ألا يكون في شروط الهدنة شرط يأباه الاسلام، كما شرطوا أن يترك الكفار مال المسلم أو أن يرد عليهم أسير مسلم أو شرط دفع مال لهم من غير خوف على المسلمين (٢) .

---

(١) انظر سموحي فوق العادة : معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية، ص ٢٦، ٢٧ أحمد عطية الله : القاموس السياسي، ص ١٢٤٥.

(٢) صلاح الدين المنجد : النظم الدبلوماسية في الاسلام، ص ١٧٦

انظر القلقشندي : صحيح الأعشر جـ١٤، ص ٩-٧

الصلح :

لغة تعني السلم (١) . ومن الناحية القانونية والسياسية : صك تعاقدي بين طرفين متحاربين أو أطراف متحاربة تنتهي بموجبه الحرب القائمة بين تلك الأطراف، ويزول ما رافق قيامها (أي الحرب) من اجراءات ونتائج قانونية لتعود الحياة الطبيعية على الصعيدين الدولي والداخلي ويسود السلام.

وقد يسبق الصلح وقف القتال والهدنة والدخول في مفاوضات علنية أو سرية ، مباشرة أو بواسطة أطراف أخرى، وقد يحدث أن تدخل الدول المتخاصمة الى عقد الصلح بمجرد إنهاء حالة الحرب فور وقف القتال.

وتتخذ كل من الدول المتحاربة فور عقد الصلح الاجراءات الداخلية لانهاء القتال ومحو آثاره واعادة الحريات الفردية وإزالة القيود والعقبات أي العودة الى الحياة الطبيعية.

والقاعدة المتبعة في الوقت الحالي – تقضي بإقصاء الدولة المهزومة عن مؤتمرات الصلح وإرغامها على توقيع الصلح دون أي مناقشة، وفي هذه الحالة تغرّم الدولة المهزومة بالغرامة الحربية والتعويضات ردحا من الزمن. وتحل فيها المنظمات السياسية . وتراقب فيها المطبوعات والمواصلات البريدية ... الخ حسب الوضع الخاص بالدولة المغلوبة (٢).

أما الصلح المبني علي التهادن أو الادراك بعدم جدوى الحرب، فيكون الأساس فيه احترام حقوق الدول الأخرى والإقرار المتبادل بضرورة تسوية النزاعات بالطرق السلمية.

ومن أبرز عقود الصلح التي تمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، كان صلح الحديبية في آخر السنة السادسة للهجرة (٦٢٩م)، فقد أراد المسلمون بقيادة

---

(١) انظر ابن منظور : لسان العرب / مادة صلح.

(٢) سموحي فوق العادة : معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية ، ص ٣١٠.

الموسوعة السياسية ، جـ٣، ص ٦٤٣.

احمد عطية الله : القاموس السياسي، ص ٧٢٥

الموسوعة العربية الميسرة، ص ١١٢٩

الرسول صلى الله عليه وسلم أداء العمرة لبيت الله فصدهم المشركون عن البيت وعقد المسلمون صلح الحديبية، وقد قبل المسلمون إيثارا للسلام على الحرب على الرغم من وجود بعض الشروط المجحفة بالمسلمين (١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ " والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها " وكان من الشروط : (ان من جاء منكم – أي المسلمين – لا نرده عليكم، وما جاءكم منا رددتموه الينا، فقال الصحابة : يا رسول الله أنكتب هذا، قال نعم، انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا) (٢)

وقد التزم المسلمون بتنفيذ الصلح تماما حتى نقضه المشركون. وقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم صلحا مع أكيدر بن عبد الملك الكندي في دومة الجندول (٤)، وكذلك مع أهل الطائف عندما غزاها، وكتب الصلح على الاسلام ، فلهم ما للمسلمين وأن بلدهم آمن وحرام، وصالح أهل نجران على دفع الجزية واشترط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به (٥) وصالح بني النضير على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ويسيرهم الى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وذلك جزاء تآمرهم على قتله.

وصالح النبي صلى الله عليه وسلم يهود بني قينقاع بعد أن حاصرهم في حصونهم خمس عشرة ليلة على الجلاء، وكذلك الأمر بالنسبة ليهود بني قريظة (٦).

---

(١) وهبه الزحيلي : العلاقات الدولية في الأسلام، ص ١٦١.

(٢) الشوكاني : نيل الاوطار، جـ٨، ص ٣١

(٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٤) يرجى الرجوع الى ابن هشام : السيرة النبوية، جـ٢، ص٣١٧ والرجوع الى نصوص المعاهدة.

(٥) انظر البلاذري : فتوح البلدان، ص ٧٠-٧٧

(٦) انظر عبد الوهاب كلزية : الشرع الدولي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٧٠-٧٨.

المعاهدة :

لغة من الفعل عَهِدَ بمعنى أوصى، والعهد هي الوصية كما تعني الوفاء، والأمان، والمعاهدة من كان بينك وبينه عَهْد ، ويطلق على الذمي (١) والمعاهدة من الناحية القانونية اتفاق بالتراضي يعقد بين دولتين، وتعالج قضايا سياسية تحدد فيها حقوق والتزامات كل منها.

ويتم عقد المعاهدات بطرق رسمية وقانونية تبتدئ بالمفاوضات، ويليها التوقيع من قبل المندوب المفوض وابرامها من قبل رئيس الدولة، ثم يتم تبادل وثائق الابرام الذي يضفي عليها الصفة التنفيذية.

وتسمو المعاهدات على القوانين الداخلية التي يقتضي تعديلها لكي تنسجم مع احكام تلك المعاهدات الخاصة (٢).

٤- يرى الشافعية والحنابلة أن تكون مدة المعاهدة محددة، أما إذا كانت مطلقة فهي غير جائزة لأنها تؤدي الى ترك الجهاد (٣).

وتنتهي المعاهدة اذا أعلن أحد الطرفين إنهاءها صراحة، أو انتهاء المدة المحددة لها، أو إذا حصل من الطرف الثاني نقض للمعاهدة.

والمعاهدات التي استفاد منها النبي صلى الله عليه وسلم في توطيد الدولة الاسلامية في الجزيرة العربية مرت بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى :

من الهجرة الى غزوة الخندق عام ٥ هـ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة في حاجة ماسة لتوطيد أقدامه في

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، الفعل عهد

(٢) سموحي فوق العادة: معجم الدبلوماسية،ص٤٣٤ ،احمد عطية:القاموس السيسي ، ص١١٨٧ ، الموسوعة الميسرة، ١٧١٦

(٣) انظر محمد رأفت عثمان:الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام، ص ٢٣٤ انظر عارف خليل أبو عبيد:العلاقات الخارجية ف يدولة الخلافة، ص٢٨٩-٢٩١

المدينة، فقد كانت يثرب آنذاك موطنا للحزازات والنعرات والخصومات بين قبائلها وبطونها المختلفة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في حاجة الى نصرة عدد أكبر من هذه القبائل والبطون، فابتدأ عمله بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لبناء الجبهة من الداخل.

ولما اطمأن الى وحدة المسلمين وقضى على كل شبهة، عمد الى العناصر الأخرى (عرب المدينة من لم يسلم، اليهود) ، فاتفق معهم على وحدة يثرب والى وضع نظامها السياسي، فوادع اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ما لم يغدروا بالمسلمين ويقفوا مع اعدائهم (١)

والمعاهدة من الناحية الشرعية جائزة في الاسلام، لانها عهد الله، وفرض على المسلمين الوفاء بها، لقوله تعالى : " وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عَاهَدْتُمْ " (٢) وقوله تعالى "وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً " (٣) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحض على الوفاء بالعهد، ويوفي بذلك عمليا، فقد رد أبو نصير مسلما بعد صلح الحديبية الى قريش وقال له " إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر" (٤) .

والمعاهدة لا تجوّز اذا لم تكن محققة لمصلحة المسلمين، وقد تكون واجبة اذا ترتب على عدم قيامها ضرر بالمسلمين لا يمكن تداركه (٥).

ويشترط في صحة المعاهدة ما يلي :

١- أن تكون هناك مصلحة للمسلمين تترتب على عقد هذه المعاهدة كالتقوية والتهيئة.

٢- يشترط في عقد المعاهدة رئيس الدولة الاسلامية أو نائبه أن كانت لجميع الكفار " دولية ": أو من يوليه ان كانت اقليمية.

---

(١) انظر ابن هشام : السيرة النبوية جـ١، ص ٣٤

(٢) سورة النحل : اية ٩٢

(٣) سورة الاسراء : آية ٣

(٤) ابن هشام :السيرة النبوية جـ٢، ص ٧٥.

(٥) محمد رأفت عثمان : الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام، ص ٢٢٣.

٣- يجب أن لا تتنافى المعاهدة مع ما هو واجب من عزة الاسلام، فاذا كانت منافية فتعتبر غير صحيحة لقول النبي صلى الله عليه وسلم " كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل " .

هذه الوثيقة السياسية للمجتمع المدني كانت فتحا جديدا في الحياة السياسية والمدنية في ذلك العهد، وهي نوع من التعهد انتفع به المسلمون فقضى على الخصومات بين الأوس والخزرج، وزاد في قوة ووحدة المسلمين ، فصهر الخصومات القبلية والنعرات الطائفية في بوتقة الدين الجديد، مما وطد مركز المسلمين (١).

٢- المرحلة الثانية :

من الخندق الى فتح مكة (٥-٨هـ)

وكان سلطان المسلمين السياسي والديني قد توطد في المدينة بعد بدر والخندق، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يتطلع الى فتح مكة، فتوصل الى عقد أهم عهوده السياسية عهد الحديبية.

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة الى الحج في السنة السادسة للهجرة، ولم يقصر دعوته على المسلمين بل دعا جميع القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تنظيم البيت والسعي اليه. فجابه قريشا بقضية عربية موحدة، وبذلك برهن النبي صلى الله عليه وسلم للملأ بأنه ما زال يعظم شعائر العرب ويقدس مفاخرها، فأفسد على قريش ما يمكن أن تستثمره من إثارة نخوة العربي وتوجيهها ضد الاسلام والمسلمين.

ومعاهدة (صلح الحديبية) ثنائية الطرف بين قريش والنبي صلى الله عليه وسلم تشبه (عهد ايقاف اعمال العداء الى حين)، واستفاد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك : أن قريشا المتغطرسة قد هانت ولانت واعترفت بالمسلمين كقوة سياسية متكافئة معها، وهذا أدنى المسلمين من المكيين وباقي العرب.

واستفاد النبي صلى الله عليه وسلم من الطمأنينة والاستقرار فتفرغ لبث الدعوة في مشارق الأرض ومغاربها، فراسل الملوك والأمراء، وأجلى اليهود اجلاءا تاما بعد

(١) عبد الوهاب كلزية : الشرع الدولي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٩٠

غزوة خيبر.

ودخل في الاسلام خلق كثير بعد الصلح، فقد اسلم في فترة تطبيق الهدنة أكثر ممن أسلم من قبل.

المرحلة الثالثة :

من الفتح – الى انتقاله الى الرفيق الأعلى ٨ – ١١ هـ

وفي هذه المرحلة افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعد أن حنثت قريش بعهودها واعتدت على حلفاء المسلمين، وبذلك انتهت العلاقات السياسية بانضمام مكة الى الدولة الاسلامية، فأصبح للمسلمين السلطة على الحجاز، فكاتب الرسول صلى الله عليه وسلم وعاهد أناسا كثيرين وأمنهم على أملاكهم وأرزاقهم، وأقرهم على أراضيهم ان هم أسلموا أودفعوا الجزية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعامر بن الأسود الطائي وكتب لبني عفار ولنصارى نجران وأهل أيله.

وكانت هذه الكتب تبين قوة ومكانة المسلمين وسعيهم لدفن الأمور الباطلة القديمة، كما يمكن اعتبار (معاهدة ايليا) معاهدة حدود، جعلت النبي صلى الله عليه وسلم مطمئنا الى الحدود الشمالية ليتفرغ الى الحدود الأخرى (٢).

وموقف الاسلام من المعاهدات كما يلي :

١– تلبية نداء الاسلام اذا ما دعينا اليه بناء على أمر الله تعالى.

٢– المعاهدات في الاسلام ليست جبرا لأحد الأطراف وانما تتم بالرضا والاختيار.

٣– قبول المعاهدات في الاسلام مرهون بمصلحة المسلمين، وإلا فلا تجوز تلك المعاهدة.

٤– الاسلام يحذر من الغدر والخيانة في المعاهدات ويحث على الوفاء.

٥– كل معاهدة تكون منافية للمبادئ الاسلامية تعتبر لاغية ولا تصح شرعا.

٦– توقيع المعاهدة مرهون برئيس الدولة الاسلامي، والرئيس لا يجوز أن يعمل أمرا يتنافى مع عزة ومبادئ الأسلام والمسلمين.

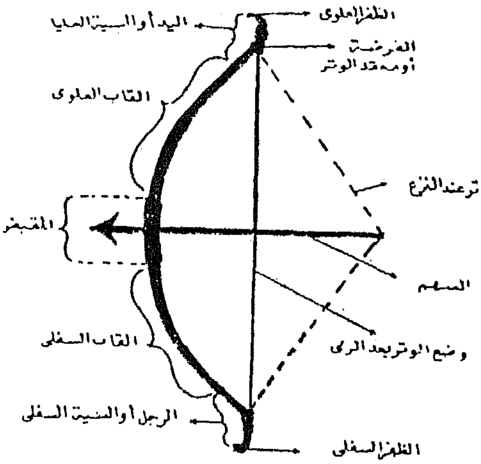
---

(١) ابن سعد : الطبقات ، جـ١، ق٢، ص٢٣–٣٦

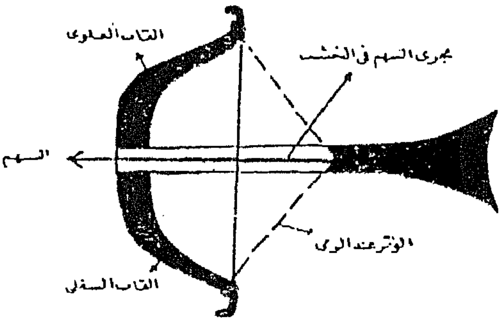
(٢) عبد الوهاب كلزية : الشرع الدولي في عهد الرسول ص ٨٦ – ١٠٠

٧- للذميين في الدولة الاسلامية حق الحماية لأنفسهم وأموالهم وأهلهم، وأي اعتداء على النفس أو المال أو الأهل يعتبر اعتداء على حياة أو مال المسلمين، فتنتقض المعاهدة المعقودة والمرتبطة مع الدولة الاسلامية (١).

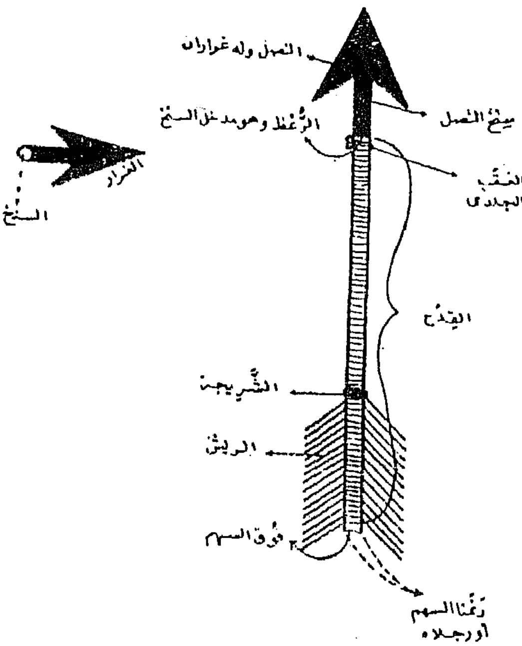
(١) محمد رأفت عثمان: الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام، ص ٢٤٤.



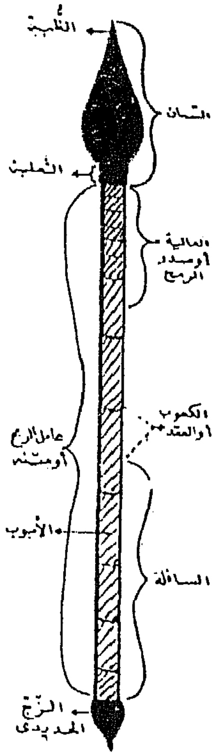
(شكل رقم ١)



(شكل رقم ٢)



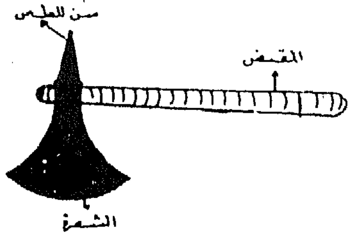
(شكل ٣)



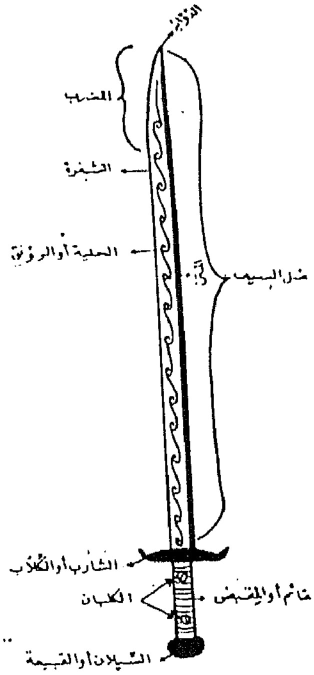
شكل (٤)



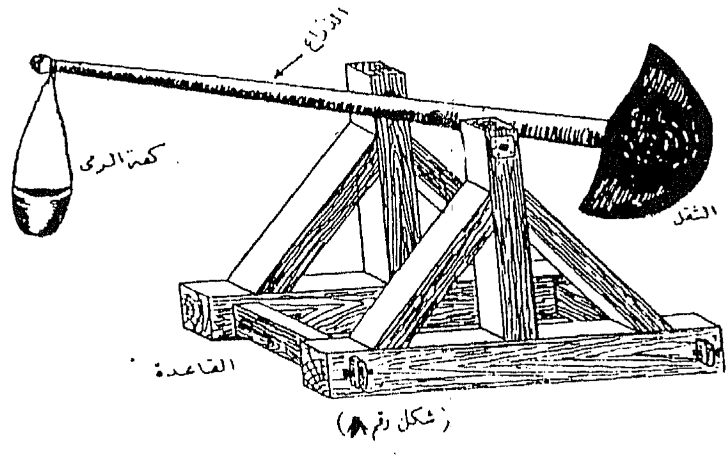
(شكل رقم ٧)



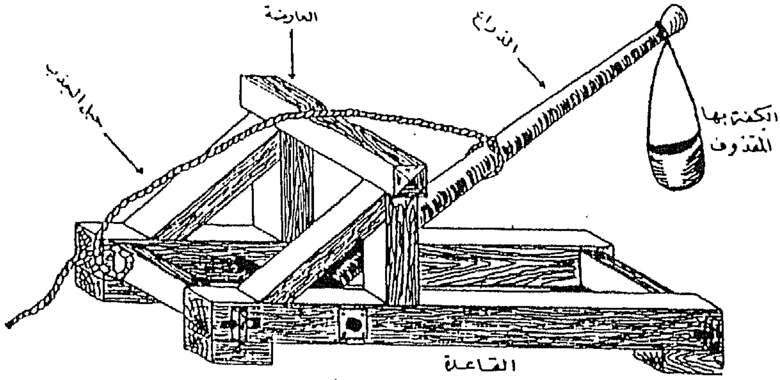
(شكل رقم ٦)



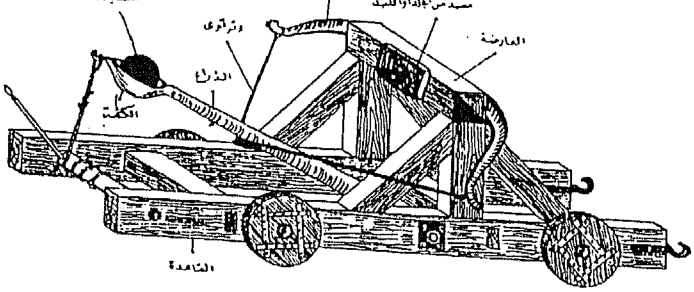
(شكل رقم ٥)



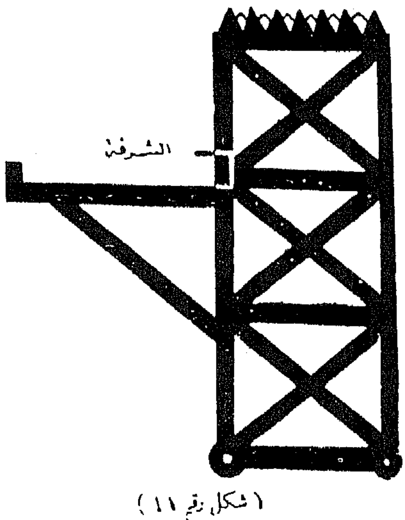
(شكل رقم ٨)



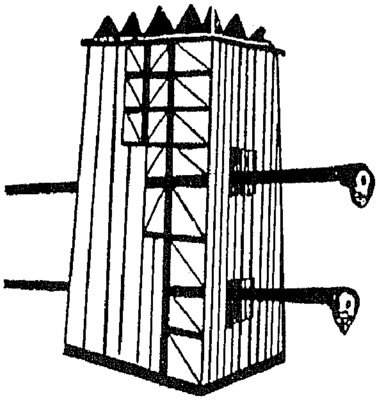
(شكل رقم ٩)



(شكل رقم ١٠ م)



(شكل رقم ١١)



(شكل رقم ١٢)

أهم المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- ابن الأثير : علي بن أبي أكرم بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)
  الكامل في التاريخ. بيروت : دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٧.
- البلاذري : أحمد يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/٨٩٢م)
  فتوح البلدان. بيروت دار النشر للجامعيين سنة ١٩٥٧.
- البيروني : أبو الريحان محمد بن أحمد (ت ٤٤٠ هـ)
  الآثار الباقية، ليبزج سنة ١٩٢٣.
- الجهشياري : أبو عبد الله محمد بن عبدوس :
  الوزراء والكتاب، مصطفى الحلبي، ط٢ سنة ١٩٨٠.
- الجاحظ : عمر بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨م) :
  البيان والتبيين، بيروت دار الفكر سنة ١٩٥٤.
- الجزائري : أبو بكر جابر.
  منهاج المسلم، القاهرة : دار الكتب السلفية، سنة ١٩٦٤.
- الجنابي : د خالد جاسم :
  تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي . بغداد : وزارة الثقافة سنة ١٩٨٤.
- الجزيري : عبد الرحمن :
  كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، بيروت، دار الفكر سنة ١٩٨٦.
- حوى : سعيد :
  الاسلام، دار الكتب العلمية، ط٣ سنة ٧٩.
- حوى : سعيد :
  الله، دار الكتب العلمية، ط٣ سنة ٧٩.
- الحسن : محمد علي :
  العلاقات الدولية في القرآن والسنة، عمان مكتبة النهضة الاسلامية سنة ١٩٨٠.
- الخطيب، عبد الكريم
  الحرب والسلام في الاسلام، دار نجد سنة ١٩٨١.
- الخطيب، عمر عوده :
  لمحات في الثقافة الاسلامية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ط٧ سنة ١٩٨١.
- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد :
  المقدمة، عدة طبعات.
- الدقدوقي : وفيق :
  الجندية في عهد الدولة الأموية، بيروت : مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٥.
- الريس : محدم ضياء الدين :
  الخراج والنظم المالية القاهرة : دار المعارف.
- الزين : سميح عاطف :
  الاسلام وثقافة الانسان، بيروت دار الكتاب اللبناني، ط سنة ١٩٧٨.
  الثقافة ، والثقافة الاسلامية : دار الكتاب اللبناني، ط ٢ سنة ١٩٧٩.

الاسلام وايدلوجية الانسان : دار الكتاب اللبناني، ط٢ سنة ١٩٧٨.
– أبو زهرة، محمد :
الأحوال الشخصية ، القاهرة، دار الفكر العربي، ط٣
– الزحيلي : د. وهبه :
العلاقات الدولية في الاسلام، بيروت : مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨١.
– أبو زهرة : محمد أبو زهرة :
العلاقات الدولية في الاسلام، القاهرة دار الفكر العربي
– زيدان : جرجي :
التمدن الاسلامي، بيروت : دار الحياة سنة ١٩٦٧.
– ابن سعد : محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤م).
الطبقات الكبرى، القاهرة : دار التحرير سنة ١٩٧٨.
– السيوطي : جلال بن عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ/ ١٥٠٥م)
تاريخ الخلفاء ، القاهرة المكتبة التجارية ط ٤ سنة ١٩٦٩.
– الشوكاني : محمد بن علي بن محمد (ت ١٢٥٥هـ) :
نيل الأوتار من احاديث سيد الاخيار، بيروت دار الجيل سنة ١٩٧٣.
– الصالح : صبحي :
النظم الاسلامية، دار العلم للملايين، ط ٢ سنة ١٩٦٨.
– الطبري : محد بن جرير : (ت ٣١٠ هـ / ٩٢٣م)
تاريخ الطبري ، دار المعارف (١٩٦٠ – ١٩٦٩).
– عبد الباقي، محمد فؤاد عبد الباقي :
المعجم المفهرس لآيت القرآن الكريم.
– علي : محد كرد علي :
خطط الشام، بيروت : دار العلم للملايين، ط٢ سنة ١٩٧٠.
– عثمان ، د. عبد الكريم :
معالم الثقافة الاسلامية، بيروت : مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٢.
– عبد العزيز : أمير :
الانسان في الاسلام، عمان : دار الفرقان، سنة ١٩٨٤.
– عون : عبد الرؤوف :
الفن الحربي في صدر الاسلام، القاهرة : دار المعارف، سنة ١٩٦١.
– أبو عبيد ، د. عارف خليل :
العلاقات الخارجية في دولة الخلافة، الكويت، دار الأرقم سنة ١٩٨٣.
– عثمان ، د. محد رأفت :
الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الاسلام : بيروت : دار اقرأ ط٣ سنة ١٩٨٢.
– عطية الله، أحمد :
القاموس السياسي.
– عبد الله : الحسن :
آثار الأول ، القاهرة سنة ١٢٩٥ هـ.
– ابن عبد ربه : أحمد : (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠م)

العقد الفريد، تحقيق العريان : بيروت : دار الفكر سنة ١٩٥٤
- علي : سيد أمير :
مختصر تاريخ العرب، بيروت : دار العلم للملايين، ط ٢ سنة ١٩٦٧
- أبو عبيد : أبو عبيد القاسم بن سلام . (ت ٢٢٤هـ)،
الأموال، القاهرة الكليات الأزهرية، ط٣ سنة ١٩٨١ .
- فوزي، ابراهيم :
أحكام الاسلام في الجاهلية والاسلام، بيروت: دار الكلمة، سنة ١٩٨٢ .
- فوق العادة · سموحي .
معجم الدبلوماسية والشؤون الدولية.
- فرج ، أحمد .
المدرسة العسكرية الاسلامية، دار الفكر العربي، سنة ١٩٦٩ .
- القاسمي . ظافر :
الجهاد والحقوق الدولية العامة في الاسلام : بيروت : دار العلم للملايين، سنة ١٩٨٢ .
- ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم : (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م)،
عيون الأخبار . بيروت . دار احياء التراث، ط٢ سنة ١٩٦٣ .
- القلقشندي : أحمد بن عبد ربه . (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)،
صبح الأعشى في صناعة الانشاء : القاهرة.
- كلزيه · د. عبد الوهاب :
الشرع الدولي في عهد الرسول ، بيروت · دار العلم للملايين سنة ١٩٨٤ .
- الكاتب : عبد الحميد :
رسالة عبد الحميد / رسائل البلغاء ، القاهرة : مصطفى الحلبي سنة ١٩١٣ .
- الماوردي : علي بن محمد : (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)،
الأحكام السلطانية : بيروت · دار الكتب العلمية سنة ١٩٧٨ .
- المسعودي : علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) ،
مروج الذهب : القاهرة المكتبة التجارية ، ط ٣ سنة ١٩٥٨ .
- ابن مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت ٤٤٨هـ).
القاهرة ، سنة ١٩١٤ .
- ابن منظور : جمال الدين بن محمد بن مكرم : (ت ٧١١هـ / ١٣١١م)،
لسان العرب.
- المنجد : صلاح الدين :
النظم الدبلوماسية في الاسلام، بيروت : دار الكتاب، سنة ١٩٨٣ .
- المقريزي : تقي الدين بن أحمد : (ت ٨٤٥هـ) ،
الخطط. بيروت · دار صادر
- المبارك . محمد
العقيدة
الاقتصاد
- النجار، د. حسين فوزي .
الاسلام والسياسة، القاهرة : دار الشعب سنة ١٩٧٧ .

- النويرى : شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)،
نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة : دار الكتب، سنة ١٩٥٥ .
- ابن هشام : عبد الملك. (ت ١٤١هـ / ٧٥٨م) ،
السيرة النبوية (تحقيق مصطفى وزملاؤه) القاهرة : مصطفى الحلبي، سنة ١٩٣٦
- الواقدي : محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ) ،
المغازى ، تحقيق ماريدن جوس، بيروت عالم الكتب سنة ١٩٦٦ .
- ياسين : د. محمد نعيم :
الجهاد، ميادينه وأساليبه. عمان دار الفرقان ط٣ سنة ١٩٨٦ .
- أبو يوسف : يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ/ ٧٩٨م).
الخراج، المكتبة السلطانية، ط٣ سنة ١٣٨٣هـ.
- اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧هـ).
تاريخ اليعقوبي : بيروت دار صادر سنة ١٩٦٠ .
- ياقوت : شهاب الدين (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) :
بيروت : دار الكتاب العربي سنة ١٩٨٠ .

الفهرس